قانون التسخير في القرآن الكريم

دراسة تحليلية

رساله مقدمة الى مجلس كلية العلوم الاسلامية / جامعة كربلاء وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في الشريعة والعلوم الاسلامية

كتبت من قبل الطالبة

ميادة وائل عباس

بإشراف

أ.د. ضرغام كريم كاظم الموسوي

جمادى أولى ١٤٤٥ هـ **تشرين الثاني٢٠٢٣م**

الآية الكريمة

سورة طه : الآية / ٥

ترشيح الرسالة للطبع

نظرًا لإنجاز فصول ومباحث الرسالة الموسومة بـ (**قانون التسخير في القرآن الكريم- دراسة تحليلية**) لطالبة الماجستير(**مياده وائل عباس حسين**) فأني أُرشحها للطبع .

التوقيع:

المشرف :ا.د ضرغام كريم كاظم

مكان العمل: جامعة كربلاء

التاريخ: 2023/9/18

إقرار المشرف

أشهد أن الرسالة الموسومة بـ (**قانون التسخير في القرآن الكريم دراسة تحليلية**) قدمتها الطالبة (**ميادة وائل عباس**) قد تم إعدادها تحت إشرافي في جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في الشريعة والعلوم الإسلامية .

التوقيع :

المرتبة العلمية : استاذ

الاسم : ضرغام كريم كاظم

مكان العمل : جامعة كربلاء

التاريخ : 2023/9/24

بناء على التوصيات المتوافرة أرشح هذه الرسالة للمناقشة .

التوقيع :

الاسم : ا.د. محمد هاشم محمد [illegible]

التاريخ : 2023/10/30

شهادة الخبير اللغوي

اطلعت على رسالة/أطروحة الطالب/ـــه (صبادة وائل عباس حسين) الموسومة بـ (تماثون التكسير في القرآن الكريم - دراسة تحليلية)

وقومتها لغوياً وأجد أنها صالحة للمناقشة .

التوقيع:

المرتبة العلمية : مدرس دكتور

الاسم : سالم جاري مهدي

مكان العمل : جامعة كربلاء كلية العلوم الإسلامية

التاريخ:

إقرار لجنة المناقشة

نشهد نحن رئيس لجنة المناقشة وأعضاؤها أننا اطلعنا على هذه الرسالة الموسومة بـ (**قانون التسخير في القرآن الكريم - دراسة تحليلية**) وناقشنا الطالب/ـة **(مياده وائل عباس حسين)** في محتواها وفيما له علاقة بها ونعتقد أنها جديرة بالقبول بتقدير(امتياز) لنيل درجة الماجستير في الشريعة والعلوم الإسلامية.

التوقيع:

الاسم : أ.د. ناهدة جليل عبد الحسن

المنصب في اللجنة: رئيساً

التاريخ: ٢٠٢٢/١٢/١٤

التوقيع:

الاسم: أ.م. د.علي نهاد خليل

المنصب في اللجنة: عضواً

التاريخ:

التوقيع:

الاسم: م.د. ندى سهيل عبد

المنصب في اللجنة: عضواً

التاريخ:

التوقيع:

الاسم: أ.د. ضرغام كريم كاظم

المنصب في اللجنة: عضواً ومشرفاً

التاريخ:

صدقت في عمادة كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء

التوقيع:

الاسم: **أ.د.محمد حسين عبود الطائي**

العميد

التاريخ: ٢٠٢٢/١٢/٢

الإهداء

إلى من حمل الرسالة وبّلغها ومن بعث رحمة للعالمين من الأولين والأخرين نبي الرحمة أبي القاسم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

إلى من أذهب الله ﷻ عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا مناهل العلم والرحمة أهل بيت النبوة وموضع الرسالة (عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم)

إلى روح الذي توفى وهو يدعوا لي بأن ابلغ أعلى المقامات والدرجات العلمية والعملية.. والدي.

إلى التي بها أشحذ جذوة مسيرتي ، وبدعائها أرتقي سّلم حياتي ..نور عينيّ أمّي .

إلى الذي شاطرني متاعب هذا المشوار، فكان النور الذي أضاء سرّ ثباتي وتألقي .. زوجي.

إلى الذين كانت أعينهم ترمقني محبةً، وقلوبهم تنبض تواصلاً .. أشقائي .

إلى مَنْ احتضنتني في مسيرتي العلمية، فكانت نعم السند ورمز التفاني .. أختي الأستاذة منى وائل .

إلى قرة عيني وشموع حياتي، ابنتي مريم... وولديّ مصطفى وعلي...

إلى كلّ محبّ لكتاب الله الكريم تلاوةً .. وتدبرًا ..وعملاً صالحًا .

إلى كلّ هؤلاء .. أهدي عصارة جهدي .. وثمرة فكري .. بحثي هذا .

الباحثة

شكر وعرفان

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿**...أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ...**﴾[1]، فالحمد لله حمداً كثيراً ملئ السماوات والأرض واشكره قبل أي شيء على ما أكرمني به من تمام هذه الرسالة وأرجو من الله ﷻ أن تنفعني في ديني ودنياي، وأنال بها رضاه...

ثم يسعدني التقدم بجزيل الشكر والامتنان لكل من ساعد في إنجاز هذا البحث، وساهم في نضجه وخروجه على ما هو عليه الآن مضموناً وإخراجاً كما اخص بالشكر في هذا المقام، أستاذي المشرف، الطيب، الخلوق، الأب الحنون، والأخ العطوف، العالم الفاهم، المتواضع، السيد الأستاذ الدكتور **أ.د ضرغام كريم كاظم الموسوي**، الذي له الفضل في اختيار الموضوع، وكان سبباً رئيسياً في إتمام هذه الرسالة، وتكبد عناء الإشراف عليها، بتوجيه ملاحظاته وأفكاره الدقيقة والقيّمة، فأشكر له ما أولاني به من اهتمام كبير ورعاية علمية، وأثابه الله خير الثواب في الدنيا والآخرة، سائلة المولى أن يجعل كل ذلك في ميزان حسناته، وان لا يحرمنا من النفع به وبعلمه، كما أتقدم بالشكر الجزيل لأساتذة كلية العلوم الإسلامية قسم الدراسات القرآنية، ابتداءً من عميدها ومعاونيه، ورئيس قسمها، وجميع من تولاني بالرعاية في مرحلة الماجستير وتوفير المصادر، وأخص بالذكر رفيقة الدراسة الست **فاتن مظهر**، وأتمنى لهم دوام التوفيق والسداد في القول العمل، واحرص على تقديم شكر خاص لأسرة **قسم التربية والتعليم، وإدارة مكتب سماحة المتولي الشرعي للشؤون النسوية في العتبة العباسية المقدسة**، لما قدموه لي من أجواء بحثية وأخوية في خلال مسيرتي بكتابة هذه الرسالة، والذي اكتنز له شكري وامتناني وعرفاني واعتزازي واحترامي، وكان أملي وأُنسي وسندي في طريق العلم، وصبر على تقصيري ولم يشعرني به، رفيق دربي، الأستاذ **عمار جودي**، وأثني عليه لما بذله من جهود في سبيل إكمال مسيرتي العلمية، له مني وافر المحبة والتقدير والاحترام.

١()سورة لقمان: الآية / ١٢

الخلاصة

انزل الله ﷻ القرآن الكريم دستورا للحياة، ونظاما ربانيا يلهم الانسان الطريق الصواب، عندما تختلط في وجهه المسالك وتخشاه فتن تعمي بصيرته عن رؤية الكون ومسخّراته، إنَّ القرآن الكريم ليس منجاة فحسب بل فيه منهج السعادة والترقي الى اعلى مدارج التمدن والتحضر، عن طريق التدبر والفهم لما جاء في القرآن الكريم من تكرار نعمة التسخير في مواضع كثيرة، وسياقات مختلفة فالقرآن الكريم يبصرنا بمهمتنا الكبرى في هذا الكون، بربط المسخّرات بعلاقات نحو اداء كامل ينتظم فيه من ذراته الصغيرة الى مجراته الكبيرة بما فيها الانسان، وهذه العلاقات والتبادل منتظم بين المسخّرات والانسان ولدت منها علاقة اوثق، وهي علاقه التسخير هذه العلاقة التي يجب على الانسان فهمها وكشف قوانينها المحركة لها، حتى يصل الى ادراك اعمق لحركة الكون والحياه من خلال كشف السنن ومعرفة الاسباب المودعة في المسخّرات، وهذه سلسله طويلة من العلاقات في حال اقفالها لا يمكن تصور اي قيمة للوجود الذي ما جاء إلّا أن يظهر ذلك الموجود وقدراته وخصائصه التي تخيّرهُ على غيره من المخلوقات، لذا جهّز الله ﷻ الإنسان بمجموعه من الآلات التي تمكّنه من ادراك الخالق، عن طريق استشعار النعمة حتى يستطيع الوصول الى الاطمئنان، فكان لزاماً أن تتكامل سلسلة من العلاقات ويكون الخطاب للإنسان حَسُن وليس قبيح، فتلك المعطيات تؤكد على أنَّ الكون قائم على قانون فهو ليس وليد صدفة وإنّما قائم على نظام محكم لا يمكن أن يتخلّف عنها عنصر من عناصر الكون.

المحتويات

الآية الكريمة..... أ

الإهداء ..... ب

شكر وعرفان ..... ج

الخلاصة..... د

المحتويات ..... ه

أسباب اختيار الموضوع..... ٢

مشكلة البحث..... ٣

أهداف البحث ٣

أهمية الموضوع ٣

فرضية البحث..... ٤

صعوبات البحث ٤

الدراسات السابقة ٤

منهج البحث..... ٥

منهجية البحث..... ٥

الفصل الأول: الاطار النظري لمفاهيم البحث..... ٨ ـ ٦٣

المبحث الأول: معاني المفردات..... ٨

المطلب الأول: القانون وما يرادفه ٨

المطلب الثاني: التسخير والألفاظ ذات الصلة..... ١٥

المطلب الثالث : قانون التسخير كمركب..... ٢١

المبحث الثاني : أساليب القرآن في بيان قانون التسخير..... ٢٦

المطلب الأول : الأسلوب المباشر..... ٢٧

المطلب الثاني : الأسلوب غير المباشر ٤٥

المبحث الثالث: الدلالة البلاغية في آيات التسخير..... ٥١
المطلب الأول: التصوير الفني لقانون التسخير في القران الكريم..... ٥١
المطلب الثاني: الغاية من التصوير الفني لقانون التسخير في القرآن الكريم..... ٥٢
المطلب الثالث: عناصر الصورة الفنية لقانون التسخير في القرآن الكريم..... ٥٤

الفصل الثاني: طرائق معرفة قانون التسخير ومراتبهُ وخصائصهُ ٦٤ـ ١٢٠

المبحث الأول: طرائق معرفة قانون التسخير..... ٦٤
المطلب الأول: الحِس..... ٦٤
المطلب الثاني: العقل..... ٦٥
المطلب الثالث: الوحي..... ٦٦
المبحث الثاني: مراتب قانون التسخير..... ٦٩
المطلب الأول : تسخير الله ﷻ..... ٦٩
المطلب الثاني: تسخير الملائكة..... ٧١
المطلب الثالث : تسخير الإنسان..... ٧٤
المبحث الثالث : خصائص قانون التسخير الربانيّة..... ٨٠
المطلب الأول: ربّانيّة التسخير..... ٨٠
المطلب الثاني: قانون التسخير مظهر من مظاهر التوحيد والقدرة الإلهيّة..... ٨٣
المطلب الثالث: قانون التسخير خاضع للحاكميّة ولا يخرج عن المشيئة الإلهية..... ٨٥
المطلب الرابع:قانون التسخير مظهرللحكمة والعدل الإلهي في نفي العبثية..... ٨٧
المطلب الخامس: قيامهُ على التوازن والتناسب في الفيوضات والقابليات..... ٩١
المبحث الرابع: خصائص قانون التسخير العلميّة..... ٩٧
المطلب الأول: قانون التسخير وسمة الاطراد..... ٩٧
المطلب الثاني: قانون التسخير في الثبوتية والاستمرار..... ٩٩
المطلب الثالث: قانون التسخير لا يخرج عن قانون العليّة..... ١٠٠
المطلب الرابع: قانون التسخير في العمومية والشمولية..... ١٠٥

المبحث الخامس: قانون التسخير ذو الطابع الانساني..... ١٠٧
المطلب الأول: ارتباط قانون التسخير بالجزاء والثواب للإنسان ١٠٧
المطلب الثاني: قانون التسخير من مقومات الاستخلاف ١١١

الفصل الثالث: ميادين قانون التسخير في القرآن الكريم وفوائده ١٢١-١٨١

المبحث الأول: ميادين قانون التسخير في القرآن الكريم..... ١٢١
المطلب الأول: تسخير الأفلاك.....١٢١
المطلب الثاني: تسخير الماء.....١٢٥
المطلب الثالث: تسخير الأنعام و النبات.....١٢٧
المطلب الرابع: الرياح.....١٢٩
المبحث الثاني : فوائد قانون التسخير على المستوى العقدي..... ١٣١
المطلب الأول: فوائد قانون التسخير في تثبيت الواحدية ١٣١
المطلب الثاني: فوائد قانون التسخير في تأييد الأنبياء ١٣٥
المطلب الثالث: فوائد قانون التسخير في تحقيق العبوديّة.....١٣٨
المبحث الثالث: فوائد قانون التسخير على المستوى الفقهي ١٦٤
المطلب الأول: قانون التسخير في المباحث الفقهية.....١٦٤
المطلب الثاني : نماذج من المسخّرات وفوائدها في العبادات ١٦٥
المبحث الرابع: فوائد قانون التسخير على المستوى التنويري..... ١٧٤
المطلب الأول: قانون التسخير والأمر بالتفكر.....١٧٤
المطلب الثاني: أهمية التفكر بقانون التسخير ١٧٩
الخاتمة..... ١٨٢
التوصيات..... ١٨٣
المصادر والمراجع ١٨٥- ١٩٨
CONCLUSION.....A

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وأنعم عليه بالنطق والبيان، وجعل له المسخرات في كل مكان، دلائل باهرة على الرحمن، والتفكر بها من الإيمان، والفوز بالجنان، تفضلاً منه وإحسان، والصلاة والسلام على خير المرسلين، أبا القاسم محمد الأمين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد...

إنّ التسخير في هذا الكون من الذرة إلى المجرة، لا يقع صدفة ولا يجري بعشوائية، وإنّما يقع ويحدث وفق قانون دقيق وثابت ومحكم، وكل الموجودات تخضع لهذا القانون بما فيها الظواهر الكونية، فلا يمكن للإنسان من أن يغير شيئاً من هذا القانون، وإنّما بالنظر والتأمل والاستقراء للتجارب، يستطيع أن يوسع معرفة تفاصيله وجزئياته الكثيرة، وهذه القوانين جاءت في الآيات مشيرة تارة، وموضحة تارة أخرى، إلى تأكيد على أهم اصل من أصول الدين وهو التوحيد فوجود هذا القانون هو دليل على وجود خالق عظيم أفاض على الوجود كلٌ بقدر تقبله لهذا الفيض الإلهي، قال تعالى: ﴿... وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[1].

أسباب اختيار الموضوع

رغبةً في نفسي لخدمة كتاب الله الكريم، ولأسجل اسمي في صف من خدم القرآن الكريم وتسليط الضوء على ما في الكون من قوانين التي لو فهمها الإنسان، لتمكن من عمارة الأرض وفق مبدأ الاستخلاف الذي أراده الله ﷻ، والخروج من دائرة الألفة والعادة التي جعلت البرود يصيب الإنسان في محاوله الكشف عن قوانين المسخّرات، فهذه الأوراق للرد على المزاعم التي تجعل المادة هي اساس كل الوجود،

١()سورة الرعد: الآية/ ٨ .

واليقين بأنّ موضوع البحث من الأدلة التي يستدل بها على وجود الصانع، فالقرآن حجة خالدة والخالد يجب أن يعالج كل ما هو طارئ على الساحة.

مشكلة البحث

بيان إنّ الكون قائم على نظام وما يدعيه الآخرون من أنّ العالم وليد صدفه مرفوض وفقا للمعطيات القرآنية، التي تؤكد على وجود نظام محكم لا يمكن ان يتخلف عنها عنصر من عناصر الكون، وإنّ المسخرات منتظمة ومنسقة وفق قانون ثابت مطرد لا يتغير ولكنه ليس أزلي، لذا فإنَّ قانون التسخير لا ينفك عن التدبير والقيمومية الإلهية، وغير خاضع للعبثية، فهو لا ينسجم مع الصدفة، وبيان أنه ليس حكراً على المؤمنين فهو يشمل الإنسانية ككل، وهو مبدأ دفاعي عن الإسلام غايته إثبات الخالق .

أهداف البحث

١ـ بيان صفات الله ﷻ التي تتجلى من خلال قانون التسخير .

٢ـ إثبات أن هناك قانون للمسخّرات.

٣ـ تعزيز العلاقة بين الإنسان وعقيدته بالقرآن الكريم .

٤ـ بيان المظاهر التسخيرية للكون .

أهمية الموضوع

الأهمية تكمن في بُعدين:

الاول: تنويري وهو هداية الناس من خلال التفكر الذي يفضي إلى الإيمان بخالق واحد مدبر للكون وفق قانون ثابت مطرد، وهذه النعم الظاهرة والباطنة متسقة بنظام لا يخل ابداً يزداد فيه إيمان المؤمن ويزداد شكره ويتبين جحد الكافر.

الثاني: دفاعي وهو الدفاع عن الإسلام وكتابه المعجزة الخالدة، إذ من خلاله نستطيع نثبت أن هذا الكتاب معجز؛ لأنّ قانون التسخير يسري على جميع مرافق الحياة والكون إذ إنّ القرآن الكريم كتاب الله ﷻ المقروء، وهذا الكون بما فيه كتاب الله ﷻ المنظور، نقلب في صفحاته، فنرى في كل صفحة منه آية تدل على قدرة الخالق وبديع صنعه، وإن القرآن الكريم كتاب هداية للناس لا تنقطع عجائبه، ويحمل في طياته من الحقائق والنتائج العلمية الباهرة .

فرضية البحث

١. هل التسخير قانون؟ وهل صُرّح بذلك في القرآن الكريم؟
٢. هل ممكن أن ننطلق منه لبناء نظرية قرآنية حول الكون؟
٣. ما مراتب قانون التسخير وخصائصه؟
٤. ما هي الفوائد المتوخى على العمل بقانون التسخير واكتشافه وفهمه؟

صعوبات البحث

من الصعوبات التي واجهت الباحثة هي شمولية قانون التسخير لكل ما في الكون فكل مسخّر له قانونه وآثار تترتب على دراسته فمن الصعوبة حصر كل المسخرات وبيانها في مؤلف واحد.

الدراسات السابقة

لم أجد في تتبعي عن دراسة سابقة لقانون التسخير في المؤلفات الاماميّة، أمّا عند المذاهب الأخرى فكان كتاب التسخير في القرآن والسنة لنجلاء الجهني تناولت التسخير من جانب عام.

وكتاب التسخير الكوني من السؤال الى النظرية لمسفر بن علي القحطاني وكان جُل تركيزه على توظيف التسخير في عمارة الأرض ونهضة الأمّة دون بيان هل هذا التسخير وفق قانون؟

وهناك الكثير من البحوث والرسائل والأطاريح التي تتناول مسخّر واحد وكتسخير البحار أو تسخير الشمس...

منهج البحث

كان المنهج الاستقرائي حاضرا في البحث لأن طبيعة البحث تستوجب استقراء الآيات التي فيها التسخير، وكذلك المنهج التحليلي عن طريق التركيز فيه على استنطاق النصوص القرآنية، وتولد الأفكار منها لقانون التسخير؛ لأنّ النصوص غالباً لم تنص عليه نصاً ظاهرا، وكذلك استخراج قانون التسخير مدعم بالأدلة الواضحة وعملية انتقاء الأفكار من النصوص لم تقم على هوى ولا تعصب، وقد بذلت الباحثة الوسع في استقراء الآراء والأقوال المتعلقة بالتسخير فبحثت في المعاجم اللغوية وكتب اللغة، وعلوم القران والعقائد والأخلاق والتفسير واستعملت البحث الألكتروني في تقصي الموضوع من مضانه.

منهجية البحث

ان طبيعة القرآن الكريم تغري الباحث للغوص في اعماقه، والمتأمل في الكتاب الكريم وما فيه من آيات تحدثت عن التسخير، يجد نفسه امام كم كبير من الخزين المعرفي الذي أُنتِج في خدمة القرآن، فعندما شمّرت الباحثة عن ساعد الجد، لبحث قانون التسخير في القرآن الكريم، وجدت ان المنهجية التي تكاد تكون هي الافضل في نظر الباحثة، ان يقسم البحث الى ما يأتي:

الفصل الأول الذي سميته الاطار النظري لمفاهيم البحث، تضمن ثلاثة مباحث تناولت فيه مفاهيم البحث من التعريف بمفردات العنوان في اللغة والاصطلاح، واهم المصطلحات ذات الصلة بالتسخير والقانون كذلك المصطلحات المرادفة للفظتين

وكذلك بينت مضامين معنى التسخير ومفهوم قانون التسخير كمركب، ثم أوضحت أساليب القرآن في بيان قانون التسخير والبعد الدلالي له .

أما الفصل الثاني والذي سجل باسم طرائق معرفة قانون التسخير ومراتبه وخصائصه بيّنته بخمسة المبحث الأول طرائق معرفة قانون التسخير، والمبحث الثاني مراتب قانون التسخير، والمبحث الثالث خصائص قانون التسخير الربانيّة، والبحث الرابع خصائص قانون التسخير العلميّة، والمبحث الخامس قانون التسخير طابع الإنساني .

الفصل الثالث والذي جاء بعنون ميادين قانون التسخير في القرآن الكريم وفوائده كان في مباحث، الأول ميادين قانون التسخير في القرآن الكريم ثم رعيت المستويات في بيان الفوائد فكان أولها المستوى العقدي وبعده المستوى الفقهي ثم المستوى التنويري وفي الختام كانت الخاتمة تحوي النتائج والتوصيات التي خرجت من البحث.

واسأل الله ﷻ القبول فإن أحسنت فمنه سبحانه وتعالى وإن قصرت والتقصير حاصل فمن نفسي فاستغفر الله ﷻ وأتوب إليه، وقناعتي البسيطة اني بذلت وسعي وأخلصت نيتي وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وافضل الصلاة وأتم التسليم على محمد واهل بيته الطيبين الطاهرين.

الفصل الأول: الاطار النظري لمفاهيم البحث

المبحث الأول: معاني المفردات

المطلب الأول: القانون وما يرادفه

المطلب الثاني: التسخير والألفاظ ذات الصلة

المطلب الثالث : قانون التسخير كمركب

المبحث الثاني : أساليب القرآن في بيان قانون التسخير

المطلب الأول : الأسلوب المباشر

المطلب الثاني : الأسلوب غير المباشر

المبحث الثالث: الدلالة البلاغية في آيات التسخير

المطلب الأول: التصوير الفني لقانون التسخير في القران الكريم

المطلب الثاني: الغاية من التصوير الفني لقانون التسخير في القرآن الكريم

المطلب الثالث: عناصر الصورة الفنية لقانون التسخير في القرآن الكريم

الفصل الأول: الاطار النظري لمفاهيم البحث

من المتعارف في المنهج العلمي تقديم تعريف لمفاهيم العنوان، حتى نستطيع أن نحدد مساحة البحث ونخرج الأغيار، وهذا أمّا يتم بالألفاظ الأكثر وضوحاً أو بالألفاظ التي تبيّن حقيقة الشيء وماهيته، وبناء على ذلك قُسم الفصل إلى مباحث تضم مفاهيم العنوان .

المبحث الأول: معاني المفردات

في مستهل الحديث عن تلك الألفاظ - القانون والتسخير - لابد من بيان بالتعريف اللغوي والاصطلاحي وما يرادف القانون، ثم بيان المعنى اللغوي والاصطلاحي والألفاظ ذات الصلة للتسخير، ثم التعريف بمفهوم قانون التسخير.

المطلب الأول: القانون وما يرادفه

أولا: القانون لغة :

بعد التقصي والبحث في المعاجم القديمة كمعجم العين للفراهيدي(١٧٠هـ)، وجمهرة اللغة لابن دريد الأزدي(٣٢١هـ)، وتهذيب اللغة للأزهري(٣٧٠هـ)، ومقاييس اللغة لابن فارس(٣٩٥هـ)، لم يجد البحث معنىً لتلك اللفظة، إلا إن الجوهري(٣٩٣هـ) ذكرها وقال (القوانين الأصول، الواحد قانون وليس بعربي)[١]، وهذا ما نقله الرازي(٦٦٦هـ) أيضاً في مختار الصحاح[٢]، لابد من الإشارة أنّ بن سيده (٤٥٨هـ)، ذكر لفظة القانون بشيء من الإيضاح، قال: (وقانون كل شَيْء:

---

(١)الجوهري، إسماعيل بن حماد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م ٢١٨٥/٦ .

(٢)ينظر: الرازي، زين الدين بن أبي بكر: مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، ط٥، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، مادة قننو٤٨٧.

طَرِيقه ومقياسه، وأراها دخيلة)[1]، ثم أوردها ابن منظور(٧١١هـ) في لسانه[2]، باللفظ نفسه الذي اختاره بن سيده، وإنّ بن سيده(٤٠٥هـ) حين راها دخيلة فإنه يقصد (أدْخلت فِي كَلَام الْعَرَب وَلَيْسَت مِنْهُ)[3]، وقال السيوطي(٩١١هـ) في معجمه (القانونُ: أَمرٌ كلي منطبق على جزئيات يتعرف أَحْكَامهَا مِنْهُ)[4]، كما بينها الزبيدي (١٢٠٥هـ) في تاج العروس إذ اسند القول لغيره أن لفظة قانون رومية أو فارسية[5].

هذا إن دلّ على شيء إنما يدل على أن لفظة القانون هي ليست عربية، لكنها اندرجت في لغتنا منذ ما يزيد على الألف عام وصارت لفظاً يألفه الجميع في كتاباته، و من الملاحظ أن ابن سينا (٤٢٨هـ) استعملها في كتابه القانون في الطب عنواناً له[6]، ونجد ابن خلدون (٨٠٨هـ) اطلقها على احد فصوله في مقدمته وهو (الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية)[7]، ذكر الكفوي (١٠٩٤هـ) لفظة القانون بتفصيل اكثر، قال :(القانون: هُوَ كلمة سريانية بِمَعْنى المسطرة، ثمَّ نقل إلى الْقَضِيَّة الْكُلية من حَيْثُ يسْتَخْرج بهَا أَحْكَام جزئيات الْمَحْكُوم عَلَيْهِ فِيهَا وَتسَمى تِلْكَ الْقَضِيَّة أصلا وَقَاعِدَة، وَتلك الْأَحْكَام فروعاً، واستخراجها من ذَلِك الأَصْل تَفْرِيعا ثمَّ

١()بن سيده، علي بن إسماعيل: المحكم والمحيط الاعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، فصل القاف، مادة ق ن ن ،١٣٦/٦.

٢()ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن على: لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤ هـ، مادة قنن، ٣٤٩/١٣.

٣()بن سيده: المحكم والمحيط الأعظم ١٤٠/٥.

٤()السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، ط١، تح: محمد إبراهيم عبادة، نشر، مكتبة الآداب، القاهرة ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤ م، ١١٧/١.

٥()ينظر: الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، (د.ت)، ٢٤/٣٦.

٦()ينظر: ابن سينا، الحسين بن عبد الله: القانون في الطب، تح: محمد أمين الضناوي، (د.ت).

٧()ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ط٢، تح: خليل شحادة، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ٦٩٢/١.

المسطر يحْتَمل مسطر الْجَدْوَل وَالْكِتَابَة وَهَذَا مَا هُوَ الْمَشْهُور بَين متأخري أَرْبَاب الْمنطق وبخلافه كَانَ القدماء يسمون كل آلَة عملت لامتحان مَا عَسى أَن يكون الْحس قد غلط فِيهِ من جسم أَو كَيْفيَّة أَو غير ذَلِك مثل الشاقور والبركار والمسطر والموازين قوانين ويسمونه أَيْضا جَوَامِع الْحساب، وجداول النُّجُوم قوانين، والكتب المختصرة الَّتِي جعلت تذاكير لكتب طَوِيلَة قوانين إِذا كَانَت أَشْيَاء قَليلَة الْعدَد تحصر أَشْيَاء كَثِيرَة وَيكون بعلمنا وحفظنا إِيَّاهَا قد علمنَا أَشْيَاء كَثِيرَة الْعدَد)[١]، فبيّن أنّ قانون لفظة غير عربية، وإنّها قضية كلية تنطبق عليها جزئياتها.

القانون مجموعة من القواعد فُرضت على الإنسان من الخارج، الغاية منها تنظيم شؤون حياته، فلو كانت واجبة من غير تشريع فهي عرف أو عادة أو تقليد، وإذا كانت بتشريع صريح مفروض على الإنسان وضعتها السلطات الاجتماعية للمصلحة العامة سُميت بالقوانين الوضعية، ومبدأ القوانين هو مرادف لمبدأ الحتمية وهو أنَّ في العالم نظاماً كلياً ودائماً وثابتاً لا يشذ عنه في المكان والزمان شيء[٢]، قيل إن لفظة قانون انتقلت إلى اللغة العربية بأصلها اليوناني Kanon وتفيد معنى العصا المستقيمة[٣].

بذلك يكون القانون هو النسق القويم الذي يتميز عن الميل والانحراف، وهو امر كلي منطبق على جزئيات تُحكم به، يتّسم بالثبات والاستمرار والاطراد والعموم والغاية منه التنظيم وفق غاية أو هدف فيه صلاح الفرد أو المجتمع، ويعود بالنفع لهما.

ثانياً : القانون اصطلاحاً :

ظاهرة القانون نشأت بشكل بدائي مع وجود الإنسان، ثم تطورت القاعدة

---

(١)الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت(د.ت)، فصل القاف، ٧٣٤/١.

٢()ينظر: صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ١٩٨٢م، ١٨٠/٢-١٨٢ .

٣()ينظر: الرفاعي، احمد محمد :المدخل للعلوم القانونية(نظرية القانون)، ٢٠٠٨م، ٧ .

القانونية انطلاقاً من الخلية الأولى وهي الأسرة ثم القبيلة، وتأثرت القاعدة القانونية بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية، مما أدى إلى عدم تساويها، وبصورة عامة اتسمت القوانين في مراحلها الأولى بالصفة الدينية، فكانت أوامر إلهية يبلغها الحاكم أو الكهنة إلى الناس، وما لبثت أن فقدت جوهرها وامتزجت مع القواعد التي يضعها الكهنة انفسهم وينسبونها إلى الآلهة، وتطورت القوانين في مرحلة لاحقة إلى صورة أعراف وتقاليد اعتاد الناس جيل بعد جيل عليها، واستقرت في ضمائرهم إلى حد الاعتقاد بإلزاميتها لهم، وبعد ذلك انتقل الإنسان إلى مرحلة تدوين القوانين وإعلانها للناس لمعرفة الحقوق والواجبات، وعندئذ ظهرت المدونات القانونية إذ كان الشرق اسبق من الغرب في هذا المضمار(١).

وفي العصر الحديث ارتبطت القاعدة القانونية ارتباطاً وثيقاً بفكرة وجود قوة ذات سيادة في كل دولة بحيث تكون لها سلطة في سن القوانين وإلغائها وفق إرادتها، وهناك نظام اشمل وأعلى مرتبة هو القانون الدولي(٢)، فقال الجرجاني(٨١٦هـ): (القانون: كلي منطبق على جميع جزئياته التي يتعرف أحكامها منه، كقول النحاة : الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، والمضاف إليه مجرور)(٣)، وعُرف القانون في الاصطلاح: (انه مجموعة من القواعد الملزمة التي تنظم علاقات الأفراد في المجتمع، أو مجموعة من القواعد تضعها السلطة التشريعية لتنظيم موضوع معين)(٤).

القانون الوضعي **:** هو (مجموعة من القواعد التي تنظم الروابط الاجتماعية،

١()ينظر: الفتلاوي، صاحب عبيد: تاريخ القانون، ط١، دار الثقافة، الأردن، ١٩٩٨م، ٥٢-٥٤ .

٢()ينظر: لويد، دينيس: فكرة القانون، تعريب: سليم الصويص، مراجعة: سليم بسيسو، عالم المعرفة، العدد ٤٨، نوفمبر، ١٩٨١م، ٩ .

(٣)الجرجاني، علي بن محمد بن علي: التعريفات، ط١ تح: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م، باب القاف ١٧١/١.

(٤)سليم، هشام طه محمود: المدخل في دراسة العلوم القانونية نظرية القانون ونظرية الحق،٢٠١٤م، ٨.

والتي تقسر الدولة الناس على اتباعها ولو بالقوة عند الاقتضاء)[1]، أو هو(مجموعة من القواعد التي تنظم سلوك الأفراد في الجماعة وتعمل السلطة العامة على تطبيق هذه القواعد من خلال توقيع الجزاء على من يخالفها)[2] فهذ النوع من القواعد مفروضة على الإنسان بتشريع صريح من الدولة أو المؤسسة الحاكمة لمصلحة العامة وتكون ملزمة بجزاء.

يُلحظ من ذلك أَنّ القانون أمرٌ عام، كلي منطبق على جزئيات كثيرة، فلا يخرج المعنى اللغوي عن المعنى الاصطلاحي، في العمومية والشمولية والانطباق على الجزئيات، فالمراد بالقانون مجموعة قواعد لا يتخلف عنها احد إلا ما شذّ

إنّ الظاهرة القانونية إنمازت بأنها مجموعة قواعد ضابطة للسلوك الإنساني غايتها تنظيم الحياة تحاكي مجتمع بشري، متأثرة ببيئة ذلك المجتمع ومتغيرة على ضوئه، فهي تصور ذهني من صنع الإنسان ويستطيع مخالفتها، لذا فإنّ للظاهرة القانونية ميلا للتطور والتغيير باستمرار من خلال تشريع جديد، أو مواكبة لحالة طارئة[3]، فالظاهرة القانونية خارج مجال البحث، وهو ميدان أهل القانون الاجتماعي والإداري والسياسي، فهي قوانين متغيرة بتغير الزمان والمكان والمجتمعات[4]، صادرة من الإنسان تنعكس فيها عجز البشر ونقصهم.

ثالثاً: المصطلحات المرادفة للفظة القانون

كل لفظ يتميز بصورة ودلالة، قد تنطبق دلالته على صور أخرى، من جهة

---

(١)السنهوري، عبد الرزاق احمد، ابو شتيت، أحمد حشمت: اصول القانون أو المدخل لدراسة القانون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٠م، ١٣.

٢()منصور، محمد حسين: المدخل لعلم القانون،ط١، منشورات الحلبي الحقوقية، لبنان، ٢٠١٠م،١١.

٣()ينظر: لويد، دينيس: فكرة القانون، ٢٦٥ .

(٤)ينظر: عودة، عبدالقادر: التشريع الجنائي الاسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، (د.ط)، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت)، ١/١٨.

معينة أو من عدة جهات، القانون احد تلك الألفاظ، فهو السنة والناموس والأصل والقاعدة والمعيار والنظام والشريعة[1]، بالتبادر تقترب لفظة القانون لدرجة الالتصاق بالسُنة والقاعدة ، كما سيبينها البحث.

١- السُنّة

السُنّة، من الفعل الثلاثي سنن حيث نجد له في المعاجم معاني عديدة منها حد السكين، وصقل السيف، أو الحجر، وأكلت الابل ورعت، والسير في طريقة[2]، وغيرها من المعاني اللغوية، يقول بن فارس(٣٩٥هـ): (السِّينُ وَالنُّونُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ جَرَيَانُ الشَّيْءِ وَاطِّرَادُهُ فِي سُهُولَةٍ، وَالْأَصْلُ قَوْلُهُمْ سَنَنْتُ الْمَاءَ عَلَى وَجْهِي أَسُنُّهُ سَنًّا، إِذَا أَرْسَلْتَهُ إِرْسَالًا)[3]، وهذا التعريف يتجه بالسنن إلى لفظة القانون بما اتسم من اطراد وتسلسل منتظم.

يُلحظ أنّ كثير من الباحثين والمفكرين عند الحديث عن السنة يصفوها بالقانون، فالسيد محمد باقر الصدر قدس سره ربط بين السنن التاريخية والقانون قائلاً : (ان السنة التاريخية ربانية مرتبطة بالله سبحانه وتعالى (سنة الله) كلمات الله على اختلاف التعبير، بمعنى أن كل قانون من قوانين التاريخ فهو كلمة من الله سبحانه وتعالى وهو قرار رباني)[4]، أما عبد الكريم زيدان فقال: (سنة الله هي القانون العام الذي يحكم أفعال البشر وسلوكياتهم)[5] قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ

---

(١)ينظر: صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، ١٧٩/٢-١٨٠ .

(٢)ينظر: ابن منظور: لسان العرب٢٢٠/١٣، الكفوي: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية،ص٤٩٧.

(٣)الرازي، أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر،١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م،٦٠/٣.

(٤)الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنية، ط١ دار القران الكريم، لبنان، ٢٠١٣م، ٧١.

(٥)زيدان، عبدالكريم، السنن الالهية في الامم والافراد والجماعات في الشريعة الاسلامية: ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م، ١٤.

اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1]، (وصف الله ﷻ تلك السنة بأنها راسخة فيما مضى أعقب ذلك بوصفها بالتحقق في المستقبل تعميما للأزمنة بقوله: وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا لأن اطراد ذلك النصر في مختلف الأمم والعصور وإخبار الله تعالى به على لسان رسله وأنبيائه يدل على أن الله أراد تأييد أحزابه فيعلم أنه لا يستطيع كائن أن يحول دون إرادة الله ﷻ)[2] وقيل السنن هي (قانون الله العادل في الخلق المؤثر في حياة الناس لا يحابي أحدا)[3].

إنَّ لفظ السُنن تأتي بمعنى القانون على الرغم من أَنَّ لفظة قانون ليس لها أصول عربية، إلا إنّ اغلب الباحثين والمفكرين أدرجوها في كتاباتهم على أَنّها طريقة مستقيمة تتسم بالثبات والاطراد، فقد أودع الله ﷻ في هذا الكون سنن تحكم الموجودات جميعاً بما لها من صفات العموم والشمول، والثبات والدوام، وبهذا فهي بمعنى واحد مع القانون، فالسنن استعمال قرآني وهي لفظة عربية، أمّا القانون لفظة غير عربية .

٢ ـ القاعدة

الفراهيدي(١٧٠هـ) بيّن لفظة القاعدة فقال : (وقعائِدُ الرَّمْلِ وقواعِده: ما ارتكن بعضه فوق بَعْض)[4]، وقال ابن منظور(٧١١هـ): (القاعِدَةِ: أَصلُ الأُسِّ، والقَواعِدُ: الأساسُ، وقواعِد الْبَيْتِ أساسُه)[5]، وفي التعريفات(القاعدة: قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها)[6]، فالقاعدة ممكن أن تكون أخلاقية أو منطقية، أو فنية، فيُقال: قواعد

١()سورة الفتح: الآية / ٢٣ .

٢()بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي: التحرير والتنوير، ١٥٥/٢٦ .

(٣)هيشور، محمد: سنن القران في قيام الحضارات وسقوطها، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م، ٢٨.

(٤)الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم، (د.ط)، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال(د.ت)، ١٤٣/١.

(٥)ابن منظور: لسان العرب، ٣٦١/٣.

(٦)الجرجاني: التعريفات، باب القاف١٧١/١.

السلوك وقواعد الفن وقواعد القياس، وإن القاعدة تنشئ الشيء وتوجب العمل به[١].

إنَّ القانون ارتبط بالقاعدة من جهة إنّه امر كلي منطبق على جزئياته، وهو اصل لمجموعة من القواعد، فالمعنى اللغوي والاصطلاحي للقاعدة يتصفان بالاطراد والعموم والشمولية، فلا يبتعد هذا المعنى عن معنى القانون.

المطلب الثاني: التسخير والألفاظ ذات الصلة

بعد تتبع الباحثة للمعجمات وكتب التفسير، وجدتُ إنَّ لِلفظة سخَّر دلالات مختلفة، تتباين بتباين السياق الذي وضعت له، فالسياق كاشف عن المدلول بقرينة تصرف عنها المعاني الأخرى، كما سيبينها البحث.

أولاً: التسخير لغة :

يُلحظ من خلال القراءة الأولية لبعض المعجمات وكتب اللغة، إنّ لفظة سخَّر لها معنين، يختلفان عن بعضهما من حيث الدلالة وهي: **الهُزء** و**التذليل**، أما المعاني الأخرى جُلها تنطوي في معنى التذليل.

قال الفراهيدي(١٧٠هـ) في العين: (السُّخَرَة: الضُّحَكَةُ)[٢]، وقال ابن فارس(٣٩٥هـ) (سَخِرْتُ مِنْهُ، إِذَا هَزِئْتَ بِهِ)[٣]، وقال الراغب(٥٠٢هـ): (وسَخِرْتُ منه، واسْتَسْخَرْتُهُ لِلْهُزْءِ منه)[٤]، وقال ابن منظور(٧١١هـ) (وسَخِرْتُ مِنْ فُلَانٍ هِيَ اللُّغَةُ الفصيحةُ ... سَخِرْتُ مِنْهُ وسَخِرْتُ بِهِ، وضَحِكْتُ مِنْهُ وَضَحِكْتُ بِهِ، وهَزِئْتُ مِنْهُ وهَزِئْتُ بِهِ)[٥]، وبناء على ذلك يتضح المعنى الأول لسخر وهو الهزء.

---

(١)ينظر: صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، ١٧٨/٢.

(٢)الفراهيدي: العين، ١٩٦/٤.

(٣)الرازي، أحمد بن فارس: مقاييس اللغة، ١٤٤/٣.

(٤)الأصفهاني، أبو الحسين بن محمد الراغب: مفردات ألفاظ القرآن، ط١، تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، بيروت، ١٤١٢ هـ ، ٤٠٢.

(٥)ابن منظور: لسان العرب، ٣٥٤/٤.

قال الفراهيدي(١٧٠هـ): (سَخَرَتِ السفن: أطاعت وطاب لها السير... وقد سَخَّرَها الله لخلقه تَسْخيرا، وتَسَخَّرتُ دابة لفلان: ركبتها بغير أجر)[١]، قال ابن فارس(٣٩٥هـ): (السِّينُ وَالْخَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُسْتَقِيمٌ يَدُلُّ عَلَى احْتِقَارٍ وَاسْتِذْلَالٍ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُنَا سَخَّرَ الله عَزَّ وَجَلَّ الشَّيْءَ، وَذَلِكَ إِذَا ذَلَّلَهُ لِأَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ)[٢]، وقال ابن منظور(٧١١هـ): (السُّخْرَةُ: مَا تسَخَّرْتَ مِنْ دابَّة أَو خَادِمٍ بِلَا أَجر وَلَا ثَمَنٍ. وَيُقَالُ: سَخَرْتُه بِمَعْنَى سَخَّرْتُه أَي قَهَرْتُه وَذَلَّلْتُهُ... كَلَّفَهُ مَا لَا يُرِيدُ وَقَهَرَهُ. وَكُلُّ مَقْهُورٍ مُدَبَّرٍ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ مَا يُخَلِّصُهُ مِنَ الْقَهْرِ، فَذَلِكَ مسخَّر... كُلُّ مَا ذَلَّ وَانْقَادَ أَو تهيأَ لَكَ عَلَى مَا تُرِيدُ، فَقَدْ سُخِّرَ لَكَ)[٣] وذكر الفيومي(٧٧٠هـ)[٤] بأن التسخير هو تذليل وتسهيل و الاستعمال بلا اجر.

قال الفيروزآبادي(٨١٧هـ): (سَخَّرَهُ تَسْخِيراً: ذَلَّلَهُ، وكَلَّفَهُ عَمَلاً بلا أُجْرَةٍ)[٥]، وفي القاموس الوافي بالإضافة إلى المعاني التي ذكرت فقد أضاف معنى التسليط فقال : (سخّر الله الابل ذلّلها وسهّلها وعليه سلّطه وفي التنزيل ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا...﴾[٦])[٧].

تأسيساً على ما سبق يتضح للبحث أن لفظة سخّر لها معاني متعددة في اللغة، جُلها تنطوي على معنين الأول ضمن الهُزء والضحك والثاني من ذلّل، سهّل، إنقاد،

---

(١)الفراهيدي: العين،١٩٦/٤.

(٢)الرازي، أحمد بن فارس: مقاييس اللغة،١٤٤/٣.

(٣)ابن منظور: لسان العرب،٣٥٣/٤-٣٥٤.

(٤)ينظر: الفيومي، أحمد بن محمد بن علي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية ، بيروت، (د.ت)،٢٦٩/١

(٥)الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، ط٨، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، لبنان، ٢٠٠٥م،٤٠٥/١.

٦()سورة الحاقة: الآية/١٣ .

٧()أبو عمرو، شهاب الدين: القاموس الوافي، ط١، مراجعة وتصحيح: يوسف البقاعي، دار الفكر، لبنان، ٢٠٠٣م، ٦١٨.

هيأ، سلّط، قهر، وتلك المعاني تظهر موافقة مع السياق المتحدث به، فقضية تحديد المعنى اللغوي الدقيق لسخّر، يعتمد على القدرة في فهم السياق الكائنة فيه تلك اللفظة.

ثانياً : التسخير اصطلاحاً

قال الراغب الأصفهاني(٥٠٢هـ): (التَّسْخِيرُ: سياقة إلى الغرض المختصّ قهرا... فَالْمُسَخَّرُ هو المقيّض للفعل، والسُّخْرِيُّ : هو الذي يقهر فَيَتَسَخَّرُ بإرادته)(١)، وقال في تفسيرِهِ (التسخير القهر على الفعل وهو أبلغ من الإكراه ، فإنه حمل الغير على الفعل بلا إرادة منه على وجه كحمل الرحى على الطحن)(٢).

يُلحظ أنّ مفهوم التسخير لدى الأصفهاني هو القهر على الفعل بلا إرادة في تفسيره ومعها في معجمِهِ، لكنه اخرج الإكراه وجعل القهر ابلغ منه، فالمسخّرات مُساقات إلى الغرض المختص غير مكرهة فهي مطيعة وقد طاب لها السوق.

وقال أبو حيان(٧٤٥هـ): (التسخير هُوَ التَّذْلِيلُ وَجُعِلَ الشَّيْءُ دَاخِلًا تَحْتَ الطَّوْعِ)(٣)، وقال البقاعي(٨٨٥هـ): (هو إجراء الشيء على مقتضى غرض ما سخّر له)(٤)، وفي معارج التفكر ودقائق التدبر عُرِفَ التسخير أنه: (التّذليل لعمل ما، أو أمر ما، و جعل الشيء، مطاوعا لما يراد منه، ضمن قانون التسخير الرّبّانيّ له)(٥).

إنّ التسخير هو تذليل الشيء إذ يكون عمله على ما هو عليه في سبيل مقاصد

---

(١)الأصفهاني، ابو الحسين محمد الراغب: مفردات ألفاظ القرآن، ٤٠٢.

(٢)الأصفهاني، أبو الحسين بن محمد الراغب: تفسير الراغب الأصفهاني، ط١، تح: محمد عبد العزيز بسيوني، نشر كلية الآداب - جامعة طنطا، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م،٣٦٠/١.

(٣)الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان: البحر المحيط، ط١، تح: صدقي محمد جميل، نشر، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، ٦٤/٢ .

(٤)البقاعي، إبراهيم بن عمر: نظم الدرر في تناسب الآيات و السور، ط٣، تح: عبد الرزاق غالب، نشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ، ٢٩٧/١.

(٥)الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة: معارج التفكر ودقائق التدبر، ط١، دار القلم، دمشق، ١٤٠٢ هـ،٦٦١/٣.

المسخِّر، وهذا غير الإجبار والإكراه والقسر فإنّ الفاعل فيها خارج عن مقتضى اختياره أو طبعه بخلاف الفاعل المسخَّر فإنَّه جار على مقتضى طبعه واختياره كما أنّ إحراق الإنسان الحطب بالنار فعل تسخيري من النار وليست بمقسورة، وكذا فعل الأجير لمؤجره فعل تسخيري من الأجير وليس بمجبر ولا مكره[١].

يُلحظ أنَّ التسخير في المعنى الاصطلاحي، أُخذ مفهومه من المعنى اللغوي من جهة كون التسخير هو التذليل طوعا تارةً، و قسراً تارةً أخرى، مع عدم الوضوح في بيان إرادة المسخَّر في الحالتين في الجانب اللغوي، إلا إنّ إدخال الشيء في طوع المسَخِّر والانقياد له هو المشترك بين المعنى اللغوي والاصطلاحي.

ثالثاً : الألفاظ ذات الصلة بالتسخير

للتسخير وجوه هي التذليل والتسليط والهُزء والاستخدام[٢]، قال الطوسي (٤٦٠هـ): (التسخير، والتذليل، والتمهيد نظائر... واصل باب التسخير: التذليل)[٣]، فالظاهر أن الشيخ الطوسي على الرغم من أنه وضع نظائر للتسخير، وهي التمهيد والتسهيل، إلا إنه رجّح التذليل، وجعله الأصل لمفهوم التسخير.

١ ـ التذليل

التذليل لغةً : من الذل، الذَّلُول بمعنى المُنْقاد من الدواب[٤]، ويأتي بمعنى محمود كالرفق والرحمة[٥]، وطريق مذلل اذا كان سهلاً، وهو نقيض العز[٦]، الذل بالضم في الإنسان ضد العز و بالكسر في الدابة ضد الصعوبة؛ لأن ما يُصيب الإنسان

١()ينظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ٣١٢/١٤ .

٢()ينظر: دامغاني، حسين بن محمد: الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، ط١، لجنة احياء التراث الاسلامي، تح: محمد حسن ابوالعزم الزفيتي، القاهرة، ١٤١٦هـ ، ٢٠١/١.

(٣)الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ٥٩/٢-٦٠

(٤)ينظر: الفراهيدي: العين، ١٧٦/٨.

٥()ينظر: الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن،٣٣٠.

(٦)ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن على: لسان العرب،٢٥٧/١١.

أكثر قدراً مما يُصيب الدابة، فاختار الكسرة لضعفها للدابة والضمة لقوتها للإنسان، وقيل للكسر ما كان عن تعب، والضم ما كان قهر، والذليل في الناس، والذلول في الدواب،... [١]، فالذُل في اللغة تأتي بمعنى محمود كالانقياد واللين والحنو والتواضع... وكذلك تأتي بمعنى ضد العز كالقهر والتعب والهوان والضعف.

التذليل اصطلاحاً : الذل لها معنين بكسر الذال بمعنى اللين والانقياد [٢]، وبضم الذال ما كان عن قهر، قال تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾[٣] وقُرئ بكسر الذال أي لِن وانقد لهما، وبضم الذال كن كالمقهور لهما [٤]، والذُّلُّ متى كان من جهة الإنسان لنفسه فهو محمود، قال تعالى : ﴿... أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله...﴾[٥]، أي ما يتضمنه معنى الحنو والطيب والتواضع اللين[٦]، فالتسخير والتذليل يقتربان من معنى واحد، وهو السوق إلى الغرض المختص، بالقهر أو باللين، فمعنى التذليل يظهر وفق ما يقتضيه السياق الذي يذكر فيه اللفظ، وهو من اكثر الألفاظ قُرباً من معنى التسخير.

٢ ـ التيسير

اليسر لغةً: من السهولة اذا كان لين الانقياد ويوصف بذلك الفرس والإنسان، تيسّر الشيء اذا سهل واستيسر له أي تهيّأ واليسر خلاف العسر [٧]، **اليسر اصطلاحاً**: الأصل في اليسر ضد العسر و سميت اليد اليسرى تفاؤلًا بتيسير العمل بها لكونها تعين اليد اليمنى فيكون أداء العمل ايسر[٨]، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ

١()ينظر: الكفوي،: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ٤٦٢/١-٤٦٣.

(٢)ينظر: الطوسي: التبيان في تفسير القرآن،٥٥٧/٣.

(٣)سورة الإسراء: الآية/٢٤.

(٤)ينظر: الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ٣٣٠.

(٥)سورة المائدة: الآية/٥٤.

(٦)ينظر: الأندلسي: البحر المحيط، ٢٩٨/٤.

(٧)ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ٢٩٥/٥.

(٨)ينظر: الطوسي : التبيان في تفسير القرآن،١٧/٤

يَتَذَكَّرُونَ﴾[1]، أي: سهّلنا وهوّنّا القرآن الكريم على لسانك ويسّرنا قراءته عليك، أو جعلناه قرآنا عربيّا يسهل عليك وعلى قومك تفهّمه ليتذكّروا ما فيه من الأحكام ويتفكّروا فيه[2]، فنلحظ إن التسخير والتيسير يقتربان من معنى الانقياد والتهيؤ والتسهيل .

٣ ـ الانقياد

الانقياد لغةً: (الطَّاعَةِ وَالْإِذْعَانِ وَانْقَادَ فُلَانٌ لِلْأَمْرِ وَأَعْطَى الْقِيَادَ إذَا أَذْعَنَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا)[3]، فهو بمعنى الطاعة والسوق.

الانقياد اصطلاحاً: هو الخضوع واستقاد الرجل ذلّ وخضع، وأنقاد لطريق أي سهل واستقام، وفرس قيود سهل القيادة، فالتسخير والانقياد بمعنى واحد من حيث السوق إلى الغرض المختص والانقياد فيكون ضمن قدرة الإنسان على قيادته مثل قيادة المركوب فالقيادة هنا بالمعنى الحقيقي، والتسخير يتضمن الكون كله[4].

٤ـ الطاعة

الطاعة لغةً: الطوع نقيض الكره، طاع له يطوع إذ انقاد وأنطاع له، والناقة طوعة القياد أي لينة لا تنازع قائدها[5]

الطاعة اصطلاحاً: لم يبتعد المعنى الاصطلاحي للطاعة عن معناها اللغوي كثيرًا، بل دار في فلكها، فحول معاني الانقياد والامتثال واتباع الأمر يدور المعنى، فهي (موافقة الأمر طوعاً)[6]، قال تعالى: ﴿...فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

١()سورة الدخان: الآية/ ٥٨ .

٢()ينظر: الجزائري، نعمة الله بن عبد الله: عقود المرجان في تفسير القرآن، ٤٦٤/٤ .

(٣)الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ٥١٨/٢

(٤)ينظر: بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي: التحرير والتنوير، ٨ب/١٦٨.

٥()ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ٢٤٠-٢٤١ .

٦()الجرجاني: التعريفات، ١ /١٤٠

قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[١]، الخضوع لطاعة الله ﷻ وفق القوانين أو السنن الطبيعيّة التي أودعها الله ﷻ فيها، لأنّ طاعتها إراديّة وطبيعيّة، وفق القوانين التّكوينيّة التي جعلها في الطبيعة[٢].

٥ ـ التدبير

التدبير لغةً: إنَّ التدبير هو تقويم الامر على ما يكون فيه صلاح عاقبته، وأصله من الدبر وأدبار الامور عواقبها وآخر كل شيء دبره وفلان يتدبر أمره أي ينظر في أعقابه ليصلحه على ما يصلحها[٣].

التدبير اصطلاحاً: التدبير هو التسخير الذي لأجله خُلِق المُسَخَّر، وهو عباره عن خاصية مودعة في بواطن المخلوقات بأمر من الله ﷻ، لينظمها بصوره عادله ولتقوم على أساسها كل العلاقات والروابط بين العله والمعلول، وسائر الموجودات فيما بينها، فكل كائنات المادية والأحياء والإنسان، كلٌ بما يناسب وجوده، فهو منتظم بقوانين وتواصل الكائنات حياتها بهذه القوانين[٤].

المطلب الثالث : قانون التسخير كمركب

لبيان قانون التسخير كمركب لابد من بيان مختصر عن القانون التكويني والقانون التشريعي، وبعد ذلك يبين البحث التعريف بقانون التسخير.

أولاً: القانون التكويني والقانون التشريعي

للقانون مفهومان أو معنيان: القانون التكويني، والقانون التشريعي، أمّا القانون التكويني والمعبّر عنه أيضا بقانون الطبيعة، فهو عبارة عن الخاصية والعلاقة الخاصة المودوعة في بواطن المسخرات في هذا الكون بأمر الله ﷻ لينظمها بصورة

١()سورة فصلت: الآية/١١ .

٢()ينظر: واعظ زاده الخراساني، محمد :المعجم في فقه لغة القرآن وسرّ بلاغته،٢١١/١٣ .

٣()ينظر: العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: معجم الفروق اللغوية، ١٢١/١ .

٤()ينظر: الخلخالي، محمد مهدي: الحاكمية في الإسلام، ٧٢٢ .

عادلة، ولتقوم على أساسها الروابط والعلاقات بين العلة والمعلول، وسائر الموجودات بعضها مع بعض من هذا الطريق، ويوجد هذا القانون في جميع الكائنات المادية، والأحياء والإنسان كل بما يناسب وجوده وبهذه القوانين تواصل هذه الكائنات حياتها(١).

لقد أشار الله ﷻ في آيات عديدة في القرآن الكريم إلى النظام السائد في عالم الطبيعة مثل قوله تعالى: ﴿...خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾(٢)، فالذي خلق هو الذى يقنن(٣)، ومثل قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(٤)، خلق اللهﷻ من الموجودات التي أودع فيها قانون الزوجية حتى الذرّة التي هي أصغر الأشياء، إنّ التطلع إلى اختلاف الموجودات في أشكالها وعناصرها وصغرها وكبرها مع ملاحظة وحدتها في هذا القانون الطبيعي الذي تظهر فيه الوحدة الكونية، لأكبر دليل على عظمة الإبداع في قدرة الخالق وحكمته المطلقة، إذ ترتبط الأشياء ببعضها البعض من خلال حاجة كل زوج إلى ما يتحد معه في حركة الوجود، وقد أرسى اللهﷻهذا القانون الطبيعي في موجودات هذا العالم، حتى تشق طريقها إلى كمالها اللائق بها بنظام خاص معيّن(٥).

إنّ الله ﷻ خالقاً لهذا العالم وحافظاً له، والقوانين التي خلقها وأقام على أساسها هذا الكون هي نفسها التي تهيئ أسباب حفظ هذا العالم وصيانته من الانهيار، والتبعثر والفناء، إن ربّ هذا العالم يعامل المسخرات وفق تلك القوانين وهو يعرفها؛ لأنه هو الذي أو جدها وخلقها، وهو الذي أرساها في هذا الكون، فكل ما في هذا العالم يرتبط ارتباطا كاملا بالقدرة الإلهية والعلم الإلهي، فعلى هذا تكون هذه الخلقة عملا إراديا ذا

١()ينظر: الخلخالي، محمد مهدي: الحاكمية في الإسلام، ط١، تر: جعفر هادي، مجمع الفكر الإسلامي، قم، ١٤٣٥هـ، ٧٢١ .

٢()سورة الفرقان: الآية / ٢ .

٣()ينظر: الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي، ٥٩٢٤/١٠ .

٤()سورة يس: الآية/٣٦ .

٥()ينظر: فضل الله، محمد حسين بن عبد الروف: من وحي القرآن، ١٤٨/٩ .

قواعد لا تقبل التغيير والتبدل إلّا في الحالات الاستثنائية التي تظهر فيها ظاهرة خاصة في صورة خارقة للعادة، وهي المعجزة، بإرادة خاصة، وهي أيضاً تخضع لقواعد خفية، واستثنائية[1].

تصل المسخّرات إلى حد كمالها اللائق بها بقانون معين ونظام خاص، ومن هنا أشار القرآن الكريم إلى ذلك، وقال تعالى:﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[2]، والمراد هو الهداية التكوينية بقانون الطبيعة المشار إليه، وهي قيادة الإلهية لمسخّرات الكون، وتتجلى هذه الهداية في نظام الخليقة والقوانين الطبيعية المتحكمة في الوجود، ومن الواضح أن هذه الهداية تشمل كل موجودات الكون[3].

أما القانون التشريعي، فهو عبارة عن الحكم الكلي الذي ينظم العلاقات بين الخلق والخالق، وكذا بين الأفراد أو المجتمعات البشرية ويقيمها على أساس عادل، ومجموعة القوانين هذه تنقسم ثلاثة أقسام: الحقوق الدولية، الحقوق السياسية، الحقوق المدنية، وذلك بتقرير أن أفراد البشر يتألفون في شكل شعوب وجماعات متعددة، وقد دوّنت لتنظيم العلاقات بين هذه الشعوب قوانين خاصة، وأصول هذه القوانين هي التي تشكل الحقوق الدولية التي تنظم العلاقات بين الشعوب والجماعات البشرية المختلفة.

انمازت تلك القوانين بأنّها تُبيّن ما يجب أنّ يكون لا ما هو كائن، فقانون الغليان وقانون الجاذبية من صنع الخالقﷻ ولا سلطان للموجودات على تلك القوانين، وهي كائنة منذ خلق السموات والأرض إلى يومنا هذا، بذلك يُلحظ فارقاً واضحاً بين القانون التشريعي وقانون التسخير التكويني والمقصود في ثنايا البحث هو قانون التسخير القانون الإلهي في الموجودات، فهو قانون تكويني، صادر من صانع قادر على تنظيم حياة الإنسان مع الموجودات في الكون، لتمكينه في عمارة الأرض وفق مبدأ الاستخلاف الذي أراده ﷻ، فتنعكس فيه صفات الخالق وأفعاله، فيظهر الكمال في

١()ينظر: الخلخالي، محمد مهدي: الحاكمية في الإسلام، ٧٢٢ .

٢()سورة طه: الآية /٥٠ .

٣()ينظر: مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٧٣/١ .

صنعه وتدبيره، وهذا القانون هو الذي نقصده في ثنايا البحث.

ثانياً : تعريف قانون التسخير

إنّ القانون إلالهي الذي ليس للإنسان مجالاً للعبث فيه، وإنما التسليم له فقط، وهو لا يحمل الخطأ فهو صواب محض، لأنه معبر عن إرادة الله ﷻ وقدرته وحكمته، وتتسم تلك القوانين بالثبات والاستمرارية والعموم فهي أزلية كما قال تعالى :﴿...لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله...﴾(١) بمعنى لا تغيير لأقواله ولا تبديل كلمة بأخرى ولا خلاف لمواعيده(٢)، وقال تعالى : ﴿سُنَّةَ الله الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلًا﴾(٣) أي سنته الكونية الثابتة الباقية التي لا تتبدل(٤).

إذا أذن الله ﷻ بشيء من الانكشاف للإنسان، فسيتمكن من خلال ذلك الانكشاف، معرفة تلك القوانين وإدراكها وتسخيرها لعمارة الأرض، قال تعالى : ﴿وَالله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٥) والقرآن يعبر بالفؤاد عن مدارك الإنسان الواعية والتي تشمل العقل، وتشمل كذلك قوى الإلهام الكامنة المجهولة التي منحها الله ﷻ للإنسان(٦).

وعليه يمكن القول أن قانون التسخير هو: النسق إلالهي المنتظم في تذليل الموجودات وتمكين الإنسان، لعمارة الأرض وفق مبدأ الاستخلاف لاستكمال الحجة

---

(١)سورة يونس:الآية\٦٤.

(٢)ينظر: الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، المصحح: العاملي، أحمد حبيب قصير، ط١، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت(د.ت)،٤٠٢/٥ ، الطبرسي، الفضل بن الحسن: تفسير جوامع الجامع، المصحح، الگرجي، أبو القاسم، نشر: مركز إدارة الحوزة العلمية في قم، ط١، قم، ١٤١٢ هـ،١١٩/٢.

(٣)سورة الفتح: الآية/٢٣.

(٤)ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ط١٧، دار الشروق، بيروت، ١٤١٢ هـ، ٣٣٢٧/٣.

(٥)سورة النحل: الآية/٧٨.

(٦)ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ٢١٨٦/٤.

على الخلق، فهنا انحصرت العلة الفاعلية في الله ﷻ وحده، فهو الخالق مدبر الأمر، وكل فعل صادر منه ﷻ هو صفة له، وتبينت العلة الغائية لقانون التسخير وهي عمارة الأرض التي أرادها الله ﷻ في استخلاف الأنسان للأرض بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾[١]، ومن هاهنا يُعلم أنّ الإنسان غاية جميع الموجودات، ويظهر سرّ الخلافة الإلهيّة له[٢].

١()سورة البقرة: الآية/ ٣٠ .

٢()ينظر: صدر المتألهين: تفسير القران الكريم، ٢/١١٣ .

المبحث الثاني : أساليب القرآن في بيان قانون التسخير

الأسلوب لغة هو سطر من النخيل، وطريق ممتد، والوجه، والمذهب، وطريقة المتكلم في كلامه، والأسلوب فن، أساليب القول أي أفانين منه[١]، اصطلاحاً: هو طريقة الكلام التي يسلكها المتكلم، في التأليف واختيار الألفاظ، أو هو الفن الذي انفرد به المتكلم[٢].

الأساليب عبارة عن (مجموعة من التراكيب النحوية التي لها نمط خاص بها ولا يشاركها فيه غيرها ويلجأ المتكلم إلى استعمال أي أسلوب منها للتوصل إلى معنى معين أو إلى دلالة خاصة كالتعجب والمدح والذم...)[٣]، وعليه فإنَّ المراد من أساليب قانون التسخير في القران الكريم، هي الطرائق والوجوه التي شملت النواميس الكونية للمسخَّرات في القران الكريم.

اهتم المنهج القرآني في عرض قانون التسخير وبيان المسخَّرات وقوانينها، اهتماماً عظيماً، وتعددت أساليبه في ذلك بين الأسلوب المباشر والصريح بذكر لفظ سخَّر تارةً، وبين الأسلوب غير المباشر تارةً أخرى، إذ لا يذكر لفظ سخَّر، وإنما يفهم من الآية دلالة وفحوى، الهدي والتدبير والتقدير...

هذه الألفاظ تدل على تمكين الإنسان من تلك المسخَّرات والافادة منها، ولما كانت معرفة الأساليب تستدعي العقل والذوق والدربة، وتراعي المعرفة بالمقام والسياق لا سيما في الخروج عن مقتضى التركيب الظاهري، أو العدول عن الدلالة المعتادة الذي يثير التساؤل، صار البحث فيه ضرورة للتوقف على الأسرار الفنية واللطائف البلاغيّة، وبناء على ما سبق فإن أساليب القران الكريم في بيان المسخَّرات

---

(١)ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ٤٧٣/١.

(٢)ينظر: الزرقاني، محمد عبدالعظيم: مناهل العرفان في علوم القران، ط٣، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٨هـ، ٢٧٧/٢.

(٣)ياقوت، محمود سليمان: النحو التعليمي والتطبيق في القران الكريم، ط٣، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ١٩٩٦م، ٩٦٧.

وقوانينها تنقسم على قسمين: الأسلوب المباشر والأسلوب غير المباشر .

المطلب الأول : الأسلوب المباشر

الأسلوب المباشر وهو بذكر اللفظ الصريح سواء كان اسم (سخريّا) أو فعل (سَخّر)، وبيان الأثر الذي يضفيه على اللفظ في السياق حال ذكرها فعلاً أو اسماً.

الجملة العربية مركبة -عادة- وفق قواعد وضعتها العرب وارتضتها ودرجت على استعمالها، فصارت مألوفة ومعتادة ولا يخرج العرب عنها إلا لغرض، فتتكون الجملة العربية من ثلاثة أركان، وقد بينها ابن مالك(٦٧٢هـ) في ألفيته بقوله:

(كلامنا لفظ مفيد كاستقم ... واسم وفعل ثم حرف الكلم)[١]

الجملة في القرآن الكريم المنزلة من عند الله ﷻ والتي أعجزت العرب فصاحتاً، وبياناً، ونظماً، وجاءت بلسان عربي مبين، تأتي أحياناً نقضاً للعادة التي ارتضاها العرب في كلامهم ولكن بقرينة دالة وسياق مطلوب، فيصبح للكلام دلالة أخرى لتحقيق وظيفة بلاغية ولطيفة إعجازية لا تفهم إلا من السياق والقرائن الدالة.

إنَّ التصريح بلفظ سَخَّر في القرآن الكريم، إذ وردة لفظة سخَّر - التي بمعنى التذليل - بواقع ٢٧ موضع موزع على ٢٣ آية في ١٥ سورة[٢]، وقد ورد بصيغ متعددة، فعل، واسم مفعول، واسم منسوب وسيتم بيان المواضع وفق الصيغ المذكورة:

أولا : صيغة الفعل – سخَّر- والآيات المتضمنة له

تميّز الفعل في اللغة العربية بقدرته في الإفصاح عن الزمن بكل أبعاده سواء كان ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، وذلك بوجود بعض القرائن والأدوات، فيعرِّف سيبويه(١٨٠هـ) الفعل فيقول: (وأما الفعل فأمثلة أُخذتْ من لفظ أحداث الأسماء،

(١)ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ط٢٠، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث ، القاهرة، ١٩٨٠م، ١٣/١ .

(٢)ينظر: عبدالباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القارن الكريم، مادة س خ ر ، ٣٤٧ .

وبُنيتْ لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينَقطع)[١].

الفعل عند سيبويه هو كلمة دالة على الحدث، وبصيغته الصرفية على زمان وقوعه، والفعل هو (ما دل على معنى في نفسه مع اقترانه بزمن فهو جزء منه، والفعل ثلاثة أقسام: الماضي والمضارع والأمر)[٢]، وما نروم بيانه هو الفعل الماضي وبعد ذلك نبين الآيات الكريمة التي ورد فيها الفعل سخَّر .

١ ـ حالات الفعل الماضي الفعل ـ سخَّر- إنموذجاً

أ / حالات الفعل الماضي

هناك تفصيل لحالات الزمن الماضي للفعل[٣] وهي:

ـ جعل الأصل في الفعل الماضي أن يتعين معناه في زمان انقضى وانتهى، سواء أكان انقضاؤه قريباً من وقت الكلام أو بعيداً، وهذا هو الماضي لفظا ومعنى.

ـ منه يكون ماضي اللفظ لا المعنى، يتعين بزمن الحال مثل ألفاظ العقود، بعت، اشتريت... ومنه يكون ماضي اللفظ دون المعنى يتعين في زمن المستقبل، مثل ساعدك الله، ورفعك الله...

ـ منه ما يحتمل أن يكون ماضٍ أو مستقبل ويتعين لأحدهما بقرينة وفق تفصيلات بيّنها في محلها.

بعد ذكر هذه الحالات الأربع للزمن الماضي في الفعل، انتهى بملاحظة قال فيها: (قد يراد من الزمن في الفعل: (كان) الدوام والاستمرار الذى يعم الأزمنة الثلاثة، بشرط وجود قرينة تدل على هذا الشمول نحو، قوله تعالى :﴿ ...وَكَانَ الله

(١)سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي: الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م، ١٢/١ .

(٢)ياقوت، محمود سليمان: النحو التعليمي والتطبيق في القران الكريم، ١٩-٢٠ .

٣()ينظر: حسن، عباس: النحو الوافي، ط١٥، دار المعارف، (د.ت)، ٥٣/١-٥٥ .

غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1])[2]، ولو لم يقيد هذه الملحوظة بالفعل الناقص (كان) وحده، لصار لزاماً جعلها حالة خامسة من الحالات الأربع للفعل الماضي التي بيّنها وفصّلها، ولَطابقت تلك الحالة الفعل سخَّر في دوام الزمن وعدم انقطاعه .

ب/ الفعل الماضي - سخّر-

ورد الفعل سخَّر في القران الكريم ٢٢ مرة، وفي كل مرة كان في حالة الماضي، والفعل الماضي في اللغة العربية: (ما دل على وقوع الحدث قبل زمن المتكلم فهو مبني دائما)[3].

أسلوب العدول عن المقتضى الظاهر للفعل سخّر الذي هو في حالة الماضي في القران الكريم فيه لطيفة، وللبحث في هذا الموضوع أهمية في بيان مخالفة استعمال الفعل الماضي في كلمة سخّر وبيان لطائف وأسرار هذا التعبير القرآني، من خلال تتبع استعمال الفعل الماضي - سخّر- ودلالته وفق المقام والسياق في إفادته بعدم الانقطاع .

في معظم الآيات التي ذُكر فيها الفعل سخّر، لا يقصد منه الماضي بدلالته الزمنية المعروفة في اللغة العربية بانقطاع الزمن، وانتهاء التسخير بانتهاء زمن الحدث، فلا يمكن حمل الفعل سخّر على أّنه حدث منقضٍ؛ فالقران الكريم يعبر بالفعل الماضي للدلالة على دوام التسخير، فهو ماضٍ غير منقطع زمنه؛ لأنّ المخبر الله ﷻ الذي لا ينقطع خبره ولا ينقضي، فالفعل سخَّر في الصيغة الصرفية يدل على المضي، أما وجوده في سياق يحوي على قرائن دالة على شمول الأزمنة، فيمتد الفعل سخّر من الماضي إلى المستقبل، فليس من الضروري أن يعبر الفعل الماضي عن حدث وقع في زمن الماضي، وليس الزمان فقط هو المراد من الفعل فيدل الفعل في بعض الأحيان على تمام الحدث بغض النظر عن زمان وقوع الحدث، فلا يحتاج إلى بيان البيان

(١)سورة النساء: الآية/ ٩٦ .

(٢)حسن، عباس: النحو الوافي١/٥٥

(٣)المصدر السابق:٤٨٠ .

الدلالي لزمن الحدث بقدر إثبات الحدث الموصوف، والفعل الماضي لا يدل بكل استعمالاته على إرادة المضي وإنّما لإثبات صفه أسندت إليه، نحو: عَوِرَ الرجل، عَرِجَ خالد، فإن المراد من ذلك إثبات الصفة التي أسندت إليه من الأسماء، وليس فيه ما يدل على زمن معين[١]، كما سيتبين في الآيات التالية :

٢ ـ الآيات الكريمة التي ورد فيها الفعل سخّر في زمن الماضي

الفعل سخّر جاء في القران الكريم في حالة الماضي دائماً، والمراد من الماضي في حالتين هما حالة الماضي في اللفظ والمعنى، وكذلك حالة الماضي في اللفظ دون المعنى، وفق السياق والقرائن الدالة على المضي أو التي تدل على شمول الزمن، وفي هذا الإطار نذكر الآيات المتضمنة للفعل سخَّر في كِلا الحالتين، وكما يأتي:

أ ـ آيات الفعل سخّر ماضي لفظاً دون المعنى

أنَّ الآيات التي ورد فيها الفعل سخَّر بحالة الماضي في اللفظ دون المعنى، تعتمد على فهم النص والقرائن الدالة على الشمول والصارفة عن الانقطاع، وكما يأتي:

- قال تعالى: ﴿الله الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَ**سَخَّرَ** الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[٢]
- قال تعالى: ﴿الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَ**سَخَّرَ** لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ**سَخَّرَ** لَكُمُ

١()ينظر: المنصوري، علي جابر: الدلالة الزمنية في الجملة العربية، ط١، الدار العلمية الدولية ودار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٢م، ٣٧.

(٢)سورة الرعد: الآية/ ٢ .

الأَنْهَارَ۞ وَ**سَخَّر** لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَ**سَخَّرَ** لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[1]، إنّ تدبير الله ﷻ لما سخره للعباد ظاهر لكل عاقل متأمل لا يمكنه الانصراف عنه، إلا على وجه المعاندة و المكابرة[2].

- قال تعالى: ﴿وَ**سَخَّرَ** لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3]
- قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي **سَخَّرَ** الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4]، هنا تسخير البحر وبيان بعض منافعه، وهي الغذاء والزينة والتنقل[5]
- قال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ الله لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ **سَخَّرْنَاهَا** لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ۞ لَن يَنَالَ الله لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ **سَخَّرَهَا** لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا الله عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾[6]، سخر الله ﷻ البدن لكم ليكون تسخيرها وصلة إلى هدايتكم، إلى طاعته والتقرب إليه بتضحيتها فتذكروه بالكبرياء والعظمة على هذه الهداية[7].
- قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله **سَخَّرَ** لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ الله بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[8]
- قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ**سَخَّرَ** الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

١()سورة إبراهيم: الآية/ ٣٢-٣٣ .

٢()ينظر: الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، ٢٩٧/٦ .

٣()سورة النحل: الآية/ ١٢ .

(٤)سورة النحل: الآية/ ١٤ .

٥()ينظر: مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ٨/ ١٤٩-١٥٢ .

(٦)سورة الحج: الآية/ ٣٦-٣٧ .

٧()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ٣٧٦/١٤ .

(٨)سورة الحج: الآية/ ٦٥ .

لَيَقُولُنَّ الله فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(١)

- قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ الله **سَخَّرَ** لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾(٢)، أي ذلّلها لكم تتصرفون فيها بحسب ما تريدون من أنواع الحالات من الثمار والبهائم، ووسع عليكم نعمه، والسابغ الواسع الذي يفضل عن مقدار القوت، وقوله ظاهِرَةً وَ باطِنَةً أي من نعمه ما هو ظاهر لكم لا يمكنكم جحده، ومنها ما هو باطن مستور لا يعرفها إلا من أمعن النظر فيها، وسخّر لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجم وسحاب، وما في الأرض من دابة وشجر وثمار، وغير ذلك ممّا تنتفعون به في أقواتكم ومصالحكم(٣).
- قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ**سَخَّرَ** الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٤)
- قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ**سَخَّرَ** الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾(٥)
- قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ**سَخَّرَ** الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾(٦)، سخّر الله ﷻ ما في السماوات وما في الأرض وجعل لهما قانون يحدّد حركتهما، ودوائرهما التي يسبحان فيها في نطاق الحدود الزمنية التي تنتهي إليها الحركة، أو ينتهي إليها الوجود، ليكون وجودهما المتحرك مؤثرا في حركة النظام الكوني في الأرض، من جهة استمرار الحياة عليها، ومن جهة

---

(١)سورة العنكبوت: الآية/ ٦١ .

(٢)سورة لقمان: الآية/ ٢٠ .

٣()ينظر: الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، ٢٨١/٨ .

(٤)سورة لقمان: الآية/ ٢٩ .

(٥)سورة فاطر: الآية/ ١٣ .

٦()سورة الزمر: الآية/ ٥ .

بعض المؤثرات الأخرى، التي لولاها لما كان هناك نظام متوازن لتسخير للموجودات(١).

- قال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي **سَخَّرَ** لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾(٢)، سخرها لكم بما خلقها، ورزقكم من عقول بما تصنعون مما تركبون(٣).
- قال تعالى: ﴿الله الَّذِي **سخَّرَ** لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ۞ وَ**سَخَّرَ** لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤)

في هذه الآيات ذكر الله ﷻ المسخَّرات جميعاً- في السماوات والأرض وما بينهما- فجميعها منذ أن خلقها الله ﷻ مذللة منقادة لخالقها قبل خلق الإنسان، سخّرها ﷻ وفق قانون الهي ثابت مستقر ومستمر إلى يوم الدين، لا يختل ولا يضطرب فكل ما في الكون مجبول على وظيفته التي خلقهُ الله ﷻ لها.

كل ما في السماء مسخَّر للإنسان من شمس وقمر ونجوم ورياح وسحاب، فلا يمكن للإنسان من قيادة المسخَّرات السماوية وإنما فقط الاستفادة منها والأخذ من المواهب والعطايا الإلهية، والعمل على كشف القوانين الحاكمة لتلك المسخَّرات، أما ما في الأرض من بحار وأنهار والفُلك وجبال ونبات وأنعام فمنها ما يمكن أن يقوده ويذللـه ويسيّره، كما في تسخير الأنعام والسفن وغيرها من النعم التي تكون تحت سلطة الإنسان بتسخير من الله ﷻ فلولا هذا التمكين لما استطاع الإنسان عمارة الأرض.

هذه النعم التي مَنَّ الله ﷻ بها على الإنسان بتسخيرها له دون جهد أو تعب

١()ينظر: فضل الله: من وحي القرآن، ٣٠٤/١٩ .

(٢)سورة الزخرف: الآية/ ١٣ .

٣()ينظر: الصادقي، محمد: الفرقان في تفسير القرآن، ٢٨٤/٢٦ .

(٤)سورة الجاثية: الآية/ ١٢-١٣ .

مذللة سهلة منقادة، كانت ولازالت مسخَّرة ولم ينقطع ولم ينقضِ هذا التسخير فهو مستمر إلى أجل مسمى، تجري تلك المسخرات بأمر الله ﷻ منذ خلقها وإلى يوم البعث والحساب، وهذا السياق ناسب لفظ سخَّر الذي هو في حالة الماضي إذ إنّ التسخير كائن قبل خلق الإنسان، وهذا الماضي لم ينقطع فهو شامل لكل الأزمنة إلى أن يشاء الله ﷻ ويطوي السماء كطي السجل للكتب، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ولسوف تتسجّر البحار وتتفجّر...

يُلحظ مما سبق أنَّ الفعل سخَّر جاء في حالة الماضي غير المنقطع، فللفعل زمن دائم شامل كل الأزمنة فالتسخير ماضٍ منذ القدم، وهو لازال يسري في وقتنا الحاضر ومستمر إلى يوم البعث والحساب، فناسب اللفظ هذا السياق وتعداه بالشمول لكل الأزمنة فهو يفيد كمال المنه من قبل الله ﷻ.

ب ـ آيات الفعل سخّر ماضي في اللفظ والمعنى

الآيات التي ورد فيها الفعل سخَّر في حالة الماضي وتضمنت معنى المضي والانقطاع، جاءت بهذا المعنى بالنظر إلى السياق الكائن فيها اللفظ والقرائن الدالة عليه، وكما يأتي:

- قال تعالى:﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَ**سَخَّرْنَا** مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾(١)
- قال تعالى : ﴿ **فَسَخَّرْنَا** لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ﴾(٢)
- قال تعالى :﴿ إِنَّا **سَخَّرْنَا** الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾(٣)

الجبال مُسخّرة لداوود تسبح معه، وسخّر لسليمان الريح عاصفة أي شديدة الهبوب تجري الريح بأمره(٤)، في هذه الآيات بيان ما لداوودعليه السلام من فضل عند الله

(١)سورة الأنبياء: الآية/ ٧٩ .

٢()سورة ص: الآية/ ٣٦ .

(٣)سورة ص: الآية/ ١٨ .

٤()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ١٤/ ٣١٣ .

ﷻ اذا ما ذكر الله ﷻ وسبّحه، ذكرت الجبال معه وسبّحت لله ﷻ ففهم داوود ﵇ تسبيحها[1]، يرتبط هذا التسخير مع التسبيح الذي اختص به داود ﵇ وفي زمنه بقرينة (معه) - الاسم المنصوب على الظرفية المكانية المتعلق بفعل سخرنا - الذي يدل على الاجتماع والمصاحبة[2]، والوقت الذي هو في العشي من وقت العصر إلى الليل والإشراق وذلك بالغداة وقت الضحى[3]، فهذا لطف الله ﷻ وخصوصية لأنبيائه عليهم السلام أجمعين فكما اختص الله ﷻ نبيه داود﵇ وصيّر له الجبال والطير تسبِّح معه وألان له الحديد، كذلك سخَّر لسليمان الجن والرياح تجري بأمره وخصّهُ بذلك[4].

يُلحظ من ذلك أنَّ هذه الخصوصية تنتهي بانقضاء المختص له، فبعد موت النبي داود والنبي سليمان عليهما السلام ينقضي التسخير ويكون الماضي لفظاً ومعناً مناسباً للفعل سخَّر في تلك الآيات.

- قال تعالى : ﴿**سَخَّرَهَا** عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[5] هنا سخّرها بمعنى سلَّطها وأرسلها عليهم سبع ليالي وثمانية أيام متتابعة لا ينقطع العذاب أوله عن آخره[6] وإن أداة الاستعلاء - عليهم - دلت على انه تسخير عذاب لا تأديب ولا رحمة[7].

تلك الأيام هي التي سمّاها العرب بأيام العجوز؛ لأنها في عجز الشتاء أو لأن

١()ينظر: مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان، ط١ ، دار احياء التراث العربي، تح: عبدالله محمود شحاته، بيروت، ١٤٢٣هـ ، ٦٣٩/٣.

٢()ينظر: الشيخلي، بهجت عبدالواحد: اعراب القران الكريم(للشيخلي)، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٧هـ، ٤٧٦/٨.

(٣)ينظر: الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، ٨٧/٢٣.

٤()ينظر: الماتريدي، ابوالمنصور: تأويلات أهل السنة (تفسير الماتريدي)، ط١ ، دار الكتب العلمية، تح: مجدي بأسلوم، بيروت، ١٤٢٧هـ، ٦١١/٨.

(٥)سورة الحاقة: الآية/ ٧ .

٦()ينظر: الطبراني: التفسير الكبير(تفسير القران العظيم)، ٣٣٥/٦ .

٧()ينظر: البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات و السور، ١٢٢/٨ .

عجوزاً دخلت سرباً وتبعتها الريح وقتلتها في اليوم الثامن من نزول العذاب وبهذا اليوم انتهى العذاب(١)، فجاء الفعل سخَّر ماضي اللفظ والمعنى بتناسب السياق كون العذاب وقع عليهم وانتهى في اليوم الثامن .

ثانياً : صيغة اسم المفعول ـ مُسخّر ـ والآيات المتضمنة له

إن دلالة الأسماء ترتبط بغرض من أغراض التعبير، فاسم المفعول بما في بعضه من دلالة الحدث والثبوت يتناسب مع قانون التسخير الدائم والثابت في المسخَّرات، وعند التدقيق في السياق القرآني في استخدام اسم المفعول يدل فيه على إيحاء في المعنى وغنى في الدلالة وجمال في السبك، كما أنّه يكسب السياق طاقة تعبيرية كالدلالة على الثبوت والتعميم وإكسابه طاقة فنية جمالية فكان النماء والثراء والإيحاء واضحاً، ولبيان ذلك نبين مفهوم اسم المفعول عند علماء العربية ومن ثم نشرع في ذكر الآيات المتضمنة لاسم المفعول(مسخَّر) في القرآن الكريم :

١ ـ اسم المفعول

عند مطالعة اسم المفعول عند أهل النحو والصرف، لم يزيدوا على قولهم:

وكل ما قرر لأسم فاعل ... يعطى اسم مفعول بلا تفاضل(٢)

ذكره الزمخشري وقال: (أمره على نحو من أمر اسم الفاعل في إعمال مثناه ومجموعه واشتراط الزمانين و الاعتماد)(٣) ،(ولم يذكروا إلا مبالغة اسم الفاعل علما

١()ينظر: الثعلبي، أحمد بن محمد: الكشف والبيان(تفسير الثعلبي)، ط١، دار احياء التراث العربي، تح: ابي محمد بن عاشور، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٧/١٠.

٢()ابن مالك، محمد بن عبدالله: ألفية ابن مالك، (د.ط)، دار التعاون،(د.ت)، ٣٩/١، ينظر: ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ١٢١/٣.

٣()الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد: المفصل في صنعة الاعراب، ط١، تح: علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٣٩م، ٢٩١/١ .

بان هناك صيغاً للمبالغة اسم المفعول لم يذكروها، ولم يعقدوا لها بابا)[١]، فهو يقترن بالفعل في دلالته على الحدوث، وبالصفة المشبهة في الدلالة على الثبوت، كما سيتبين لاحقاً من خلال عرض تعريفه عند القدامى والمحدثين، وبيان صيغته وعمله ودلالته.

أ ـ تعريفه

تفاوت العلماء في تعريف اسم المفعول وتحديد دلالته، قيل[٢] أنه(الجاري على يفعل من فعله، نحو مضروب لأن أصله مفعل)[٣]، وعرفه ابن هشام بأنه:(ما دل على حدث ومفعوله، كـ مضروب و مكرم)[٤].

أما العلماء المحدثون ممن ساروا على طريق القدامى، فلا يخرجون عن التعريفات التي ذكرها القدامى، فقالوا انه(هو ما اشتق من مصدر المبني للمجهول، لمن وقع عليه الفعل)[٥]، وانه (ما دل على الحدث والحدوث وذات المفعول كمقتول ومأسور)[٦] (اسم مشتق يدل على معنى مجرد، غير دائم وعلى الذي وقع عليه هذا المعنى، فلا بد أن يدل على الأمرين معًا)[٧]، ويظهر مما سبق، أنَّ اسم المفعول مشتق

١()السامرائي،فاضل صالح: معاني الأبنية في اللغة العربية، ط٢،دار عمار، الاردن، ٢٠٠٧م،٦.

٢()ينظر: نور الدين الأُشْمُوني، علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ط١، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ٢٢٩/٢، الأزهري، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ: شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، ٢٢/٢.

٣()الزمخشري: المفصل في صنعة الاعراب، ٢٩١/١ .

٤() جمال الدين ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، (د.ط)، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت)،١٩٦/٣.

٥()الحملاوي، احمد محمد: شذا العرف في فن الصرف، مراجعة وشرح: حجر عاصي، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ص٤٧.

٦()السامرائي: معاني الابنية في اللغة العربية، ٥٢.

٧()حسن، عباس: النحو الوافي، ٢٧١/٣.

من الفعل المضارع المبني للمجهول، وفعله متصرف وهو دال على الحدث – الفعل – وعلى ذات المفعول، أي من وقع عليه الفعل، مع توفر ثلاثة شروط فيه: دلالته على الحدث، ومن وقع عليه الحدث، والاشتقاق.

ب ـ صيغته

يصاغ اسم المفعول من الفعل الثلاثي، المعتل والصحيح قياسياً على وزن مفعول، ومن غير الثلاثي الرباعي، والخماسي، والسداسي، على وزن مضارعه مع إبدال حرف مضارعه ميماً مضمومة وفتح ما قبل الآخر، نحو سَبَّحَ – يُسبِّح – مُسبَّحٌ[١]، والأصل يصاغ اسم المفعول من الفعل المتعدي، ووجب أن يصحبه شبه جملة جار ومجرور أو ظرفية أو مصدر إذا كان مُصاغ من الفعل اللازم[٢].

ج ـ عمله

يعمل اسم المفعول عمل فعله المبني للمجهول برفع نائب فاعل - اذا كان متعدياً- واذا كان لازماً يتعلق بحرف جر أو شبه جملة ظرفية، وفي عمله له حالتين:

اذا جُرِد من (ال) وإذا اقترن بها، فإذا كان مجرد من (ال) عمل بشروط وهي: أن يكون بمعنى الحال والاستقبال، وأن يعتمد على الاستفهام أو النفي أو نداء أو مبتدأ أو موصوف، أما إذا كان مقروناً بـ(ال) فإنه يعمل مطلقاً سواء أفاد الحال أم الاستقبال وسواء كان معتمداً على ما تقدم أو لم يعتمد[٣].

د ـ دلالته

صيغة اسم المفعول تدل على الزمن والحدث كما إنها تعبر عن ذات المفعول، وهي مساوية لصيغة اسم الفاعل في دلالتها الزمنية ويتضح ذلك من القرائن السياقية،

١()ينظر:عبدالغني، أيمن أمين: الصرف الكافي،ط٥، دار التوفيقية للتراث،مصر،٢٠١٠م، ٢٠٢.

٢()ينظر: الحملاوي: شذا العرف في فن الصرف، ٤٧ .

٣()ينظر: ابن هشام: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ١٩٦/٣-١٩٧

فهي تدل على الدوام اذا اقترنت بـ(ال)، وإذا نوّنت دلت على الحال والاستقبال، أما اذا أضيفت فتدل على الماضي(١).

يُلحظ مما سبق إن من دلالات اسم المفعول هو التعبير عن استمرار الحدث عن وقت الماضي، وإن اسم المفعول - المُسخَّر - اخذ ديمومته من الألف واللام المقترنة به والتي تدل على الدوام والاستمرار، أي يستوعب الأبعاد الزمنية الثلاثة، بواسطة قرينة لفظية أو معنوية، فإذا استعمل اسم المفعول وحده غير متصل بشيء بعده لا يدل على الزمن مطلقاً، بل سيعامل معاملة الأسماء الجامدة التي لا تقترن بزمن(٢) ﴿...وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ... ﴾(٣) هنا الجملة اسمية واسم المفعول وقع خبر وفيه تنوين، والاسم يدل على الثبوت والدوام، كما اسم المفعول عند التنوين يفيد الحال والاستقبال، وذُكِر اسم المفعول في القرآن في أربعة مواضع، وكُل تلك المواضع يكون فيها اسم المفعول عامل ويفيد الثبوت والحال والاستقبال.

٢ ـ الآيات الكريمة التي ورد فيها اسم المفعول مسخَّر

ذُكِر اسم المفعول في القرآن الكريم في أربعة مواضع، كُلها منونةٌ إلا موضع واحد يكون فيه اسم المفعول مسخّر مقترن بـ(ال)، وبذلك أفاد الثبوت والاستمرارية لاقترانه بال والتنوين.

- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ **الْمُسَخَّرِ** بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٤)
- قال تعالى: ﴿...وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ **مُسَخَّرَاتٍ** بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ

١()ينظر: المنصوري: الدلالة الزمنية في الجملة العربية، ٦٤- ٦٦ .

٢()ينظر: المصدر السابق، ٦٦ .

٣()سورة النحل: الآية / ١٢ .

٤()سورة البقرة: الآية / ١٦٤ .

تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[١]

- قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ **مُسَخَّرَاتٌ** بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢]
- قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلى الطَّيْرِ **مُسَخَّرَاتٍ** فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الله إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٣]

ثالثاً : صيغة الاسم المنسوب - سخريّا - والآيات المتضمنة له

اهتم العلماء المتقدمون بدراسة النسب، فخصّوه بمباحث مستفيضة وبيّنوا فيه دلالات معنوية وأحكام له بما يطرأ على الاسم عند النسب إليه من تغيرات حكميّة، ولفظيّة ومعنويّة، ولحاجتنا لتوليد المعاني في ظل التطور الحاصل في العلوم والفنون... فقد اكتسب أهميّة كبيرة لدى الباحثين تجاري التقدم والاندماج الحاصل في المجتمعات[٤].

ورد لاسم المنسوب تسميتين احدهما وهو المتداول في كتب النحو والصرف المعروف بـ (النسب أوالنسبة)، وثانيهما هو (الإضافة)، فمنهم من سماه باب النسب[٥]، ومنهم جمع بين التسميتين – الإضافة والنسبة- إذ قالوا: (هذا باب الإضافة وهو باب النسبة)[٦].

قيل أنّ الإضافة اعم من النسب (لان الإضافة اعم من النسب في العرف إنما هو

١()سورة الاعراف: الآية / ٥٤ .

٢()سورة النحل: الآية / ١٢

٣()سورة النحل: الآية / ٧٩ .

٤()نظر: نهر، هادي: الصرف الوافي(دراسة وصفية تطبيقية)، ط١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١٠م، ٢٥٦.

٥()ينظر: الانباري، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري: أسرار العربية، ط١، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٩٩٩م، ٢٥٨/١ .

٦()سيبويه: الكتاب، ٣٣٥/٣ ، المبرد: المقتضب، ١٣٣/٣.

إضافة الإنسان إلى آبائه وأجداده ... وفي هذا الباب الإضافة قد تكون غير الآباء والأجداد فلذلك كانت تسمية إضافة أجود من تسمية نسباً)[1]، ولبيان ذلك لابد من التطرق إلى مفهوم الاسم المنسوب:

١ ـ الاسم المنسوب

أـ النسب لغة

بعد الرجوع إلى مادة (ن- س- ب) في المعاجم وجد البحث أن ابن منظور(٧١١هـ) تناوله وقال (النَّسَبُ: نَسَبُ القَراباتِ، وَهُوَ واحدُ الأَنْسابِ... النَّسَبُ يَكُونُ بالآباءِ، ويكونُ إلى الْبِلَادِ، وَيَكُونُ فِي الصِّناعة)[2].

ورد أيضاً في تاج العروس(النِّسْبَةُ مصدرُ الانتساب... وَهُوَ أَن تذكُرَ الرَّجُلَ فتقولَ: هُو فُلانُ بْنُ فُلانٍ، أَو تَنْسِبَه إلى قَبيلَة أَو بلَد أَو صنَاعَة، ومثْلُهُ فِي التّهذيب. وَفِي الأَساس: من المَجاز: بَيْنَهُمَا نِسْبَةٌ قَرِيبةٌ)[3]، ومن خلال ذلك يمكن القول أن المقصود من الاسم المنسوب في اللغة هي القرابة وتكون من البلاد والصناعة وليست حصرا بالآباء والأجداد.

ب ـ النسب اصطلاحاً:

عرفها سيبويه(١٨٠هـ) في باب الإضافة وهو باب النسبة فقال(اعلم أنَّك إذا أضفت رجلاً إلى رجل فجعلته من آل ذلك الرجل، ألحقت ياءي الإضافة)[4]، وعرف ابن يعيش(٦٤٣هـ) النسب قائلاً:(اعلم أن النسبة التي يقصدها النحويون ويسميها سيبويه الإضافة إلى قبيلة، أو بلدة، أو صنعة، أو غير ذلك، يقال نسبته لبني فلان، إذا عزوته

١()ابن عصفور الاشبيلي، ابي الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي: شرح جُمل الزجاجي، ط١، دار العلمية، بيروت- لبنان، ١٩٩٨م، ٤٥٣/٢ .

٢()ابن منظور: لسان العرب، ٧٥٥/١ .

٣() الفارابي: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ٢٦١/٤ .

٤()سيبويه: الكتاب، ٣٣٥/٣.

اليهم فهي إضافة من جهة المعنى وان كانت مخالفة لها من جهة اللفظ؛ وذلك انك في الإضافة تذكر الاسمين وتضيف أحدهما للآخر... وفي النسب إنما تذكر المنسوب إليه وحده، ثم تزيد عليه زيادة تدل على النسب وتكتفي بتقدم الموصوف على ذكر المنسوب، وذلك أن يُزاد في آخر المنسوب إليه ياء مشددة ويكسر ما قبلها)[1].

يتضح للبحث أن النسبة تكون بإلحاق ياء مشددة في آخر الاسم المنسوب إليه مع كسر الحرف الذي قبل الياء، فيكون بمعنى الإضافة، وهذه الإضافة تكون إلى بلد أو قوم أو المكان أو الصناعة أو غير ذلك، فلا يخرج بذلك عن المعنى اللغوي.

ج ـ دلالته

تتعدد دلالات النسبة؛ لأنّها تجعل الاسم المنسوب دالاً على ذات غير معينة بصفة معينة، وهي الانتساب إلى المجرد من النسبة، فمن حيث الوصف يكون كصيغة المفعول، والفاعل أو الصفة المشبهة، وتفيد اختصاص الصفة المعينة للموصوف فيدل به، نحو: الجنس: عربِيّ، حيوانِيّ، الموطن: عراقِيّ، دمشقِيّ، الحرفة: زراعِيّ، صناعِيّ، أو على صفة من الصفات نحو: معدن ذهبِيّ، فضِيّ، سمك بحرِيّ، نهرِيّ، وغير ذلك من الدلالات التي تجعل المنسوب مضافاً للمنسوب إليه ومن آله أو من تلك القرية أو النوع[2].

يُلحظ مما سبق أنّ النسبة تلحق المنسوب صفة كان مجرد منها، وخصص المنسوب بتلك الصفة فجعله من جهة المعنى من آل المنسوب إليه، والقاعدة في ذلك هي: الاسم المنسوب إليه + يّ + كسر ما قبل هذه الياء = الاسم المنسوب، فالقاعدة الأصلية في النسب هي ان تلحق آخر الاسم المنسوب إليه ياء النسب المشددة وكسر ما قبل الياء[3] .

١()ابن يعيش: شرح المفصل، (د.ط)، ادارة الطباعة المنيرية، مصر، (د.ت)، ١٤١/٥

٢()ينظر: نهر، هادي: الصرف الوافي(دراسة وصفية تطبيقية)، ٢٥٤ .

٣()ينظر: المصدر السابق، ٢٥٥ .

٢ ـ الآيات التي ورد فيها الاسم المنسوب ــ سخْرِيّا ـ

وردت لفظة ـ **سِخرِيّا** ـ في القرآن الكريم **مرتين بمعنى الهزء،** قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ **سِخْرِيًّا** حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ **سِخْرِيًّا** أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾[٢] **ومرة بمعنى التسخير والتذليل** ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا **سُخْرِيًّا** وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٣]، فمنهم من حدد كسر السين هو لمعنى الاستهزاء، ومعنى التذليل والتسخير اذا كانت السين مضمومة، وهناك من لم يحدد معنى خاص لسخريّا بل هي بمعنى واحد[٤] (قرأ عاصم، و ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو سِخْرِيًّا بكسر السين، وكذلك في سورة ص، وكانوا يقرءون في الزخرف بالرفع، قالوا: لأن في هذين الموضعين من الاستهزاء، وهناك في الزخرف من السخرة و العبودية، فما كان من الاستهزاء فهو بالكسر، وما كان من التسخير فهو بالضم، وقرأ حمزة والكسائي ونافع سخريا كل ذلك بالضم، وقال أبو عبيد: هكذا نقرأ، لأنهن يرجعن إلى معنى واحد، وهما لغتان سِخريّ وسُخريّ، وذكر عن الخليل وعن سيبويه: أن كلاهما واحد)[٥].

١()سورة المؤمنون: الآية /١١٠ .

٢()سورة ص: الآية /٦٣ .

٣()سورة الزخرف: الآية /٣٢

٤()ينظر: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: تفسير غريب القرآن (لابن قتيبة)، ط١، دار و مكتبة الهلال، بيروت، ١٤١١ هـ، ٢٥٨، وأبو عبيدة، معمر بن المثنى: مجاز القرآن، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨١ هـ،٦٢/٢، و الطبراني: التفسير الكبير تفسير القرآن العظيم، ٣٥٨/٥.

٥()السمرقندي، نصر بن محمد: تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦ هـ، ٤٩١/٢، ينظر: النحاس، أحمد بن محمد: إعراب القرآن للنحاس،ط١، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، ١٤٢١ هـ، ٨٦/٣

يُلحظ أنّ سُخريّا بمعنى مُسخّراً في العمل له فالياء للنسب، إذ نسبته للسخرة[1]، جاءت على هيئة اسم منسوب فيأخذ دلالة الاسم والصفة في دوام حال التسخير بين البشر، فمنذ القدم وإلى الآن نجد أنّ الإنسان بحاجة لأخيه الإنسان، وهذا الاختلاف بين البشر هو قانون ثابت وضعه الله ﷻ للناس وجعلهم محتاجين بعضهم لبعض، واستعمرهم في الأرض شعوباً وقبائل ليتعارفوا ويستفيد احدهم بما عند الآخر من منافع مادية أو معنويه.

إنّ قانون التسخير جاء مشتق من مادة – سخّر – في القرآن الكريم، على هيأة فعل ماضي واسم مفعول واسم منسوب، وهذه الحالات تأتي مناسبة للسياق القرآني، وجُلها تفيد دوام التسخير وعدم الانقطاع .

هذا القانون الإلهي منظم وثابت باستمرارية الحياة، فكل ما في السماء والأرض وما بينهما مُسخّر للإنسان، وهذا التسخير موجود منذ أن خلق الله ﷻ الكون فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[2].

فكل مخلوق له وظيفة يؤديها وقانون ثابت يسير عليه لا يخل ولا يضطرب فالكون كله مُسخّر بقانون ونظام مستمر ومستقر، ولا يمكننا التدخل فيه سوى الإفادة من تلك المسخّرات والتكيّف وفق ما انكشف لنا من علم بالنواميس التي تحكم تلك المسخّرات، وهذا هو الأسلوب الصريح والمباشر لقانون التسخير في القرآن الكريم،

١()ينظر: پاني پتي، ثناء الله: التفسير المظهري، ط١، مكتبة رشدية ، كويت، ١٤١٢ هـ، ٣٤٦/٨ ،الجمل، سليمان بن عمر: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، ط١، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، ١٤٢٧ هـ، ٩٠/٧ ، الصاوي، أحمد بن محمد: حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ط٤، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون ، بيروت، ١٤٢٧ هـ، ٤٤٧/٣ .

٢()سورة فصلت: الآية /١١ .

المطلب الثاني : الأسلوب غير المباشر

الأسلوب غير المباشر لقانون التسخير يتجلى في الرحمة الإلهية وفي القيمومة الإلهية، فمن رحمة الله ﷻ ولطفه يسخّر الكون للإنسان، وقيمومته في وضع القوانين لتلك المسخرات بهدف منفعة الإنسان.

أولاً: الرحمة الرحمانية والرحمة الرحيمية

إنّ لله ﷻ نحوين من الرحمة[1]، وفي هذه الرحمة بنحويها يتجلى قانون التسخير بمضامينها ويدخل في معانيها، قال تعالى: ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]، في هذه الآية يُجيب الله ﷻ نبيه موسى عليه السلام في سؤاله أن يكتب له حسنه (رحمة خاصة) في الدنيا والآخرة فبيّن له سعت الرحمة الإلهية الشاملة المطلقة (الرحمانية) ﴿...وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾، فهي محيطة بكل شيء، هداية عامّه وعنايته الشاملة لجميع الخلائق، الرحمة التي هي من نصيب المتقين وحدهم ﴿... فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، هي الرحمة (الرحيمية) والهداية الخاصّة وعنايته تعالى بشأن أهل التقوى واليقين[3].

ولذلك يبدأ البحث ببيان الرحمة العامة(الرحمانية) والرحمة الخاصة (الرحيمية) على النحو الآتي:

١ـ الرحمة الرحمانية

الرحمانية صفة تعم آثارها جميع الكون وتشمل كلّ الموجودات، وتنقذ المستغيثين في اللحظات الحساسة، فالقوة التي تستطيع أن تجذب القلوب نحو خالقها

١()ينظر: الآملي: تسنيم في تفسير القرآن، ٣٤٤/١ .

٢()سورة الأعراف: الآية/١٥٦ .

٣()ينظر: معرفة، محمد هادي: التفسير الاثري الجامع، ٤٩٧/٤ .

ﷻ وتربطها به هي صفة الرحمانية، وهي للجميع إذ لها طابعها العام مثل قانون الجاذبية، فينبغي الاستفادة من صفة الرحمة هذه لتوثيق العرى بين المخلوقين والخالق(١)، من خلال تذكير الناس برحمة الله ﷻ محيطة بالجميع سواء كانوا عباد محسنين أم عصاة معاندين.

الرحمانية هي الرحمة المطلقة الشاملة التي لا يقابلها شيء، وهي وسعت كل شيء في الدنيا والآخرة، المؤمن والكافر، وهي رحمة غير مقيدة أو محدودة، كالشمس بشروقها تشع على الجميع، وكالمطر بهطوله يسقي جميع بقاع الأرض(٢)، قال تعالى:﴿... رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا...﴾(٣)، ﴿... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾(٤)، وهو إشارة إلى عموم الرحمة للخلائق برّها وفاجرها(٥).

رحمة الله ﷻ شملت الإنسانية كلها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(٦)، فضلهم ابتداء بأن خلق لهم أنواع الإنعام وفنون الإكرام، مالم يجعله لكثير من خلقه ﷻ فهو تفضل منه ولطف عظيم(٧)، إذ عمّ التكريم المؤمن والكافر من بني آدم بالنعم الدنيوية كالصورة الحسنة، وتسخير الموجودات، وتسليطهم على أغلب الحيوانات(٨).

الرحمة الرحمانية حجة على المؤمن والكافر، فهي للمؤمن زيادة لإيمانه بشكر المنعم، والامتنان لصاحب الفيض، أمّا الكافر فهي لبيان جحوده وإصراره على الكفران بالنعم.

١()ينظر: مكارم شيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٥٣/١-٣٦ .

٢()ينظر: الآملي: تسنيم في تفسير القرآن، ٣٤٥/١-٣٤٨ .

٣()سورة غافر: الآية/٧ .

٤()سورة الأعراف: الآية/١٥٦ .

٥()ينظر: الشهرستاني: مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار، ٨٧/١ .

٦()سورة الإسراء: الآية/٧٠ .

٧()ينظر: الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، ٥٠٣/٦ .

٨()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٦٦٢/٦ .

٢ـ الرحمة الرحيمية

هي الرحمة الخاصة المحدودة من نصيب المتقين[١]، وهي الرحمة المقيّدة التي تقابل الغضب الإلهي الذي يوجب خروج الغضب من تحت الرحمة الرحمانية، وتخصص الرحمة العامة وتُقيّد إطلاقها، فتكون محدودة كما إنّ السخط الإلهي محدود، من مظاهرها: تعلّم المعارف الإلهية، والقيام بالأعمال الصالحة في الدنيا، ونصرة الدين، والرضوان الإلهي بنيل الجنان في الآخرة، كل هذه هي من المظاهر الشاخصة للرحمة الرحيمية[٢].

ذُكِرَت الرحمة الرحيمية في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣]، فالرحمة هنا اختصت بالمحسنين، وإلا فإنّ المحسن والمفسد كل منهما مشمول بالرحمة الإلهية المطلقة[٤]، لذا فإنّ رحمة الله ﷻ وإجابته قريبة من المحسنين أعمالهم، وهي مخصصة للمحسنين الذين يتّبعون أوامره ويتركون زواجره، فليس لله ﷻ في حقّ الكافر رحمة ولا نعمة في الآخرة[٥].

خلاصة ذلك، إنّ الرحمة الرحمانية عامّة تشمل الموجودات كلّها من غير فرق بين موجود وموجود؛ وذلك لأنّه ﷻ جواد؛ والرحمة الرحيمية خاصّة تخصّ بعض الموجودات على فرق بين موجود وموجود؛ وذلك لأنّه ﷻ كريم[٦].

الرحمن اسم الله ﷻ يدل على قيام الرحمة بذاته ﷻ، والرحيم صفة تدل على وصول هذه الرحمة إلى عباد معينين، ورحمة الله ﷻ لعباده لا حدّ لها، فهو الذي

١()ينظر: الصادقي، محمد: الفرقان في تفسير القرآن، ٨٧/١ .

٢()ينظر: الآملي: تسنيم في تفسير القرآن، ٣٤٤/١-٣٤٥ .

٣()سورة الأعراف: الآية /٥٦ .

٤() ينظر: الآملي: تسنيم في تفسير القرآن، ٣٤٥/١ .

٥()ينظر: زحيلي، وهبة: التفسير الوسيط ، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٢ هـ، ٦٧٧/١.

٦()ينظر: الشهرستاني: مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار، ٨٧/١ .

خلقهم وأوجدهم وسخّر لهم الكون كله وأمدّهم بنعمه التي لا تعد ولا تحصى[١]، وقانون التسخير يتجلى في الرحمة الرحمانية والرحيمية إذ إنّ النعم تهدينا إلى معرفة الله ﷻ؛ لأنّ أفضل طريق وأشمل سبيل لمعرفته ﷻ، دراسة أسرار الخليقة والقانون الذي يحكم تلك المخلوقات، وخاصة ما يرتبط بوجود النعم في حياة الإنسان[٢].

الكون كله خُلِقَ من العدم برحمة الله ﷻ، ومنظم وفق قوانين برحمانيته لتمكين الإنسان من عمارة الأرض والقيام بالخلافة، فالرحمة الإلهية عامة شاملة في الدنيا لتسخير الكون لبني آدم برهم وفاجرهم، والرحمة الرحيمية وهي مخصصة للمؤمنين، فمن ذلك كله يتجلى قانون التسخير بقيامه على أساس الجمع بين الرحمة العامة والخاصة في تدبير النظام وتهيئة الكون للإنسان.

ثانياً: القيمومية الإلهية

إنّ الكون يتقوّم على منظومة متكاملة ومنسجمة ومتناسقة من القوانين الثابتة[٣]، والقيام الكامل والمطلق بتدبير الكون وتسخيره من آثار الله ﷻ الذي لا يغفل طرفة عين عن حُكْمِه المطلق على عالم الوجود وإدارته، وإنّ استمرار فيض اللطف الإلهي وديمومته وعدم انقطاعه عن الوجود لحظة واحدة، يجعل من كلّ صفة لا تتفق مع قيموميّته ﷻ تنتفي من ساحة قدس الله ﷻ تلقائياً[٤].

كلمة القيّوم صيغة مبالغة من القيام على الأمر، قائم بنفسه، قائم بذاته ويقيم غيره، فيكون الخالق قيّوما، وهو سند المؤمن في كل حركات حياته[٥]، في قوله

١()ينظر: شرف الدين، جعفر: الموسوعة القرآنية خصائص السور، ط١، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ١٤٢٠هـ، ٦/١ .

٢()ينظر: مكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٣٥/١ .

٣()ينظر: قراملكي، محمد حسن قدردان : أجوبة الشبهات الكلامية (التوحيد)، ٣٨٤ .

٤()ينظر: مكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٢٤٧/٢ .

٥()ينظر: الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي، ١٢٦١/٢ .

تعالى: ﴿ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[1]، المراد هو بيان قيامه ﷻ أتم القيام على أمر الإيجاد والتدبير، فقانون المسخرات بأعيانها، وآثارها، تحت قيمومة الله ﷻ، قيمومة حياة تستلزم العلم والقدرة، فالعلم الإلهي نافذ فيها لا يخفى عليه شيء منها والقدرة مهيمنة عليها لا يقع منها إلا ما شاء وقوعه وأذن فيه[2].

إنّ الآية تثبت لله ﷻ مع الوحدانية الحياة، التي تُشعر بكمال الوجود وكمال الإيجاد بإفاضة الحياة على الأحياء، والقيومية وهى كونه قائما بنفسه، أي ثابتا بذاته وكون غيره قائما به أي ثابتا وموجودا بإيجاده إياه، وحفظه لوجوده بإمداده بما يحفظ به الوجود من الأسباب، ومن معانى هذه القيومية القيام بالقسط، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3] والقسط هنا هو العدل العام في قوانينه الكونية وشرائعه، وليس في الوجود صاحب سلطة حقيقية على النفوس يبعثها على تعظيمه والخضوع له قهرا منها معتقدة أن بيده منح الخير، ورفع الضر بتسخير الأسباب، أو بإبطال القوانين ذلك التسخير، إلا الله ﷻ وحده[4].

يؤكد سبحانه هذه القيّومية في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ...﴾[5]، كأنه يقول لنا: ناموا أنتم لأنني لا أنام، وإلا فإن نام الإنسان عن حراسة حركة حياته فمن يحرسها له؟ إنّه سبحانه يتفضل علينا بقيوميته ﷻ ومادام هو (الحىّ) و(القيّوم) فأمر منطقي أنه قائم بأمر التسخير وقد وضع لكل الخلق ما تقوم به حياتهم من مادة وصيانة مادة، ومادام هو القيوم والقائم بالأمر والمتولي الشؤون للخلق، فلا بد أن

١()سورة آل عمران: الآية/ ٢ .

٢()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ٢/٣ .

٣()سورة آل عمران: الآية/١٨

٤()ينظر: رضا، محمد رشيد: تفسير المنار، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤ هـ، ٣ /٢٤-٢٩ .

٥()سورة البقرة: الآية / ٢٥٥ .

يسخّر لهم مطلوبات مادتهم وما يبقيها[1]، فيقول تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ﴾[2]، وهي تدل على أن محدثها قادر لاستحالة وجود الفعل إلا من القادر ويدل أن محدثها حي لاستحالة وجود الفعل إلا من قادر حي ويدل أيضا على أنه عالم لاستحالة الفعل المحكم المتقن المتسق إلا من عالم به قبل إحداثه[3].

يُلحظ مما سبق أنّ قانون التسخير يتجلى بالقيمومة الإلهية، وموجود في مضامينها، فهي تولي الله ﷻ لكل شيء رعايةً وحفظاً وتدبيراً، ولا تنقطع هذه القيمومة عن الوجود مادام الفيض الإلهي موجود، وهذا التدبير وتلك الرعاية وفق النظام الأتم الأحسن، وهي قوانين الله ﷻ في تسخير الموجودات بالكون لمنافع الإنسان وتحقيقياً لمبدأ الاستخلاف.

١()ينظر: الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي، ١٢٦٢/٢ .

٢()سورة فصلت: الآية/١٠ .

٣()ينظر: الجصاص، أحمد بن علي: أحكام القرآن (للجصاص)، ط١، تح: القمحاوي، محمد صادق، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ، ١٢٧/١ .

المبحث الثالث: الدلالة البلاغية في آيات التسخير

إنَّ القرآن الكريم حافل بالآيات الكونية ومشاهد الطبيعة بأنواعها، ويشير إلى أكثر من ألف آية صريحة وكثير من الآيات الأُخرى التي تقترب من الصراحة في دلالتها على الكون والمسخّرات، إذ تشكل هذه الآيات الكونية حوالي سدس مجموع آيات القرآن الكريم[١]، وإنّ مشاهد الطبيعة جاءت في الغالب صوراً بلاغية تحوي على إبداع في وصف تلك المسخّرات وفق قانونها الذي جُبِلت عليه مما يدعو الإنسان إلى أن يفتح بصيرته ويستشعر مَن وراء هذه الطبيعة الخلابة من قادر صانع مبدع في صنعه، ويمكن بيان ذلك بالمطالب التالية:

المطلب الأول: التصوير الفني لقانون التسخير في القران الكريم

الصورة الفنية هي: (مجموعة العلاقات اللغوية والبيانية والإيحائية القائمة بين اللفظ والمعنى، أو الشكل والمضمون)[٢]، إذ تعمق الدكتور الصغير في بيان اصل لفظة - الصورة الفنية - وجال مع القدامى والمحدثين من النقاد، وقارن بينهم لتحديد المصطلح، وبيّن إن أول منظِّر لمصطلح الصورة الفنية هو عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) وأول قائل به، وبيّن ان **القدامى** لم ينهضوا بمفهوم الصورة الفنية إلى المجال الاصطلاحي الدقيق، ولم يخرجوا عن مدلولها اللغوي، ولم يتبلور عندهم بعدها النقدي الأصيل، أما مصطلح الصورة لدى النقاد **المحدثين**، وبعد أن عرض آرائهم وتعاريفهم، وجد أن المصطلح بدا متأرجحاً بين دلالات، ولا التقاء بين أكثرها، وتحوم حول المصطلح ولا تفصح عنه[٣]، فالصورة الفنية لدى الدكتور الصغير هي أداة فنية لاستيعاب اللفظ والمعنى، بما لهما من صفات ومميزات تجعل

١()ينظر: النجار، زغلول راغب محمد: من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ط٣، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ١٤٢٤هـ، ١٦/١ .

٢()الصغير، محمد حسين علي: الصورة الفنية في المثل القرآني،(د.ط)، دار الرشيد، العراق، ١٩٨١م، ٣٧.

٣() ينظر: المصدر السابق، ٣٥-٣٦ .

الفصل بين الشكل والمضمون مستحيلاً، فهي وحدة لا تنفصل ذات طرفين هيأة ومادة، ولا يقوم النص الأدبي إلا بلحاظ طرفيه ولا يتم تفسيره إلا بمواجهتهما والا فالجهد الأدبي عمل جاف لا ينبض بالحس ولا يكون نتاجاً صالحا في مقياس فني، فالصورة الفنية لقانون التسخير في القران الكريم أخذت مجالاً واسعاً، لا سيما في الآيات الكونية، فهي مشاهد مرتبطة بالإنسان وما يألفه ويراه ويسمعه ويلمسه في محيطه وبيئته التي يعيش فيها، ولقد صور القرآن الكريم مشاهد هذا الكون، من السماء والشمس والقمر والنجوم والكواكب والشهب، كذلك صور السحاب والرياح والرعد والبرق، فضلاً عمّا في الأرض من بحار وجبال وحيوان ونبات، وكثير من الخلائق التي أوجدها الله ﷻ بقدرته وتدبيره في آيات الخلق والتسخير، وإن هذه الصورة الفنية للمشاهد الطبيعية جاءت واقعية لا تختلف كثيرا عمّا يشاهدهُ الإنسان كل يوم في حياته الاعتيادية؛ لكونها ترتبط بنوعية الوظيفة التي جبلت من أجلها والتي لا تتناسب مع الخيال ومخالفة الواقع، وكثيراً ما ترى هذه المشاهد في الصباح والمساء ولكن لا تلتفت إليها، ولا تدرك الخالق الذي أوجدها؛ لأنَّ الاعتياد والأُلف بلّد إحساسنا وجمّد شعورنا، فيجد الإنسان تلك الصور لقانون تلك المسخّرات إنها مؤثرة بحسه ووجدانه، ويشعر ويتعامل معها، بل يجدها شخوصاً متحركة محكومة بقوانين الله ﷻ وبذلك يتحقق الانسجام بين الكون والإنسان؛ لأن كليهما مخلوق محكوم بقوانين إلهية متوافقة ومنسجمة(١) تحقيقاً لمبدأ الاستخلاف على الأرض الذي أراده الله ﷻ في الأرض .

المطلب الثاني: الغاية من التصوير الفني لقانون التسخير في القرآن الكريم

أراد الله ﷻ من التصوير الفني لمشاهد المسخّرات في الكون والطبيعة، أن يلفت انتباه الإنسان إلى قوة قدرته، وبديع خلقه، ويوقظ الحواس والعقول والمشاعر؛ لأدراك الغاية والحكمة من خلق الكون فينقل الإنسان من مظاهر الطبيعة الخارجية التي يألفها، إلى أسرار تلك المظاهر وأعماقها، وبيان آثار الربوبية وحقيقة الأُلوهية في هذا الكون المنظور، إنّ الصورة الفنية في القران الكريم تخاطب عقل الإنسان

(١)ينظر: الراغب، عبدالسلام أحمد: وظيفة الصورة الفنية في القران الكريم، ط١، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ٢٠٠١م، ١٩٩.

وحسه ووجدانه، وتعزف على أوتار النفس لتقيم التوازن بها ونرسم صورة الإنسان والكون، وتُبيّن العلاقات التعبيرية والتصويرية والفكرية قانون التسخير في إعجاز خلق الكون وتصميمه الدقيق على وفق نظام إلهي متقن(١).

للصورة الفنية قدرة على جعل العقل السليم يستعد لاستقبال الحقائق الدينية وعلى الملاحظة والتأمل في الكون لاستخلاص القوانين المبثوثة فيه، فقد جاءت هذه المشاهد والصور لتحيي الحس والشعور لدينا وكأننا نراها لأول مرة، وليدرك الإنسان ما وراءها من قوة خالقة قادرة مدبرة منظمة للكون وفق قانون لتلك المسخّرات وجعلها بهذا الجمال والكمال، إذ يتم جمع الصورة بين الشكل الخارجي للكون والمضمون الديني، فتتحقق لذة النفس ومتعة الحس، وحرية الخيال حين يسبّح هذا الملكوت بتناسق عجيب وفق قانون ثابت ومنسجم لملايين السنين، فقوله تعالى﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(٢) الصورة هنا تبرز الكون وهو خاضع لله ﷻ وملتزم بقوانينه الموضوعة، والسير على قانونه الكوني، فإن التسبيح يضفي على المسخّرات الشعور والإدراك، كي يتجاوب الإنسان مع الطبيعة في حركة التسبيح الكونية التي لا يشذ بمفرده عن هذا التسبيح الجماعي للطبيعة من حوله(٣).

فهذه الصورة الهائلة في إيحائها، وحركة الخيال الذي يتابع مشهد التسبيح الكوني الضخم، في مساحات الأرض وآفاق السماء، وفي أنواع الحيوانات والنباتات والمخلوقات، لها مكانة هامة في التصوير الفني لقانون التسخير في القرآن الكريم؛ لأن ذلك التصوير مرتبط بعالم الشهادة أو عالم المُحسات، وهو مجال المعرفة الإنسانية باعتماده على الحواس التي تقوم بالتقاط الصورة المتفرقة من المشاهد الطبيعية، وتضعها لدى العقل الذي يفسّرها وينظمها وفق قوانين، ويعطي حكماً عليها،

١() ينظر: الراغب، عبدالسلام أحمد: وظيفة الصورة الفنية في القران الكريم، ٢٠٠

(٢)سورة الإسراء: الآية٤٤.

(٣)ينظر: الراغب، عبدالسلام أحمد: وظيفة الصورة الفنية في القران الكريم، ص٢٠٣.

وإعادة النظر والتأمل فيها، ولا يهدف التصوير الفني لنواميس المسخّرات إلى تقديم حقائق علمية وتصديرها لمجرد التصوير الفني، وإنما جاء لنقل الإنسان من مظاهر الطبيعة الخارجية إلى أعماقها وأسرارها والحكمة من خلقها، فتظهر الحقيقة الألوهية والآثار الربوبية في الكون[١] .

المطلب الثالث: عناصر الصورة الفنية لقانون التسخير في القرآن الكريم

هي عناصر بيانية تتفاوت جملة وتفصيلا، فمنها ما تلمس شواهده متراكمة كالتشبيه بأنواعه وتقسيماته، ومنه ما تجده متساوقاً حسب المناسبة كالاستعارة في مجالاتها، ومنه ما يستخرج بعد جهد جهيد كالاستعمال المجازي، فهذه العناصر وغيرها تشكل رؤية متميزة وتمثل ظاهرة محسوسة في شكل وبناء النص القرآني، وهذه الظاهرة وتلك الرؤية لم يكن ورودها اعتباطياً بل مقصوداً، لما يثيره من انفعالات داخلية في النفس (المجاز والتشبيه والاستعارة هياكل حية متحركة تعبد الطريق إلى الولوج في نفس الإنسان لما اشتملت عليه من سحر بياني مقترن بناحيتين هما نقل العواطف وإثارة الإحساس، فالجانب النفسي والسيطرة على الإحساس الداخلي والامتزاج مع شعور الإنسان عوامل انفعالية تكمن وراء العناصر الفنية)[٢] في النص القرآني.

فالإنسان غاية، والغوص إلى هذه الغاية والوصول إلى أعماقها من أجل تهذيبها وخلق نموذج الكامل، يكون بهذه الوسائل التعبيرية النابضة، وقد ارجع عبدالسلام راغب الصورة الفنية في القرآن إلى نوعين ويتفرع منها بقية الصور:

أولا: الصورة المفردة أو الصورة البلاغية

وهي مكونة من التشبيه أو المجاز أو الاستعارة، وتكون مرتبطة هذه الصورة بالجملة الواحدة في الغالب.

١()ينظر: المصدر السابق، ١٩٩-٢٠٠ .

٢()الصغير، محمد حسين علي: الصورة الفنية في المثل القرآني، ١٤٩ .

١ ـ التشبيه

لغةً: التمثيل أو المماثلة، وأَشْبَه الشيءُ الشيءَ: مَاثَلَهُ، والشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: المِثْلُ، خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره، وَفي الْجَمْعُ أَشْباهٌ[١].

اصطلاحاً: (العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حسن أو عقل)[٢]، وهو (عقد مماثلة بين شيئين أو أكثر بقصد إشراكهما في صفة أو أكثر بإحدى أدوات التشبيه لغرض يريده المتكلم)[٣]، جملة التشبيه في القرآن تمثل عنصراً أساسياً ومهماً في إيضاح المعاني وتقريرها، لذلك استخدمها القرآن الكريم في الأغراض الهامة من الترغيب إلى الترهيب، ومن المدح إلى الذم ومن التهذيب والإصلاح إلى التشريع والأحكام إلى المناظرة والجدل إلى آخر مقاصد الكتاب الحكيم[٤].

فالتشبيه ليس عنصراً ثانوياً في الجملة؛ ولكنه الجزء الأساسي، وهو يأتي في الجملة ضرورة يتطلبها المعنى ليصبح قوياً[٥]، وقيل في فائدة التشبيه: (التشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا؛ ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كلّ جيل ما يستدلّ به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكلّ لسان)[٦].

١()ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ٥٠٣/١٣ .

٢()الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: إعجاز القرآن للباقلاني، ط٥، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ١٩٩٧م، ٢٤٦/١ .

٣()الموسوي، ضرغام كريم كاظم: البلاغة في سؤال وجواب، ط٤، مؤسسة دار الصادق الثقافية، العراق، ٢٠٢٣م، ٢٢١

٤()ينظر: المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ط١، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٣ هـ ، ٢٩٢/٢ .

٥()ينظر: الشيخ أمين، بكري: التعبير الفني في القرآن الكريم، ط٣، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٩م، ١٩٤ .

٦()العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى: الصناعتين، (د.ط)، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٤١٩ هـ، ٢٤٣ .

وفائدته هو الإيضاح ما قصد من المعاني مع الاختصار والإيجاز، فالقول في عليّ كالأسد، كان الغرض منه هو بيان حال عليّ وانه متصف بأوصاف الأسد البادية للعيان، من قوة البطش وعظيم الشجاعة وشدة المراس[١].

وتُلحظ أركان التشبيه من خلال هذا المثال: المشبه عليّ، والمشبه به الأسد، وأداة التشبيه الكاف، ووجه الشبه القوة والشجاعة، وإذا ما حذف طرفي التشبيه – المشبه أو المشبه به – خرج التشبيه إلى الاستعارة والتي سيبينها البحث لاحقاً .

القرآن الكريم يستمد عناصره في التشبيه من المسخّرات - الطبيعة وما فيها من النبات والحيوان والجماد - فمن النبات: العرجون، والعصف المأكول، والشجرة، وأعجاز نخل، والحبة تنبت سبع سنابل... ومن الحيوان: الحمار، والكلب، والعنكبوت، والفراش، والجمال، والأنعام... ومن الجماد: العهن المنفوش، الحجارة، الجبال... فالتشبيه في القرآن دقيق يصف ويقيّد حتى تكون الصورة واضحة، دقيقة وأخاذة، فلم يكتف في تشبيه الجبال يوم القيامة بالعهن، بل وصفه بالمنفوش، لدقة تصوير الهشاشة في الجبال يوم الحساب[٢]على خلاف ماهي عليه من الصلابة والقوة.

يلاحظ في الصورة التشبيهية التناسب الشكلي والنفسي معاً، قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾[٣]، فتشبيه القمر في مراحله القديمة بعذق النخلة اليابس[٤]، غني بالدلالات النفسية وليس مقصوراً على المطابقة والمشابهة الشكلية فحسب وإنّما هناك تناسب نفسي[٥]، إذ إنّ العرجون كان محط اهتمام في أول النضوج لثمره، وبعد أن اصبح قديماً يابساً لا يلتفت إليه، كذلك القمر في آخر الشهر القمري بعد أن كان بدراً ومحط الأنظار لضيائه، ونهاية كل منهما

١()ينظر: الموسوي، ضرغام كريم كاظم: البلاغة في سؤال وجواب، ٢٢٢ .

٢()ينظر: الشيخ أمين، بكري: التعبير الفني في القرآن الكريم، ١٩٤-١٩٥ .

٣()سورة يس: الآية /٣٩ .

٤()ينظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن: تفسير جوامع الجامع، ٣٩٠/٣ .

٥()ينظر: مكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٨٧/١٤ .

بالفناء والأفول بعد رحلة من العطاء والضياء[١]، فإنّ الأساليب البلاغية التي تمنح الجمال الفني للمسخّرات وتعطي الإبداع في التصوير، إذ تبيّن أنّ التشبيه جزءاً أصيلاً في المعنى ومتميز بالدقة في اختيار الصور التي تحتوي على عدة معان؛ ليستعملها في تحقيق العمق في التصوير وإيصال المعنى المراد، لذا فإن التشبيه يضع صورة المسخّر أمام الشخص؛ لتأنس بها النفس ويطمئن لها القلب، وينسج لها الخيال، ويكون شاهداً حيّاً على بلاغة القرآن في بيان قانون المسخّرات للإنسان.

٢ ـ المجاز

لغةً: (جُزْتُ الطريقَ وجازَ الموضعَ... مَجازاً... سَارَ فِيهِ وَسَلَكَهُ، وأَجازَه: خَلَّفه وَقَطَعَهُ)[٢]، **اصطلاحاً:** قال الجرجاني: (فقد عوَّل الناسُ في حدِّه على حديثِ النَّقْل، وأنَّ كلَّ لفظٍ نُقِلَ عن موضوُعهِ فهو مَجاز)[٣]، ويعد المجاز في اللغة العربية من الوسائل البيانية الذي يكثر في لغة العرب، وكلامهم البليغ، وليس فيه من الكذب شيء كما توهم عند البعض[٤].

يُلحظ أنّ المعنى الاصطلاحي أخذ من المعنى اللغوي للفظة، والعرب استعملت المجاز لميلهم إلى الاتساع والتكثير في الكلام، عدّ العرب المجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأفضل موقعاً في القلوب والأسماع[٥]، وفائدة المجاز هي(تلطيف الكلام فهو أن النفس إذا وقفت على تمام كلام فلو وقفت على تمام المقصود لم يبق لها شوق إليه أصلا لأن تحصيل الحاصل محال وإن لم تقف على شيء منه أصلا

١()ينظر: الراغب: وظيفة الصورة الفنية في القران الكريم، ٦٤ .

٢() ابن منظور: لسان العرب، ٣٢٦/٥ .

٣()الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ٦٦ .

٤() ينظر: الموسوي، ضرغام كريم كاظم: البلاغة في سؤال وجواب، ٢٤٣ .

٥()ينظر: القيرواني، أبو على الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط٥، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ١٩٨١ م، ٢٦٦/١.

لم يحصل لها شوق إليه فأما إذا عرفته من بعض الوجوه دون البعض فإنّ القدر المعلوم يشوقها إلى تحصيل العلم بما ليس بمعلوم فيحصل لها بسبب علمها بالقدر الذي علمته لذة وبسبب حرمانها من الباقي ألم فتحصل هناك لذات وآلام متعاقبة واللذة إذا حصلت عقيب الألم كانت أقوى وشعور النفس بها أتم إذا عرفت هذا فنقول إذا عبّر عن الشيء باللفظ الدال عليه على سبيل الحقيقة حصل كمال العلم به فلا تحصل اللذة القوية أمّا إذا عبر عنها بلوازمها الخارجية عرف لا على سبيل الكمال فتحصل الحالة المذكورة التي هي كالدغدغة النفسانية فلأجل هذا كان التعبير عن المعاني بالعبارات المجازية ألذ من التعبير عنها بالألفاظ الحقيقية)[١].

يُقسم المجاز إلى لغوي وعقلي، **فالمجاز العقلي** هو(المعنى الذي خرج عن الإسناد بقصد المتكلم لا بوضع اللغة، لعلاقة صارفة مع قرينة لإسناد ما هو له)[٢]، ومورده التراكيب والجمل ولا يرد في الكلمة، ويكون على نوعين مجاز في الإسناد ومجاز في النسبة غير الإسنادية، وسمي عقلياً؛ لأنه فهم من العقل لا من اصل اللفظ اللغوي، أي يدرك بالعقل والفهم لا بحقيقة الدلالة اللغوية للفظ، كما في قوله تعالى: ﴿...وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[٣] فقد اسند الإنبات إلى الأرض مجازاً، والمنبت الحقيقي هو الله ﷻ، فهذا المجاز يفهم من العقل لا من أصل اللغة وما وضع له[٤].

أما المجاز اللغوي أو اللفظي هو ما كان رجوعه إلى اللغة، لأنّ الكلمة استعملت في غير ما وضعت له في الأصل من حيث اللغة، لعلاقة بين المعنيين، مع قرينه صارفة عن إرادة المعنى الحقيقي، وهو نوعان: المجاز المرسل والاستعارة، السعة في رحمت اللهﷻ، نِعَمه وألطافه وقانونه العام في مخلوقاته، ظهرت في القرآن مجازاً؛ لأنّ الْوَاسِع مُبَالغَة فِي الْوَصْف بالجود، وَهَذَا فِي أَوْصَاف اللهﷻ مجَازا، لأنّها

١() الرازي، فخرالدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن: المحصول، ٣٣٦/١ .

٢() الموسوي، ضرغام كريم كاظم: البلاغة في سؤال وجواب، ٢٧٤ .

٣()سورة الحج: الآية /٥

٤()الموسوي، ضرغام كريم كاظم: البلاغة في سؤال وجواب، ٢٧٣

ذات مساحة، أمّا الرحمة في أصل اللغة: الشفقة والرِّقَّةِ وَالْعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ، مشتقة من رَحِمِ الأنثى وهو موضع نمو الجنين لما يلقاه فيه من أسباب الراحة ووجوه الإنعام[١].

في جانب اللهﷻ يراد بالرحمة لازمها، وهو ما يترتب عليها من الإلطاف والإكرام والتنعيم، ولمّا كانت الرحمة هيئة من هيئات النفس وشعوراً وجدانياً، فإن وصفها بالوسع ضرب من المجاز[٢].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٣]، من شأنها أن تشمل جميع الموجودات لكثرتها وسعة فضلها، فهي استعارة تمثيلية شبهت فيها هيئة الرحمة وما يمكن أن تظله فيها من المخلوقات بشيء محيط متسع ذي طاقة هائلة من الوسع، فالهيئة الأولى تخيلية والهيئة الثانية واقعية حسية، والسرّ البلاغي، إبراز المتخيل المعنوي في صورة الواقع الحسي، والقرينة امتناع أن تتصف الرحمة بالوسع؛ لأنها ليست ذات مساحة، فتخيل إسناد الوسع إلى الرحمة هو قرينة المجاز، فرحمة الله غير متناهية تكفي أهل السموات والأرض وما بينهما، وتزيد لتشمل كل شيء حتى الجمادات، وقد استعمل القرآن الكريم هذه المادة (وسع) تمثيلاً لبيان مقدار الرحمة[٤]، قال تعالى: ﴿...فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ...﴾[٥]، ﴿...رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا...﴾[٦]

ومن النظر الفاحص في هذه النصوص يتضح أن من رحمة اللهﷻ يتخذ القرآن الكريم منهجاً واحداً للكشف عنها وبيان مقدارها، فهي محيطة إحاطة شاملة

١()ينظر: الرازي، أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ٤٩٨/٢ .

٢()ينظر: المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ٢٥٩/٢.

٣()سورة الأعراف: الآية/١٥٦.

٤()ينظر: المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ٢٦٠/٢.

٥()سورة الأنعام: الآية/ ١٤٧ .

٦() سورة غافر: الآية/ ٧ .

تكاد تدرك بالحواس لشدة ظهور آثارها الدالة عليها[١].

٣ ـ الاستعارة

لغةً: طَلَبَ العارِيّة، واسْتَعارَه الشيءَ واسْتَعارَه مِنْهُ، وهي مِنَ الْعَارِيَّةِ[٢]، **اصطلاحاً:** (نقل العبارة عن موضع استعمالها فى أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذى يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة فى الاستعارة المصيبة، ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمّن ما لا تتضمنه الحقيقة، من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا)[٣]، وهي (استعمال اللفظ في غير ما وضع له، بعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي)[٤]، قال تعالى:﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٥]، وهذه استعارة، لأن الزخرف في كلام العرب اسم للزّينة واختلاف الألوان الموقنة، أي لبست زينتها بألوان الأزهار، وأصابيغ الرياض[٦]، إنّ زينة الأرض بما عليها من أصناف النبات، كزينة العروس التي أخذت من أنواع الثياب والألوان زينة لها[٧].

ثانياً: الصورة المرتبطة بالنسق أو السياق بين الصورتين

١()ينظر: المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية،٣٦١/٢.

٢()ابن منظور: لسان العرب، ٢١٨/٤

٣()العسكري: الصناعتين، ٢٦٨/١ .

٤()الموسوي، ضرغام كريم كاظم: البلاغة في سؤال وجواب، ٢٥٣ .

٥()سورة يونس: الآية /٢٤ .

٦()ينظر: الشريف الرضي، محمد بن الحسين: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ١٥٥ .

٧()ينظر: الموسوي، ضرغام كريم كاظم: البلاغة في سؤال وجواب، ٢٥٤ .

هي أشمل من الصورة الأولى، وهناك تفاعل بين الصورتين فالصورة البلاغية المفردة تتكون من علاقات داخلية مرتبطة بين أجزاءها لبناء تشكيلها أولاً وتحكمها أيضا علاقات أُخر تربطها بالسياق القرآني، ومن ثم البناء العام للصورة الفنية الكلية[١]، قال عبدالسلام الراغب: (يمكن الوقوف عند الصورة المفردة أو البلاغية، لدراسة مكوّناتها، ومن ثمّ دراسة هذه الصورة البلاغية في علاقاتها مع الصور الأخرى، في نمو وامتداد، وصعود حتى تكوّن (صورة المشهد) ثم صورة (اللوحة) أو الصورة المركّبة من عدّة صور، ثم تتابع الصورة المركبة، في امتدادها ونموها وصعودها، لكي تكوّن (الصورة الكلّية) ضمن علاقات وأنساق فنية، وهذه الصورة الكلية، مكوّنة من السورة كلّها، فكلّ سورة في القرآن، تكوّن صورة (كلية) لها ملامحها الواضحة، وسماتها البارزة عن غيرها، ثم إنّ الصورة الكلية مرتبطة ب (الصورة المركزية) التي هي مصدر الصور كلّها، فمنها انبعثت وتناثرت بنظام وترتيب)[٢].

لا يقف التصوير الفني لقانون التسخير في القرآن الكريم عند حدود بلاغية معروفة من الاستعارة أو التشبيه أو المجاز أو غيرها، وإنّما يتعدى ذلك كله إلى الصورة ككل من التآلف الصوتي، والجرس اللفظي، وموسيقى السياق، فضلاً إثارة مجالات الذهن والحس، فالطريقة التصويرية لا تكتفي بجانب واحد تخاطبه وإنما تسعى لمخاطبة الوجدان والحس، أي مخاطبة الذات ككل[٣].

التصوير هو قاعدة الأسلوب القرآني، وإن الحس والخيال يتعاونا على رسم الصورة الفنية في القرآن الكريم فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ

١()ينظر: الراغب: وظيفة الصورة الفنية في القران الكريم، ٥٥ .

٢() المصدر السابق، ٥٦ .

٣()ينظر: عبدالعال، محمد قطب: من جمالية التصوير الفني في القرآن الكريم، مجلة دعوة الحق، العدد٩٩، السنة التاسعة، مكة المكرمة، ١٩٩٠م، ٤٣-٤٤ .

نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾[1]، طريق الجنّة إلى درجة من الدقّة إذ يشبه ثقب الأُبرة ولا يمر من خلاله إلّا من تحلّى قلبه بالإيمان كما أنّ عبور الجمل أو (الحبل الضخم) غير ممكن من ثقب أبرة فإنّ دخول المتكبّرين إلى النعيم الإلهي والجنّة مستحيل على الكافرين[2]، فمحاوله دخول الجمل إلى ثقب الأبرة متخيله تجعل من الذهن يرسم صورة للمحاولات البائسة للجمل دون فائدة مع تحقق الإستحاله[3].

التصوير الفني أسلوب مميز ضمن أساليب القرآن الكريم ومنهجه التعبيري المعجز، والاهتمام بالمعنى الحسي غالب في صوره، مما يعطي ثقلاً تخيليّاً مثيراً للفكر والوجدان، كما أنّه يبين العلاقة بين التصوير المستعان به والمعنى المراد إيجازه، القرآن الكريم يتخذ من التصوير الفني وسيلة للتعبير عن الجانب العقدي؛ لأنّ تأثيرها في المتلقي أقوى لكونها تستمد عناصرها من الواقع، وبذلك يكون التأثير والتأثر بين الصورة والمتلقي أكثر فاعلية، وهذا التأثير مرتبط بالعاطفة الإنسانية فيشعر الإنسان بالتجاوب الداخلي مع الصورة المثيرة للعواطف، فيرى عالمه فيها ويتناغم مع مشاعره، فبلغت الصورة الفنية القمة بتأثيرها على المتلقي؛ لإثارتها للمشاعر الدينية والإنسانية معاً فهي تهز أعماق المتلقي لتوقظه إلى حقائق الوجود وقوانينه عن طريق المشاهد المعروضة وصورها الشاخصة والنماذج المرسومة في الأحداث الواقعة وحتى الماضية، ليبلغ التأثر الوجداني مداه وتنفتح منافذ الروح لاستقبال التأثير عبر الفكر والشعور والعقل والوجدان معاً[4]

١()سورة الأعراف: الآية/٤٠ .

٢()ينظر: مكارم شيرازي، ناصر، الأخلاق في القرآن،ط٣، الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) - قم، ١٤٢٨ هـ، ٢/٢٦-٢٧ .

٣()ينظر: الراغب، عبدالسلام أحمد: وظيفة الصورة الفنية في القران الكريم ٤٠ .

٤()ينظر: الراغب، عبدالسلام أحمد: وظيفة الصورة الفنية في القران الكريم، ٥١ .

الفصل الثاني: طرائق معرفة قانون التسخير ومراتبه وخصائصه

المبحث الأول : طرائق معرفة قانون التسخير

المطلب الأول: الحس

المطلب الثاني: العقل

المطلب الثالث: الوحي

المبحث الثاني: مراتب قانون التسخير

المطلب الأول: تسخير الله ﷻ

المطلب الثاني: تسخير الملائكة

المطلب الثالث: تسخير الإنسان

المبحث الثالث: خصائص قانون التسخير الربانية

المطلب الأول: ربانيّة التسخير

المطلب الثاني: قانون التسخير مظهر من مظاهر التوحيد والقدرة الإلهيّة

المطلب الثالث: قانون التسخير خاضع للحاكميّة ولا يخرج عن المشيئة الإلهية

المطلب الرابع: قانون التسخير مظهر للحكمة والعدل الإلهي في نفي العبثية

المطلب الخامس: قيامهُ على التوازن والتناسب في الفيوضات والقابليات

المبحث الرابع: خصائص قانون التسخير العلميّة

المطلب الأول: قانون التسخير وسمة الاطراد

المطلب الثاني قانون التسخير في الثبوتية والاستقرار

المطلب الثالث: قانون التسخير لا يخرج عن قانون العليّة

المطلب الرابع: قانون التسخير في العمومية والشمولية

المبحث الخامس: قانون التسخير ذو الطابع الانساني

المطلب الأول: ارتباط قانون التسخير بالجزاء والثواب للإنسان

المطلب الثاني: قانون التسخير من مقومات الاستخلاف

الفصل الثاني: طرائق معرفة قانون التسخير ومراتبهُ وخصائصهُ

إنَّ حاجة المسلمين إلى فهم قانون التسخير وحسن التعامل معه والتحكم فيه، شديدة؛ ليستطيع الفرد المسلم من استعادة فاعليته، وقدرته على التغيير والإصلاح والبناء، وبذلك ترتفع أسباب الخمول والجمود التي عطلت عقل المسلم عن ادراك قانون التسخير، ويتم ذلك من خلال معرفة طرائق التي بها نكشف عنه، وفهم مراتبه وخصائصه، ويتضح ذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: طرائق معرفة قانون التسخير

المسلم يكون فاعلاً ومؤثراً عندما يكتشف القانون الذي تسري عليه المسخّرات، ويحسن استثماره ويدرك التعامل معه، فهنا يرد تساؤل، كيف للإنسان أن يكتشف ذلك القانون، حتى يتسنى له استثماره لعمارة الأرض، ويمكن استنباطه واستخلاصه من منابع المعرفة التي يستعين الإسلام بها لمعرفة الكون[١] وهي:

المطلب الأول: الحِس

من أهم الحواس هما السمع والبصر، التي أودعهما الله سبحانه في الإنسان، وهما نافذتان لعقل الإنسان على الكون ومن أهم أدوات المعرفة[٢]، ووسيلتان حيويتان يمكن أن يتحصّل من خلالهما على كثير من مصادر المعرفة، من خلال سماعه لكلمات الحق في الآيات المتلوة، ومشاهدة المسخرات وحركتها في الكون من حوله، ليستعمل ما تم سماعه ومشاهدته كمواد خام للفكر الذ يمكن أن ينتجه بعقله فيكون حجة له أو عليه[٣]، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[٤]، أي بمعنى (جعله سميعا بصيرا للتوسل به في التدبير الربوبي إلى غايته،

١()ينظر: السبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ١٥-١٧.

٢()ينظر: المدرَسي: من هدي القرآن، ١٧٣/١٧ .

٣()ينظر: فضل الله: من وحي القرآن، ٢٦٤/٢٣ .

٤()سورة الإنسان: الآية/٢ .

وهي أن يرى آيات الله ﷻ الدالة على المبدأ والمعاد ويسمع كلمة الحق التي تأتيه من جانب ربه بإرسال الرسل و إنزال الكتب فيدعوه البصر والسمع إلى سلوك سبيل الحق، والسير في مسير الحياة بالإيمان والعمل الصالح، فإن لزم السبيل الذي هدي إليه أداه إلى نعيم الأبد وإلا فإلى عذاب مخلد)[١].

المطلب الثاني: العقل

الذي يكشف الحقيقة في مجال محدود وخاص، منطلقاً من الأصول الإسلامية، بعيداً عن الفكر الخاطئ والتعصب، فالعقل والحواس، طريقان متاحان لكل إنسان أن يستفيد منه لمعرفة قانون المسخّرات، واستثماره وجني ثماره، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذين الطريقين، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٢]، وقال تعالى، ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٣]، أي خلق تلك الحواس ابتداء من العدم وخص هذه الحواس؛ لأن دلائل المعرفة مبنية عليها[٤]، ليستمعوا إلى الآيات، ويبصروا الدلائل ليعتبروا وأفئدة ليتفكروا في طلب المعرفة[٥].

بيّن الله ﷻ للإنسان طريق الحق، وأنشأ له الأدوات التي تنير له طريق المعرفة للنظر ببديع صنع الخالق، وما فيه من دلائل، وأفئدة يتفكرون بها في قوانين المخلوقات وتسخيرها[٦].

١()الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ١٢١/٢٠ .

٢()سورة المؤمنون: الآية /٧٨ .

٣()سورة النحل: الآية /٧٨-٧٩ .

٤()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ١٨١/٧ .

٥()ينظر: الحائري الطهراني: مقتنيات الدرر، ١٢٩/١٠ .

٦()ينظر: نهاوندي، محمد: نفحات الرحمن في تفسير القرآن، ط١، مؤسسة البعثة، قم، ١٤٢٧هـ، ٥٧٩/٥.

لابد من الاستدلال على وجود الصانع بالدلائل العقلية وأنّ التقليد ليس طريقا إلى تحصيل هذا الغرض[١]، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢]، أي فيعلمون أن مصرف هذه المسخّرات على هذه الكيفيات المختلفة والوجوه المحكمة، فاعل مختار وهو قادر بما يشاهد من إحياء الأرض وغيرها مما هو أكبر منه على بعث الموتى وغيره مما يريده، وأنّه ﷻ مع ذلك كله واحد لا شريك له يؤمن به العقلاء من الناس، يعلمون ذلك فلا يتخذون أندادا من دونه ولا يميلون عن الحق الى الباطل[٣]، ولقد خص العقل بالذكر لأنّ به يتوصّل إلى معرفة الآيات[٤].

يُلحظ من ذلك إنّ القرآن الكريم حثّ على استعمال العقل لاكتشاف وفهم المسخّرات وملاحظة قانونها الذي يسري في الكون، فمن خلال التعقل والتفكر يعرف الإنسان كيفية التسخير والتمكين من تلك المسخّرات، وبها يعرف ربه .

المطلب الثالث: الوحي

هو وسيلة لارتباط الأنبياء بعالم الغيب، فهو خاص بالذين شملتهم العناية الإلهية من الأنبياء والمعصومين، فهذا المجال أوسع نطاق، ولا يحمل الخطأ، وهو أكثر شمولية، وهو نافذ على جميع المستويات، سواء كان في مستوى العقيدة أو مستوى التكاليف والوظائف[٥].

١()ينظر: الفخر الرازي: التفسير الكبير مفاتيح الغيب، ١٥٣/٤ .

٢()سورة البقرة: الآية/ ١٦٤ .

٣()ينظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر: نظم الدرر في تناسب الآيات و السور، ٢٩٨/١ .

٤()ينظر: الكرماني، محمود بن حمزة: أسرار التكرار في القرآن، ط١، الناشر: دار الفضيلة القاهرة ، (د.ت)، ٨٠ .

٥()ينظر: السبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ١٦ .

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[2]، في هذه الآيات لفتة قرآنية ودعوة الناس إلى دراسة القوانين التي تحكم الواقع الكوني على مرّ العصور، لأخذ العبرة والدروس، فقانون التسخير في الكون لا يتغير، فهو ثابت ومستقر، فالقرآن الكريم يضع المسخرات على مرّ الزمان في موضع يستطيع الإنسان من خلالها أن يعرف الأسس التي يرتكز عليها في الحركة نحو عمارة الأرض، والقوانين التي تحكم المسخرات، فتلك المعرفة ليست ترفاً فكرياً، بل هو مسؤولية فكرية وعملية نحو المعرفة[3].

من ذلك يتبلور المفهوم القرآني في تأكيد على إنّ الكون كله له قانون وضوابط، لا يعتمد في تفسيرها على أساس الاستسلام لأوامر الله ﷻ أو على الصدفة، فالقرآن قاوم هذه النظرة الاستسلامية والنظرة العفوية، ونبه العقل الإنساني إلى إن هذا الكون له قوانين، ولكي يستطيع الإنسان أن يكون فاعلاً، ومؤثراً، لابد له من الكشف عن تلك القوانين الحاكمة للكون، والتعرف عليها، لكي يتمكّن من التحكم بها وقيادتها وتذليلها للخلافة في الأرض وعمارتها[4].

عند النظر في المسخّرات بقانونها الذي جُبلت عليه، وما يثيره ذلك القانون في الفكر الواعي من استفهام حول ماهية هذه المسخّرات، ودورها في تنظيم العالم وتوازن النظام الكوني المبثوث في الوجود كله، نجد الحقيقة الإلهية في نفي العبثية، وهناك سر كامن في العمق تفرضه الحركة هنا والسكون هناك، مما يوحي للإنسان المتأمل الذي يلاحق كل تلك الظواهر، أنّ هناك شيئاً ما وراء ذلك النسق كله، لذلك

١()سورة يوسف: الآية/١٠٩ .

٢()سورة آل عمران: الآية/١٣٧ .

٣()ينظر: فضل الله: من وحي القرآن، ٢٧٧/٦ .

٤()ينظر: الصدر: المدرسة القرآنية، ٧١-٧٢ .

فإنّ الأنسان يعمل على اكتشاف هذا القانون، وبذلك لا يكون شأنه شأن المتخبط[١].

يُستخلص من ذلك أنّ الحواس أدوات المعرفة للعقل، وأنّ العقل مصباح وليس طريقاً، فالمصباح وحده دون وحي وصراط قويم، لا يمكن أن يصل الإنسان إلى التسخير، فالعقل مصباح كاشف يُكشف بواسطته الطريق الصحيح، ويرشد الأنسان إلى السير في ذلك الطريق، وإذا لم يكن هناك وحي لطريق قويم[٢]، فلا يتمكن الإنسان من تحقيق خلافته للأرض، ولا ينفعه المصباح وحده لبلوغ هدفه.

١()ينظر: فضل الله: من وحي القرآن، ١٠٦/١٨ .

٢()ينظر: الآملي: تسنيم في تفسير القرآن، ٤٠٥/١ .

المبحث الثاني: مراتب قانون التسخير

إنَّ في قائمة التسخير، الله ﷻ أعلى المُسخِّرين بالنظام الطولي، أمّا الملائكة فهم منفذون لأوامر الله ﷻ، وكذلك بين الملائكة توجد سلسلة من المراتب [١]، ومن خلال المطالب التالية نبين مراتب التسخير:

المطلب الأول : تسخير الله ﷻ

من حيث الوجود فالله ﷻ هو الأول وهو القادر على تذليل المسخَّرات وفق إرادته بحكمة وعدل، فمن خلال آيات الخلق وتعداد النعم في القران الكريم، يُلحظ أنّ المسخِّر هو الله ﷻ فتتجلى حكمته في تذليل الموجودات لتمكين الإنسان من ذلك التذليل، ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا...﴾[٢]، فهي ساكنة مسخّرة لكم وذلولا لم يجعلها صعبة المشي فيها، سهلة للتصرف والمسير عليها ويمكنكم زراعتها[٣]، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٤]، أقام ﷻ الحياة على قاعدة ممتدة عميقة مرتبطة بالقوانين الكونية التي أودعها في نظامه، وهذا ما تثيره كلمة الحق في ما تعنيه من السرّ الكامن في داخل الأشياء، الذي يجعل لكل ظاهرة من الظواهر حكمة، في حركة الوجود وفي سرّه مما يبعد الأمور عن العبثيّة في الخلق[٥].

هناك آيات تبين مراتب قانون التسخير في القران الكريم، كقوله تعالى: ﴿الله

١()ينظر: الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم: تفسير الشهرستاني المسمى مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار، ط١، مركز البحوث والدراسات للتراث المخطوط، طهران، ١٤٢٨هـ، ٥٧/١ .

(٢)سورة الملك: الآية/ ١٥ .

٣()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٤٩٠/١٠ .

(٤)سورة يونس: الآية/ ٥ .

٥()ينظر: فضل الله، محمد حسين بن عبد الروف: من وحي القرآن، ٢٧٠/١١ .

الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ۞ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١)، جاء في بداية الآية الأولى اسم الجلالة وهو الفاعل والاسم الموصول الذي؛ وذلك للتأكيد على أن المسخِّر للكون هو الله ﷻ وحده، وأن ما في السماوات وما في الأرض مسخَّر للإنسان، بالرغم من أنَّ لفظ سخَّر جاء في صيغة الفعل الماضي(٢) لا المضارع؛ وذلك لأنّ التسخير قانون رباني تم قضاؤه، وإنّ ما نراه من تسخير الكون الدائم إلى يومنا هذا، هو من آثار القضاء الرباني السابق، فقانون تسخير الموجودات، هو قانون إلهي تم قضاؤه على كل شيء، فهو واقع بناء على ما قضي له

قال الإمام الصادق عليه السلام: (يا مفضل أول العبر والدلالة على الباري جل قدسه، تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها، على ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك وخَبِرته بعقلك، وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم مضيئة، كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شيء فيها لشأنه معدّ، والإنسان كالملك ذلك البيت، والمخوّل جميع ما فيه، وضروب النبات مهيأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه، ففي هذا دلالة واضحة على إنَّ العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملائمة، وأنّ الخالق له واحد، وهو الذي ألّفه ونظّمه بعضا إلى بعض، جل قدسه وتعالى جده وكرم وجهه ولا إله غيره تعالى عما يقول الجاحدون، وجل وعظم عما ينتحله الملحدون)(٣)، قول الإمام عليه السلام للمفضل في تهيئة العالم وتأليف اجزائه، دليل على إنَّ الله ﷻ سخَّر الكون كله للإنسان، وإنَّ الإنسان مخوّل بجميع ما فيه، من حيوان ونبات وجماد، وتم هذا التسخير بنظام وقانون محكم وبتقدير ملائم.

---

(١)سورة الجاثية: الآية/ ١٢-١٣

(٢)ينظر: الكرباسي، محمد جعفر: اعراب القران(للكرباسي)، ط١، نشر، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٢هـ ، ٣٧٤/٧ .

٣()الجعفي: المفضل بن عمر: توحيد المفضل إملاء الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام)على المفضل، ط٢، مؤسسة الوفاء، لبنان، ١٤٠٤هـ. ١١-١٢ .

إنَّ الله ﷻ هو المهيمن على كل شيء وهو القادر القاهر الخالق، والكون خلقه مسخَّراً مطيعاً ذللـه للإنسان الذي هو خليفته في الأرض، فالله ﷻ مسخِّر لذلك النسق الإلهي المنتظم في الكون، لتمكين الإنسان من عمارة الأرض وفق مبدأ الخلافة التي أرادها الله ﷻ في أرضه، من الله ﷻ كان الخلق والعطاء واللطف والرحمة إذ امتدت في حركة الوجود المنتظمة في الكون كله وفق قانون ونسق إلهي منتظم لتلك المسخَّرات بحكمة وعلم، فهو القاهر فوق كل شيء والقادر على التذليل وتسخير ما في السماوات والأرض فهو أعلى مرتبة في قانون التسخير، فالله ﷻ مسخِّر كل شيء لحكمة وإرادة في تمكين الإنسان من تلك النعم، والإنسان مسخِّر لبعض من تلك النعَم لمنفعة وحاجة له، وتسخيره لا يتم إلا بقدر ما ينكشف له من معرفة بقانون تلك المسخّرات والنظام الذي جُبلت عليه .

المطلب الثاني: تسخير الملائكة

فبعضهم يشغلون منصباً رئاسياً بإصدار الأوامر، والآخر أعوان ومساعدين، فعزرائيل مثلاً ملك الموت المفوض بقبض الأرواح وميكائيل ملك مسؤول عن الأرزاق، ولكل من هذين الملكين مساعدون وأعوان ولكل مَلَك منصب معيّن ووظيفة خاصة[١]، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[٢]، فيعلم من الآية أنّ كلّ الخلائق منهم الملائكة معترفون بهذا الترتّب والتفاضل بينهم، فطرة وضرورة[٣]، فهذه التنظيمات تعتبر قوانين تكوينية، فأمر الله ﷻ إيجاد وطاعة الملائكة تنسجم مع ذلك، إنّ الأمر الذي يصدر إلى الملائكة بفعل كذا، فمعناه إنّ الملائكة أوجدوا ليكونوا علة لمعلول معيّن، ومعنى طاعتهم هو هذه العلية والمعلولية التكوينية، وهذه التنظيمات

١()ينظر: المطهري، مرتضى: العدل الإلهي، ١٣٢ .

٢()سورة الصافات: الآية/ ١٦٤ .

٣()ينظر: الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم: تفسير الشهرستاني المسمى مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار، ط١، مركز البحوث والدراسات للتراث المخطوط، طهران، ١٤٢٨هـ، ٥٧/١ .

تعتبر قانوناً تكوينياً، فالكون يحكمه نظام ذاتي متأصل[١].

أن الملائكة أسباب ووسائط للتدبير، فالله ﷻ جعل قانون التسخير قائما على الأسباب والمسببات، فلابدّ لكل معلول من علّة يقوم بها ويزول بزوالها، وقانون العلّية هذا، إنّما هو من وضع خالق الطبيعة وموجدها، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢]، ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[٣]، وكما أن من تدبير الله ﷻ لقانون التسخير أن جعله قائما على الأسباب الطبيعية، كذلك فوّض التدبير إلى ملائكته، ولكن ليس بمعنى أنه تعالى اعتزل العالم وفوّض إليهم تدبيره على نحو الاستقلال، وإنّما بمعنى أنّه عز وجل جعلهم وسائط في التدبير، وأسبابا في الحوادث فوق المادية، كحملهم لوحيه وتبليغه إلى رسله، وتسديدهم للرسل والأنبياء، وتأييدهم للمؤمنين، وقبضهم للأرواح، وما هم مكلفون به في الآخرة من تعذيب الكافرين وتنعيم المؤمنين، وإلى غير ذلك مما فوضهم الله ﷻ فيه سواء في عالم الدنيا أم في عالم الآخرة، وهم في ذلك غير مستقلين عن الله ﷻ، بل هم خاضعون لإرادته، مستجيبون لمشيئته[٤]، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[٥]، ﴿ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٦] فما هم إلا جنود من جنوده لا يعصون أمره[٧]

إذن فقانون السببية ما هو إلاّ من وضع الله ﷻ وصنعه، كونه ﷻ أبى أن

١()ينظر: المطهري، مرتضى: العدل الإلهي، ١٣٢-١٣٥ .

٢()سورة يونس: الآية / ٥ .

٣()سورة الروم: الآية / ٤٨ .

٤()ينظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ٢/ ١٠٤-١٠٣ .

٥()سورة الأنبياء: الآية / ٢٧ .

٦()سورة التحريم: الآية / ٦ .

٧()ينظر: الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، ١٠/ ٥٠ .

تجري الأمور إلا بأسبابها، والملائكة أحد تلك الأسباب، على قول الإمام أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: ((أبى الله أن يجري الأشياء إلا بأسباب، فجعل لكل شيء سببا وجعل لكل سبب شرحا ...))[١]، جعل لكل شيء سبباً، وهو ﷻ سبب الأسباب، إذ أن جميع الأسباب منتهية إليه، عاملة بأمره، غير مستقلّة في التأثير عنه لا في عالم المادة والطبيعة ولا فيما ورائها، ولذا نجد القرآن الكريم كما يسند الحوادث إلى أسبابها أيضا يسندها إلى الله ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ...﴾[٢]، فالرياح سبب طبيعي في التلقيح لكنه سبب مجعول من الله ﷻ وإليه ينتهي[٣]، وكذا في قوله تعالى: ﴿...وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ...﴾[٤]، إذ جعل الماء سببا في إخراج الثمرات وإنّ كان هو المخرج ﷻ، وكذلك الحال فيما فوّض فيه أمر التدبير إلى الملائكة، فهو ليس بأكثر من جعلهم أسبابا ووسائط في التدبير، لذلك فإنّه ﷻ كما ينسب الأمر إليهم كذلك ينسبه إلى نفسه، ومن ذلك أنه نسب توفي الأنفس إلى ذاته المقدسة[٥] فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾[٦] ، وفي سورة أُخرى نسبه إليهم فقال: ﴿...حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا...﴾[٧]، وكل هذا مما يؤكد لنا أن الملائكة في التدبير إنّما هم علل ووسائط وأسباب وأمّا المدبّر الحقيقي فهو الله [٨]ﷻ.

إنَّ الملائكة ليس لها دخالة أو إرادة في تدبير الكون وتصريف شؤونه، وأنّ التدبير لله ﷻ ولا تدبير مستقل لغيره سبحانه، وإن كان هناك تدبير سواه إنّما يُدبر

١()الكليني، محمد ابن ابي جعفر محمد بن يعقوب: الأصول في الكافي، ط٣، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٨٨هـ، ١ / ١٨٣ .

٢()سورة الحجر: الآية / ٢٢ .

٣()ينظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ٢/ ١٠٤

٤()سورة البقرة: الآية / ٢٢ .

٥()ينظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ٢/ ١٠٣.

٦()سورة الزمر: الآية / ٤٢ .

٧()سورة الانعام: الآية / ٦١ .

٨()ينظر: مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤/ ٢٠ .

بأمره سبحانه، قال تعالى: ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾[١]، الملائكة مدبرات بأمره وإرادته فلا ينافي ذلك احصار التدبير الاستقلالي في الله ﷻ[٢].

إنّ تسخير الملائكة إنّما هو من تسخير الله ﷻ لهم وإدارته لشؤونهم، فكما أن من تدبير الله ﷻ للإنسان وإدارته لشؤونه، أن أعطاه التفضيل والتكريم على كثير ممن خلق تفضيلا، وجعله خليفته في أرضه، ووجّه إليه الأمر والنهي، وكلفه بتكاليف عبادية، وجعل له حقوقا وفرض عليه واجبات، وسخّر له ما في السماوات وما في الأرض، كذلك من تدبير الله ﷻ لملائكته، أن أوكل إليهم بعض المهام، وفوّض إليهم التسخير، ليكون من تدبيره لهم وإدارته شؤونهم تفويض التسخير إليهم.

المطلب الثالث : تسخير الإنسان

الإنسان هو الثمرة لوجود الخلائق[٣]، وهو خليفة الله ﷻ في أرضه قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾[٤]، فالخلافة هي إدارة الأرض وإعمارها وفق الإرادة والنظام الذي اختاره ﷻ ، ويظهر الدور الكبير الذي اعده الله ﷻ للإنسان بما مكنه من قوة المعرفة، والطاقات التي أودعها فيه دون إي مخلوق آخر، من خلال تلك القوى والطاقات يستطيع الإنسان أن ينتج علماً بتسخير القوى الطبيعية، فهذا ما يميز الإنسان عن سائر الموجودات بعلمه وعقله وإرادته[٥]، فمن نعم اللهﷻ تسخير الكون للإنسان من الذرة إلى المجرة، وتجاوز ذكر التسخير في القران إلى ٢٧موضعاً[٦].

١()سورة النازعات: الآية / ٥ .

٢()ينظر: السبحاني، جعفر: التوحيد والشرك في القرآن الكريم، ط٢، مؤسسة الإمام الصادق، قم،١٤٢٦هـ، ٩ .

(٣)ينظر: صدر المتألهين: تفسير القران الكريم، ٦٥/٨.

(٤)سورة البقرة: الآية/ ٣٠.

(٥)ينظر: مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٢٢٨/١-٢٣٠.

(٦)ينظر: عبدالباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القارن الكريم، (د.ط) مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٤هـ، مادة س خ ر ، ٣٤٧ .

كرم الله ﷻ هذا الموجود البشري على الكثير من خلقه، بتسخير القوى الكونية له في الأرض، والحمل في البر والبحر، وكذلك مكّنه من الإفادة من تلك القوى الكونية كالنجوم والكواكب والأفلاك، وفق قانون التسخير الذي أقامه الله ﷻ في الكون، ومنح الإنسان الهيئة والاستعدادات الموافقة لطبيعته، وإنّ ذلك القانون الحاكم لتلك المسخَّرات، لو لم يكن موافقاً للطبيعة البشرية لما قامت الحياة الإنسانية(١).

إنّ الله ﷻ ذلّل جميع المخلوقات لقانون يحكمها ويضبط موقفها بين الموجودات، حيث يتمكّن الإنسان من إخضاع تلك المسخَّرات والانتفاع بها، إذا ما هو عرف القوانين الكونية الممسكة بها(٢)، فإن الإنسان من وجهة نظر القرآن له من العظمة التي بموجبها سخَّر الله ﷻ له جميع الموجودات .

إنّ في تعداد النعم يتبيّن الذي خلق وسخَّر كل شيء، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم...﴾(٣)، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤)، أي خلفاء لله ﷻ في الأرض تتصرّفون فيها كتصرّف الملّاك في أملاكهم، وتنتفعون بها وبما خلق فيها وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ في القوى الجسمانيّة، والعقل والعلم، والشّرف والمال، وغيرها من الكمالات الوجودية والسّعادات الدّنيويّة والآخرويّة(٥).

من تلك المسخَّرات ما يكون زمام أمورها بيده، كالدواب والسفن في البحار وغيرها، ومنها ما يتحرك ضمن منافعه، كالشمس والقمر والنجوم، وهذه العظمة

---

(١)ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ٢٢٤١/٤.

(٢)ينظر: الخطيب، عبدالكريم: التفسير القرآني للقران، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ١٤٢٤هـ، ١٨٥/٧.

(٣)سورة النحل: الآية /١٠

(٤)سورة الأنعام: الآية / ١٦٥ .

٥()ينظر: نهاوندي، محمد: نفحات الرحمن في تفسير القرآن، ٥٧٠/٢ .

جعلته اشرف الموجودات[١]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[٢]، لم تقتصر أفضال اللهﷻ على الإنسان بالعقل والإرادة واستواء الخلقة فقط، و إنما فضله على جميع خلقه بالسلطة على جميع الكائنات الأرضية، فهو الكائن الوحيد المتكون من قوى المادية والمعنوية، روحية وجسمية، وله استعدادات غير محدودة للتقدم والتكامل[٣]، وتسخير الموجودات لمنفعته.

كرّم الله ﷻ الإنسان بالتسليط على غيره من الخلق وتسخير سائر الخلق له[٤]، فكل ما في الوجود منه ﷻ واليه، وهو منشئه ومدبره ومسخِّره، والإنسان مزود من الله ﷻ بالاستعدادات لمعرفة طرف من القوانين الكونية، يسخِّر بها قوى هذا الكون، ويسخِّر طاقات تفوق طاقته بما لا يقاس، وكل ذلك بفضل من الله ﷻ عليه [٥].

من جانب آخر نجد في قوله تعالى: ﴿... نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ...﴾[٦]، أي ليستخدم بعضكم بعضاً، باختلاف مواهبهم وإمكانياتهم من الذكاء والقوة وموهبة وإبداع، فيسخِّر الغني بأمواله للفقير، وينتفع الغني بعمل الفقير، ويسخَّر العامل لمديره في العمل فينتفع أحدهما من الآخر، وإنّ في ذلك التسخير مصلحة للعباد فيما بينهم بإحواجهم لبعضهم بعضاً، فلولا هذا الاختلاف في الدرجات لما تمكّن المهندس من إكمال مشروعه في البناء من دون تسخير العمّال في ذلك المشروع، فبهذا التفاوت

---

(١)ينظر: مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٥١٧/٧.

(٢)سورة الإسراء : الآية/ ٧٠.

(٣)ينظر: مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٦٥/٩-٦٦.

(٤)ينظر: الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري)، ط١، دار المعرفة ، بيروت، ١٤١٢ هـ،٨٦/١٥.

(٥)ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ٣٢٢٧/٥.

(٦)سورة الزخرف : الآية/ ٣٢.

والحاجة إلى تسخير بعضنا البعض ينتظم قوام العالم وتتوازن الحياة [١]، وإذا لم يصر أحد منهم مسخَّراً للآخر حينها يقضي خراب العالم وفساد نظام الدنيا[٢].

هنا يتضح أنّ الإنسان أيضا يكون مسخِّراً لأخيه الإنسان لمنفعة معنوية أو مادية، وفق مبدأ الاستخلاف فهو خليفة اللهﷻ في الأرض ووكيله، وبفضل من اللهﷻ تمكّن الإنسان من تسخير أخاه الإنسان لعمارة الأرض، فهي تتطلب النهوض بالحياة من خلال فهم قانون التسخير والعمل به وفق العدل والإحسان بين البشر، وكلما تجسّدت العدالة بعلاقات البشر فيما بينهم، بالابتعاد عن أي لون من ألوان الظلم والاستغلال، كلما ازدهرت علاقة الطبيعة مع البشر، ونزلت الخيرات وأعطت المخبوء من ثرواتها، وتفجرت الأرض بالنعمة والرخاء[٣].

إنّ الكون هو أول ما خُلِق ثم الإنسان[٤]، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾[٥]، فالأرض موجودة قبل وجود الإنسان، والكون هو كل ما في الوجود من الممكنات، فيشكل بما فيه حتى الإنسان، لوناً من الوان المسخّرات.

كل مخلوق مُسخَّر لوظيفة منحها اللهﷻ له بنظام دقيق ومتناسق، قال تعالى: ﴿الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ۞ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ۞ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ

(١)ينظر: الطبراني، سليمان بن أحمد: التفسير الكبير(تفسير القران العظيم)، ٤٧٠/٥، الطبرسي، الفضل بن حسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٢٧/٩.

(٢)ينظر: الفخر الرازي: التفسير الكبير مفاتيح الغيب، ٣٦٠/٢٧.

(٣)ينظر: الصدر: المدرسة القرآنية، ١٧٤.

٤()ينظر: الحائري الطهراني: مقتنيات الدرر، ١٠٨/١ .

٥()سورة البقرة: الآية/ ٣٠ .

نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1] أول النعم المسخَّرة للإنسان هي السماوات والأرض، وبعدها جاء ما بينها من مسخَّرات، فمنها متصل بالأرض كالثمرات التي تخرج منها، والجبال والبحار والأنهار ...، ومنها ما يتعلق بالسماء كالشمس والقمر والرياح والسحاب...[2]، ففي هذه الآية شملت المسخَّرات كلها في السماء وفي الأرض، وهما جوهران ينتج عنهما ظاهرتي الليل والنهار[3] التي هي من نعم الله ﷻ التي لا تحصى.

يُلحظ من ذلك أنَّ الموجودات في الكون ليست فقط بذاتها مسخَّرة، وإنّما الحالات العرضية لها هي أيضاً مسخَّرة مهيأة منقادة منسقة بنظام دقيق يحكمها وينظمها خالقها ﷻ لتمكين الإنسان من هذا التسخير، فهي مخلوقة لحكمة أرادها ﷻ ولم تكن عبثاً، فهذا الكون الثابت يسير على ناموس ووفق قانون لا يضطرب ولا تختلف دورته، ولا يصطدم بعضه بعضاً، ولا يسير وفق المصادفة العمياء ولا تقلب الهوى، وإنما يمضي بنسق إلهي منتظم محكم مقدر تقديراَ.

إنّ أجزاء العالم المشهود بكل موجوداته تجري على نظام وقانون واحد يتحكم فيها ﷻ ويربط بعضها ببعض، ويربط الجميع بالإنسان فينتفع بها فالكل مسخَّر له[4] وكيف لا وهو خليفة الله ﷻ في الأرض وقلبه مستودع نوره .

إنّ هذا القانون الذي جُبلت عليه الموجودات، كان ولايزال ثابتاً ومستمراً، مما جعل للإنسان المساحة الكافية لاكتشافه وتسخير ما يمكن الانتفاع به، فبالمرتبة الأولى هو الله ﷻ الذي أوجد الكون من العدم وأفاض عليه بالتسخير وهذا التسخير هو قانون كل شيء بقدر ما أراده الله ﷻ منه في مسرح الوجود، وبالمرتبة الثانية الملائكة جعلها الله ﷻ، مدبره بتأييد منه وبأمره ﷻ وفي المرتبة الثالثة - الإنسان - وهو المسخّر

---

(١) سورة إبراهيم: الآية/ ٣٢-٣٤.

(٢)ينظر: الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي، ٧٥٤١/١٢.

(٣)ينظر: المصدر السابق، ٧٥٤٧/١٢، مكارم الشيرازي: الأمثل، ٥١٦/٧.

(٤)ينظر: الطباطبائي،: الميزان في تفسير القرآن، ١٦٢/١٨.

للانتفاع من المخلوقات التي جعلها الله ﷻ مسخّرة مذلل مطيعة، بقدر قدرة الإنسان على اكتشاف القانون الذي أفاضه الله ﷻ على الوجود.

المبحث الثالث : خصائص قانون التسخير الربانيّة

إنّ معرفتنا بالقانون الذي تسري عليه المسخّرات يجعلنا اكثر قوة في تذليلها، واقدر على قيادتها والإفادة منها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة خصائص هذا القانون الذي يتحكم في هذه المسخّرات وفق الرؤية القرآنية.

ويمكن بيان تلك الخصائص على أساس الطابع العام لها فهناك خصائص ذات طابع رباني، وهذا التقسيم جاء على نهج السيد الصدر(قدس سره) في تقسيمه للسنن التأريخية[١]، وفيه مطالب:

المطلب الأول: ربّانيّة التسخير

الربانية طابع يميز خصائص قانون التسخير، فتعد من اعظم الخصائص وأجلها، لما لها من صلة بالله ﷻ لفظاً ومعنىً فهي تدبير إلهي وقرار رباني[٢]، دلّت النصوص القرآنية على ربّانية قانون التسخير من خلال قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٣]، فقد أحاط الله ﷻ بجميع الكائنات في الوجود[٤]، والكلمة هي المنهج الذي يشمل كل الموجودات[٥].

بمعنى أنّ كل قانون من قوانين الوجود هو كلمة الله ﷻ وهو قرار رباني، لكي يستشعر الإنسان حينما يريد الإفادة من قانون التسخير في الساحات الكونية، أنّها ليست منعزلة عن خالقها؛ لأنّ الله ﷻ يمارس قدرته من خلال تلك القوانين، وهي إرادته وحكمته وتدبيره في الكون[٦].

١()ينظر: الصدر: المدرسة القرآنية، ص٧٥.

(٢)ينظر: الصدر: المدرسة القرآنية، ص٧١.

٣()سورة الأنعام: الآية /١١٥ .

٤()ينظر: مكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٢٣٦/٩ .

٥()ينظر: الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي، ٣٨٨٨/٧ .

٦()ينظر: الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنية، ٧٨ـ ٧٩ .

إنّ الله ﷻ واضع قوانين المسخّرات لعمران الكون، وراسم أنظمة الحياة لسعادة الانسان و له قانون ثابت في كل ما خلق وذرء، وفي ما أنزله من عنده، وأمر رسله أن تبلغه لعباده:﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[١]، لذا فإنّ الإنسان وهو سائر في الحياة لا بد له من نظام وقانون ينظم غرائزه وحاجاته، ويستحيل أن يتأتى هذا النظام عادلاً كاملاً مستقيماً، الا من قِبل الخالق المربي؛ لعجز الإنسان المحدود في جميع تصرفاته ومواهبه، وعدم احاطته بحقائق الاشياء، فإنّ فهمه عرضة للتفاوت والاختلاف والتناقض، فكان لزاماً هذا القانون أن يكون من قِبل خالق الإنسان الذي هو أدرى بمصالحه ومفاسده، وكان واجباً على هذا الانسان المؤمن بخالقه وقانونه، أن يطبق هذا القانون لكونه قانون الله ﷻ[٢].

قال تعالى : ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[٣]، في هذه الآية جواب النبي موسى عليه السلام، لسؤال فرعون من ربكما؟ فقال موسى: ربنا، أي من الربوبية وهو المالك والمدبر[٤]، المتحمل أمر تربية الشيء، والمتكفل بمصلحة الموجودات[٥]، وفي هذه الآية إثبات أمرين :

الأول : إن الله ﷻ وهب لكل الموجودات ما يحتاجه، فنجد المخلوقات منسجمة انسجاماً تاماً مع البيئة المحيطة بها، فقدرة الطير على الطيران خلافاً لقانون الجاذبية، وقدرة الأسماك على البقاء في الماء، والزواحف والحشرات، كل منها قدرة تامة في الانسجام مع محيطها الذي تعيش فيه، وكل ما تحتاجه وتريده لأجل البقاء فهو موجود تحت تصرفها، من بناء هيكلها الخاص، ووزنها وحواسها، وكل ما يعينها في تقبل العيش في البيئة المحيطة بها، فقانون التسخير ينكشف للذي يتفكر في خلق الله ﷻ وعند تأمله لهذا الكون الفسيح .

١()سورة الأحزاب: الآية/٦٢ .

٢()ينظر: القبيسي العاملي، محمد حسن: تفسير البيان الصافي لكلام الله الوافي، ١٠٣/٥ .

(٣) سورة طه: الآية٥٠.

(٤)ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ٣٩٩/١.

(٥)ينظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ٣٣٦.

الثاني : الهداية وإرشاد الموجودات، وتلك الهداية تأتي بالدرجة الثانية بعد الإيجاد، وهي معرفة أسباب الحياة، وكيفية الإفادة منها، وطريقة استخدام أساليب البقاء، وتسخير كل ما هو مفيد وفق نظام متقن(١)، فكل مخلوق معه الاهتداء الفطري الطبيعي للوظيفة التي خلق لها يكون أكمل، ويلخص كمالات الخالق المدبر لهذا الوجود في إيجاد وظيفة لكل شيء(٢)، لتمكين الإنسان من المخلوقات المسخرة له .

من هاتين المسألتين، اتضح إنَّ من أساسيات هذا العالم، تأمين الحاجات ثم الإفادة من الطاقات والقوى، فقانون التسخير من رب الكون المتكفل بمخلوقاته، هو الذي أودعه في هذا الوجود وحكّمه فيه، واخضع له الموجودات كلها، فلا يوجد قانون ينظم حركة الكون أو عادة جارية في الخلق إلا وهي رهن بأمره(٣).

فالله ﷻ يظهر لنا قدرته بوضع تلك القوانين في الكون وتسييرها، فهي إرادة الله وحكمته وتدبيره في الكون، أنّ لقانون التسخير خصائص ربانية في القرآن الكريم، وهذا القانون لايخرج عن الربانية، فما من قانون يسري في الوجود إلا وهو رهن بأمر الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٤).

فهذا خطاب من الله ﷻ لجميع الخلق وإعلام لهم بأن ربهم الذي أحدثهم وأنشأهم هو الله ﷻ الذي خلق بمعنى اخترع، وأنّ تدبير الحوادث على إنشاء شيء بعد شيء على ترتيب أدلُّ على كون فاعله عالماً قديراً يصرّف الكون على اختياره ويجريه على مشيئته(٥).

---

(١)ينظر: مكارم شيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،١٦/١٠.

(٢)ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ٢٣٣٨/٤.

(٣)ينظر الكفيشي،عامر:حركة التاريخ في القران الكريم، ط١،دار الهادي، بيروت،٢٠٠٣م، ٣١.

٤()سورة الأعراف: الآية / ٥٤ .

٥()ينظر: الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، ٤٢١/٤-٤٢٢ .

المطلب الثاني: قانون التسخير مظهر من مظاهر التوحيد والقدرة الإلهيّة

إنّ خصائص قانون التسخير ظاهرة لكل من اعمل عقله بالتأمل الدقيق في القران الكريم، فيجد هذه الخصائص منصوص عليها، وواضحة مبينة أتم بيان، ويجد اليقين والتصديق والثقة بالمنهج مالا يدخله النقص أو يشوبه الشك، فمن خلال قانون التسخير نعرف التوحيد والقدرة الإلهية في النصوص القرآنيّة:

أولاً: قانون التسخير مظهر من مظاهر التوحيد

من الملفت للنظر إنّ القرآن الكريم يستخدم أسلوبه الخاص في بيان تلك الخصائص، أي إنّه يضفي عليها الصبغة التوحيدية ويربطها بالله ﷻ ويراعي هذا الواقع، وهو أنّ الخالق ﷻ هو المؤثر الحقيقي في الوجود، إذ بيّن المسخّرات والقوانين المسيطرة عليها، ويسندها جميعاً الى إرادة الله ﷻ وإذنه وتقديره وقضاءه، وذلك لكي يمسك بأيدي الناس ويقودهم الى التوحيد الأفعالي[١].

فعندما يتحدث القرآن الكريم عن خلق السماوات والأرض ونشأتهما ويبين قدرته في صنعهما في الآية السابقة وإنّه الذي أوجد الموجودات من العدم وسخّرها للإنسان، كذلك يبين في موضع آخر بأنّ تلك المسخّرات تزول وتتلاشى بقدرته، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٢] المعنى ان الله ﷻ يطوي الكواكب يوم القيامة، على ضخامتها وكثرتها، كما تطوي الصحيفة ما كتب فيها بحيث يصير كل كوكب أشبه بالكلمة أو الحرف في الصحيفة، شبه سبحانه النشأة الثانية بالنشأة الأولى، وأنّه كما تحققت هذه فستحقق تلك لا محاله وفاء لوعده تعالى، وما ذاك على الله ﷻ بعزيز، فإنّ الذي خلق الكون قادر على أن يعيده بعد تلاشيه وتفرق أجزائه[٣].

نخلص من ذلك أنّ الله ﷻ الواحد الأحد هو الذي وضع القوانين للمسخّرات في

١()ينظر: اليزدي، محمد تقي مصباح: معارف القرآن، ط٢، تعريب: محمد عبدالمنعم الخاقاني، دار الإسلامي، لبنان، ١٤٠٨هـ، ٢٦٧/٤ .

٢()سورة الأنبياء: الآية / ١٠٤ .

٣()ينظر: مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف، ٣٠٢/٥ .

الكون وسيّرها، فهي إرادته وحكمته وتدبيره في الكون، وقانون التسخير مظهر من مظاهر التوحيد ودليل على وحدانية الله ﷻ فلا يخرج من سلطانه شيء.

ثانياً: قانون التسخير نابع من القدرة الإلهية

إذا كان الفعل مُتّسماً بالإحكام والإتقان والجمال فإنّه يدل على علم الفاعل وقدرته على إيجاد مثل ذلك الصنع(١)، قال تعالى:﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾(٢)، بمعنى إنّ تصريف الأمور على الحكمة والقدرة بالتدبير في خلق السموات والأرض هو استدلال على أنّ صانعهما قادر لذاته عالم(٣).

من خلال القدرة الإلهية تظهر أفعال الله ﷻ في خلقه، ويتضح علمه وحكمته وعزته، وكل صفة من صفاته القدسية، ومن خلال قانون التسخير يبث الله ﷻ قدرته الإلهية في الكون، فهذا القانون هو تعبير وتجسيد وتحقيق لقدرته ﷻ، فمن يتأمل في آيات الله ﷻ يجد عظمة الخالق ودلائل القدرة الإلهية في إنشاء هذ الكون.

الله ﷻ ابدع في خلق هذا الكون، واحكم صنع كل شيء وفق قانون مبرمج ودقيق للغاية يدل على قدرة صانع مبدع في صنعه، وسخّر كل ما في الكون للإنسان لكي يتفكر في قدرة خالقه الجليلة، حيث يعود بالنفع له في كمال إيمانه، فيزداد حب العبد لربه وخضوعه وتسليمه لأمر خالقه، والقدرة من الصفات الكمالية(٤)، لله ﷻ وبما إنَّه واجب الوجود منزه عن القبح، فإنَّه يفعل النظام الأتم فهو الحكيم المطلق، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٥).

١()ينظر: السبحاني، جعفر: محاضرات في الإلهيات، ١٠٦ .

٢()سورة الطلاق: الآية/١٢ .

٣()ينظر: الجزائري، نعمة الله بن عبد الله: عقود المرجان في تفسير القرآن، ط١، تح: مؤسسة الضحى الثقافية، الناشر: نور وحي، قم، ١٤٣٠هـ، ٥/ ١٥٦ .

٤()ينظر: السبحاني، جعفر: محاضرات في الإلهيات، ١٠٥ .

٥()سورة الاحقاف: الآية/٣٣ .

هذا الكون العجيب الذي دلّ على قدرة الخالق وعظمته يدل أيضا وبطريق أولى على أنَّه تعالى قادر على إحياء الموتى؛ لأنّ السبب الموجب للأمرين واحد، وهو قدرة الذي إذا قال للشيء كن فيكون[١]،فإنّ خلق السماوات والأرض مع موجوداتها المختلفة المتنوعة علامة قدرته تعالى على كلّ شيء؛ لأنّ كل ما يقع في الكون مخلوق لله ﷻ في هذا العالم[٢].

المطلب الثالث: قانون التسخير خاضع للحاكميّة ولا يخرج عن المشيئة الإلهية

ويتبيّن ذلك من خلال التالي:

أولاً: قانون التسخير خاضع للحاكمية

الحكومة تعني السلطة والحاكم هو صاحب القدرة والسلطة الذي يسعى الى إحلال القانون وسيادته، وإذ ثبتت الخالقيّة والربوبيّة لله ﷻ فإنّ البرهان العقلي يثبت أنّ الله ﷻ هو الوحيد الذي يحق له أن يتّصف بالحاكميّة على المسخّرات[٣]، قال تعالى:﴿...إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٤]، الله ﷻ القاهر الذي لا يقهره شيء، الغالب الذي لا يغلبه شيء، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فليس الحكم مطلقا إلا لله ﷻ كل الأسباب ظاهرية، إنّما تؤثر إذا أراد الله لها أن تؤثر[٥].

قانون التسخير من الله ﷻ فلا يفلت من النسق الإلهي شيء، ولا يحابي أحد، فكل كائن هو محكوم بقانون لا يخرج عنه، وإنّ وعي الإنسان بقانون التسخير وقواعد حركته يجعله قادراً على تسخير كل شيء في الاتجاه الذي يريده، فالكون كله مسخّر للإنسان من الخالق ﷻ، وكل المخلوقات مصنوعة لتؤدي دورها المقسوم لها في

١()ينظر: مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف، ٧/ ٥٧- ٥٨ .

٢()ينظر: مكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،٣٠٢/١٦ .

٣()ينظر: خسروبناه، عبدالحسين: الكلام الإسلامي المعاصر، ط١، تر: محمد حسين الواسطي، دار الكفيل، ١٤٣٨هـ، ١٤٧/١ .

٤()سورة يوسف: الآية / ٦٧ .

٥()ينظر: ينظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ٢١٩/١١ .

رواية الوجود، بتنظيم دقيق محكم، فتمتلك كل الموجودات في نظام الخلق قابليات واستعدادات وإمكانيات معينة، تؤهلها لدورها تمام التأهيل(١).

ذلك الانسجام الدقيق الناتج عن قانون التسخير المبثوث في الكون على جميع المستويات، يدل على وجود منظّم لهذا الكون حكيماً، له القدرة على إيجاد هذا التناسق بين كافة أجزاء الموجودات في الكون وتسخيرها للإنسان، وإنّ الكون الذي نعيش فيه لا يتقوّم إلا على منظومةٍ متناسقةٍ منسجمةٍ من القوانين الثابتة، فمن البديهي أنّ النظم لا يدل على وجود الناظم فحسب، وإنّما يدل على أنّه الحاكم والمدبر لشؤون الكون مالم يكن واحداً لانفرد كل إله بقانونه الخاص، وسعى لإدارة المنظومة الكونية، وإثر ذلك تتزعزع القوانين لتعارضها وتداخلها فيما بينها ومن ثم يختلّ قانون المسخّرات في الكون(٢).

مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(٣)، ففي الآية دلالة واضحة على أنّ كل ما في الوجود، إنّما هو من إيجاد إله قادر عليم حكيم وتدبيره بحسب حكمته وإرادته ورحمته، ودلالة جليّة على أنّه وحده لا شريك له في الحاكمية، وهذا الخلق العجيب والتدبير المنتظم ولو كان معه إله لاختلّ هذا النظام وفسدت المخلوقات(٤).

ثانياً: قانون التسخير لا يخرج عن المشيئة الإلهيّة

إظهار القدرة الإلهية ترتبط بالمشيئة الإلهية، فالله ﷻ يُظهر قدرته من خلال قانون التسخير؛ لأنّه مشيئته وإرادته التي تمثل تدبيره الحكيم في الكون، فقانون التسخير كلمه من الله ﷻ وقرار رباني حكيم، والكون - أي كل ما سوى الله ﷻ - مخلوق له

(١)ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ٢٨٠٨/٥.

(٢)ينظر: قراملكي، محمد حسن قدردان : أجوبة الشبهات الكلامية (التوحيد)، ط١، تر: اسعد مندي الكعبي، مطبعة الكفيل، العراق، ١٤٣٧هـ ، ٣٨٤/١.

٣()سورة الأنبياء: الآية/٢٢ .

٤()ينظر: البلاغي، محمد جواد: آلاء الرحمن في تفسير القرآن، ط١، تح: مؤسسة البعثة شعبة التحقيقات الإسلامية، الناشر: الوجداني ، قم، (د.ت)، ١٤٤/١.

ﷻ، وليس واقع الكون هذا سوى التعلق والربط بالله ﷻ، وليست المسخّرات في غنى عن الحق ﷻ ولا لحظة واحدة، أي إنَّ الكون خلق بإرادة الله ﷻ ومشيئته[١].

الكون منذ خلقه وحتى نهاية وجوده قد أوجده اللهﷻ بإرادته قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ۞ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[٢]، فالآية تدل على أنه ﷻ جعل بين الأشياء جميعها ارتباطات واتصالات له أن يبلغ إلى كل ما يريد من أي وجه شاء، وليس هذا نفيا للعلية والسببية بين المسخّرات، بل إثبات أنها بيد الله ﷻ يحولها كيف شاء وأراد، ففي الوجود عِلّيه وارتباط حقيقي بين كل موجود من المسخّرات المنتظمة[٣]، غير أنها ليست على ما نجده بين ظواهر الموجودات بحسب العادة أي إنّ هناك قانون خاص ونظام معيّن لعملية الخلق، وإرادة اللهﷻوجود الأشياء، هي عين إرادته وجود قانون تلك الأشياء[٤].

المطلب الرابع:قانون التسخير مظهرللحكمة والعدل الإلهي في نفي العبثية

أولاً: قانون التسخير مظهر من مظاهر الحكمة والعدل الإلهي

العدل والحكمة صفتان من صفات اللهﷻ متقاربتان من جهة الإشكالات والشبهات الواردة عليهما[٥]، ولبيان تلك الخصيصة جمعت بين العدل والحكمة في الملازمة مع قانون التسخير فمن العدل إيجاد المسخّرات من العدم وتسخيرها للإنسان ومن الحكمة تمكين الإنسان من ذلك التسخير، على النحو التالي:

المقصود بالعدل هنا بمعنى التناسب، وهو من لوازم الحكمة والعلم الإلهي فهو سبحانه بمقتضى حكمته العامة وعلمه الشامل يعلم إنّ لبناء أي شيء مقادير معينة من

١()ينظر : السبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ع)، ٢٣ .

٢()سورة القمر: الآية/٤٩- ٥٠ .

٣()ينظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن ٧٨/١ .

٤()ينظر: المطهري، مرتضى: العدل الإلهي، (د.ط)، تر: محمد عبدالمنعم الخاقاني، (د.ت)،١٣١ .

٥()ينظر: المطهري، مرتضى: العدل الإلهي، ٨١ .

العناصر، فهو مُرَكِّب تلك العناصر لإشادة ذلك البناء[١].

أمّا الحكمة هي أفضل علم بالمعلولات، واحكم فعل في المصنوعات من المسخّرات، والله ﷻ يعلم من ذاته كل شيء من الأشياء بعلله وأسبابه، ويفعل النظام الأتم لغاية حقيقية يلزمه، فهو بهذا المعنى حكيم في علمه، محكم في صنعه وفعله، فهو الحكيم المطلق[٢].

والمقصود من كون اللهﷻ عادلاً، هو أن لا يهمل استحقاق أي موجود فيعطي كل شيء ما يستحق، أمّا الحكمة فالمقصود منها كون القانون الذي أوجده اللهﷻ هو أحسن وأصلح قانون أي إنّه أبدع أفضل نظام ممكن، ولازم الحكمة والعدل الإلهي هو أن تكون للمُسخّرات معنى وغاية[٣].

قانون التسخير يتسم بالعدل والحكمة؛ لأنّه فعل اللهﷻ وفعله صفته الدائمة، وهي من أسماءه الحسنى، فكلما تحقق قانون من قوانين التسخير، نعلم يقيناً أنّ في ذلك القانون حكمة بالغة وعادلة، إن العدل والحكمة – بوصفها للفعل كونه محكم – متلازمان (فإن لازم إتقان الفعل وإحكامه كونه واقعاً في موضعه اللائق به، لازم إتقان الفعل وإحكامه في موضعه المناسب كونه محكماً ومتقناً)[٤].

ثانيّاً: قانون التسخير يقوم على القصدية ونفي العبثية

لكون قانون التسخير رباني، فإنه لابد أن يكون هادفاً ينتهي إلى غاية وبخطوات مدركة، ليس مجرد حركه عبثية، فهو نظام قائم على القصدية، فيوماً بعد يوم ينكشف للعلم البشري شيء من تقدير الله ﷻ العجيب في الكون الفسيح وتدبيره الدقيق لهذا الكون[٥]، فالتناسب المقصود بين المسخّرات من حيث الكميات والكيفيات

١()ينظر: المصدر السابق، ٧١ .

٢()الشيرازي، صدر الدين محمد: لحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٩٨١م، ٣٦٩/٨ .

٣()ينظر: المطهري، مرتضى: العدل الإلهي، ٨١ .

(٤)ينظر: السبحاني: محاضرات في الإلهيات، ١٦٠.

(٥)ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ٢٥٥٠/٥.

والغايات ما هو إلا تدبير الخالق[١].

إنَّ القطرة من الماء التي نراها تحت المجهر وما بها من كائنات، وإنّ تلك النجوم التي نشاهدها في المنظار المكبر في السماء، لا يسع الانسان إلاّ أن يُمجد ذلك النظام الرائع وتلك الدقة البالغة، والقوانين التي تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه، ولولا ثقة الإنسان في أنَّ هناك قوانين يمكن كشفها وتحديدها، لما اضاع الناس اعمارهم بحثاً عنها، فبدون هذا الاعتقاد وتلك الثقة في قانون المسخّرات في الكون، يكون البحث عبثاً ليس وراءه طائل، ولو أنَّ كلما أُجريت تجربة اعطت نتيجة مخالفة لسابقتها، بسبب توقفها على المصادفة او عدم وجود قوانين مسيطرة، فأي تقدم كان من الممكن أن يحققه الإنسان لابد أن يكون وراء كل تلك القوانين خالق اعلى، فليس مما يقبله العقل أن يكون هناك نظام او قوانين من غير ان يكون وراءها مُدبّر ومُنظّم ومُبدع، وكلما وصل الانسان الى قانون جديد فإنّه يثبت إنّ الله ﷻ هو خالق وليس الانسان الا مستكشفا وان هذا الوجود قائم على قوانين لا تخضع للمصادفة والعشوائية[٢].

ذكر الله ﷻ مثالا على عظمته بوجود الحياة على الأرض، في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[٣] وذكر في هذه الآية ثلاثة أمثلة سماوية، فأنّه ﷻ أخرج الصبح من الليل، وهو النهار الذي يسعى فيه الإنسان لرزقه وتدبير شؤونه، وأنّه ﷻ أوجد الليل الذي يسكن فيه الإنسان، ويستريح من العمل بالنهار، وأنّه ﷻ أوجد الشمس والقمر بمقدار مخصوص من السرعة والبطء بحيث يكون للأرض حركتان: حركة تتم في ٢٤ ساعة، وعليها مدار حساب الأيام، وحركة تتم في سنة، وبها توجد الفصول الأربعة، وعليها مدار حساب السنة[٤]، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ

---

(١)ينظر: المصدر السابق ، ٣٠/٢

٢()ينظر:موريسون، كريسي:الله يتجلى في عصر العلم، ط١، دار القارئ، لبنان،١٤٣٧هـ،٢٣١ .

٣()سورة الأنعام: الآية /٩٦ .

٤()ينظر: مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف، ٢٣٣/٣ .

لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(١)، لا مجال للعبثية في عالم خلق الله ﷻ الذي اتقن كل شيء(٢)، فإنّ الله ﷻ خالق السموات والأرض، وإليه تنتهي الأسباب بكاملها، وأنّه لا شيء من أشياء الكون قد وجد صدفة وجزافا، وإنّما صدر عن عليم حكيم أعطى كل شيء خلقه، وقدره تقديرا(٣).

النجوم ما عدا الشمس والقمر من النيرات، كما يدل عليه سياق الكلام، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٤)، ففي القرآن الكريم والعلم الحديث، النجوم من أهم علامات يهتدي بها الملاح في سفينته، والراكب في سيارته، والمرتحل على دابته، وكم قوافل في البحر سارت على خريطة السماء ومواقع النجوم عند ما تعطلت البوصلة(٥).

واذ لم يكن لها نظام ثابت وقانون تسري عليه تلك المسخّرات، فهل كان من الممكن أن يثق الانسان بها ويهتدي بهديها في خضم البحار، وفي متاهات الطرق الجوية التي تتبعها الطائرات؟ قد لا يسلم بعض الناس بوجود الله ﷻ وبقدرته، ومع ذلك فإنَّه يسلمون بأنَّ هذه المسخّرات تخضع لقوانين خاصة، وتتبع قانوناً معيناً، وإنّها ليست حره تتخبط في السماء كيف تشاء بعشوائية، ولا يمكن أن يتصور أن الكون تم بمحض الصدفة(٦)

فالمطر مصدر الماء العذب، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ

١()سورة يونس: الآية / ٥ .

٢()ينظر: السبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ع)، ٢٨ .

٣()ينظر: مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف، ٢٣٣/٣ .

٤()سورة الأنعام: الآية /٩٧ .

٥()ينظر: مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف، ٢٣٤/٣ .

٦()ينظر: موريسون، كريسي: الله يتجلى في عصر العلم، ٢٣٠ .

وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

أسند الله ﷻ انزال الماء إليه لأنّه مسبب الأسباب، منه تبتدئ، وإليه تنتهي مهما امتدت حلقاتها فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً ضمير منه يعود إلى النبات، والمراد بالخضر الغض والطراوة، أي تتشعب من النبات أغصان غضة طرية، أي اعتبروا كيف يخرج الثمر أول ما يخرج صغيرا لا ينتفع به، ثم ينتقل من حال إلى حال، حتى يبلغ النضوج، فيصير لذيذا نافعا إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، ليس المراد بقوم يؤمنون المؤمنون بالفعل فقط، بل والذين يستجيبون لدعوة الإيمان، و ينتفعون بالدلائل و البينات، أما أصحاب القلوب المغلقة فيمرون بها مرور البهائم و السوائم[2].

الخلاصة ان المقصود الأول من هذه الأمثلة الأرضية والسماوية هو التنبه إلى أن مسخّرات هذا الكون، وما فيها من إبداع وتدبير، محال أن تأتي صدفة وفلتة في نظر الفطرة والعقل، فهما يحكمان حكما قاطعا بأن كل ما في الوجود قد صدر عن إرادة وتصميم، ولحكمة بالغة يعرفها العالم والجاهل ولا شيء أدل على بطلان الصدفة، كمبدأ، من تكرار الحادثة الواحدة كلما تكرر سببها.

المطلب الخامس: قيامهُ على التوازن والتناسب في الفيوضات والقابليات

أولاً: يقوم قانون التسخير على التوازن

ربانية قانون التسخير تقتضي التوازن وعدم الاضطراب في الكون وقانونه، فهو محكوم بنظام من الذرّة إلى المجرة، فيُلحظ أنّ هناك توازن في قانون التسخير على مستوى الأفراد فيما بينهم، وتوازن بين أجزاء الكون.

١ ـ **على مستوى الأفراد** يوجد تفاوت، ولولا هذا التفاوت لما حصل التوازن في مواهبهم وإمكاناتهم، فمن الخطأ القول: بأنّ هذا الفرد أصبح ذكياً لكونه احتل دور (السيد) في التركيب المجتمعي وذاك صار بليداً لكونه (عبد)؛ فأنّه لكي يحتل

١()سورة الأنعام: الآية /٩٩ .

٢()ينظر: مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف، ٢٣٥/٣ .

هذا بدور(العبد)، ويحظى ذاك بدور(السيد)، لابد أن يوجد فارق بينهما مكّن السيد بإقناع العبد بتوزيع الأدوار على هذا الشكل، وهكذا ننتهي حتماً في التعليل إلى العوامل الطبيعية السيكولوجية التي تنبع منها الاختلافات الشخصية، في مختلف الخصائص والصفات، فالاختلاف بين الأفراد حقيقة تكوينية مطلقة، وليس نتيجة إطار اجتماعي أو نظام اقتصادي معين، فلا يمكن لنظرة واقعية تجاهلها، ولا لنظام اجتماعي إلغاؤه في تشريع، أو في عملية تغيير لنوع العلاقات الاجتماعية[١].

هذا هو التوازن الذي أوجده اللهﷻ بين الأفراد مصداق لقوله تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ...﴾[٢]، بمعنى أنّهﷻ رفع الناس بعضهم فوق بعض في الرزق، وحسن الصورة وقوة الأجسام وشرف الأنساب وغير ذلك[٣].

إنّ الإسلام لا يفرض إيجاد هذه الحالة من التوازن في لحظة، وإنّما يعني جعل التوازن الاجتماعي في مستوى المعيشة، هدفاً إلى تحقيقه والوصول إليه، بضغط مستوى المعيشة من أعلى الهرم بتحريم الإسراف، وبرفع المستوى من أسفل، للارتفاع بالأفراد الذين يحيون بمستوى منخفضاً من المعيشة إلى مستوى أرفع، وبذلك تتقارب المستويات حتى تندمج أخيراً في مستوى واحد، قد يضم درجات ولكنه لا يحتوي على التناقضات الرأسمالية الصارخة في مستويات المعيشة[٤]، هذا في التوازن بين الأفراد من جانب تسخير الإمكانات والإفادة فيما بينهم وفق قانون ثابت متوازن .

١()ينظر: الصدر، محمد باقر: اقتصادنا، ط٢، تح: مكتب الإعلام الإسلامي، مؤسسة بوستان كتاب، قم، ١٤٢٥هـ، ٦٧١-٦٧٣ .

٢()سورة الأنعام: الآية/ ١٦٥ .

٣()ينظر: ابن إدريس، محمد بن أحمد: المنتخب من تفسير القرآن والنكت المستخرجة من كتاب التبيان، ٣٠٧/١ .

٤()الصدر، محمد باقر: اقتصادنا، ٦٧١-٦٧٤ .

٢ـ أمّا على مستوى التوازن للمسخّرات، فإنّ الكون كله دال على قانون الله ﷻ، المتوازن في تسخير الموجودات، فمن عجائبه أن هذه الحياة لو كانت كلها على سطح الأرض نباتية، لاستهلكت كل ثاني أوكسيد الكاربون، ولو كانت كلها حيوانية لاستنفذ الأوكسجين كله، وفي الحالتين تنتهي هذه الحياة وتلك(١).

فهذا لا يحدث مصادفة، وإنّما بقدرة خالق صانع ابدع في صنعه وأجاد في خلق هذا التوازن العجيب، قال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾(٢)، ففي هذا الامتداد المنبسط طولاً وعرضاً الذي جعلها صالحة للحياة وللسكنى، وللزرع ولغير ذلك، وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ ثابتة في أعماقها، لتمنعها من الاهتزاز، وهي الجبال الشامخة، وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شيء مَوْزُونٍ على أساس التقدير، الذي يراعي الحاجة بشكل دقيق، من حيث الخفة والثقل، فلكل المسخّرات أودعها الله ﷻ في الأرض من النبات وغيرها، ميزان دقيق يوازن بينها وبين ما تحتاجه الحياة والإنسان، فلا يزيد شيء عن الحاجة، ولا ينقص عنها، ولكل شيء منها تقديره الذي يتحقق فيه التناسب والانسجام بين الأمور، ضمن القانون الذي يحكم المسخّرات بالحكمة و التقدير(٣)

هذه الآية هي الوحيدة في حمل الوزن لكل شيء وزوج، وقد تدلنا على لزام الوزن لكل شيء لأنه زوج، فللمركب وزن أيا كان، وزنا هندسيا كالبعدين والأبعاد، ووزنا فيزيائيا وهما لكافة المواد دونما استثناء(٤)

في هذا العرض السريع، إذ تلتقي العظمة بالنعمة، وتنطلق الحياة ضمن نظام متوازن زاخر بالروعة والجمال، ويتحرك الإنسان في رعاية الله ﷻ وحمايته التي تدبر كل شؤونه وأموره، حتى يشعر بأن الحياة كلها له، وفي خدمته، ليشكره على

---

(١)ينظر: كريسي، موريسو: العلم يدعو للإيمان، تر: محمود صالح الفلكي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٤م، ص٩٨.

٢()سورة الحجر: الآية/ ١٩ .

٣() ينظر: فضل الله: من وحي القرآن ١٣/ ١٥١ .

٤()ينظر: الصادقي، محمد: الفرقان في تفسير القرآن، ١٤٤/١٦ .

ذلك من موقع الإحساس بضرورة الانسجام في حركته مع قانون التسخير الذي أراد الله ﷻ أن لا يسيء إليه الإنسان، بالانحراف عن غاياته و مقاصده، و هكذا نجد في هذا الجو الكوني ما يدفع الإنسان إلى الشعور بالروحانية الفيّاضة بالرحمة واللطف الإلهيين، ليرتبط بالله ﷻ أكثر إحساسا بارتباط كل وجوده به في كل شيء، ومع كل شيء، وبذلك يلتقي في داخله جانب الإحساس، بجانب التصور في حالة مشرقة من وضوح الرؤية وسلامة الشعور[١].

ثانياً: قانون التسخير يتناسب مع الفيوضات والقابليات

إنّ المسخّرات في الكون تتفاوت مع بعضها في قانونها التسخيري، من حيث قابليتها لاكتساب الفيض من مبدأ الوجود، فكل موجود وفي أي رتبة من الوجود يمتلك استحقاقا خاصا به من حيث القابلية لاكتساب الفيض، ولمّا كانت الذات الالهية المقدسة كمالاً مطلقاً وخيراً مطلقاً وفيّاضة على الاطلاق، فهي تعطي ولا تمسك وفي مقابل فإنّ الكون مهما بلغ من السعة فإنّه لا يمكنه أن يستوعب الفيض الالهي مباشرة، وبلا وسائط وذلك؛ لأن العالم مهما بلغ فهو محدود، وفيضه سبحانه لا محدود، ويستحيل على المحدود أن يستوعب اللامحدود[٢].

إنّ الله ﷻ فيّاض مطلق وذاته المقدسة تقتضي افاضه الوجود، ويشترط حينئذ قابلية المادة للوجود كونها من الممكنات كي لا تكون الافاضة قبيحة عقلا[٣]، لذ منح الله ﷻ لكل مسخّر ماهو لازم له وما هو لائق به ووهب له القابليات عند الإفاضة والإيجاد[٤]

هذا من جهة ومن جهة اخرى فان حكمة الله ﷻ وتدبيره وعدله يقتضي أن لا

١()ينظر: فضل الله: من وحي القرآن ١٣/ ١٥١ .

٢() ينظر: المطهري، مرتضى: العدل الإلهي، ٧٣

٣()ينظر: المجلسي، العلامة محمد باقر: ط١، تح: هاشم ميلاني، مؤسسة النشر الإسلامي، ايران، ١٤١٦هـ، ١/٢٢١-٢٢٢

٤()ينظر: السبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ع)، ٩٨ .

يفيض فيضه على العالم بلا وسائط او علل وأسباب، وجعل الملائكة والانبياء والائمة (عليهم السلام)، وسائط ما بينه وبين خلقه، ووضعهم في اول سلسلة العلل يصل اليهم الفيض الالهي مباشرة، ثم منهم يتوزع الى فروعه وقنواته؛ لأنّ الفيض الإلهي قوي وشديد فلا ينزل إلّا على المحل القابل، إذ لو وصل الى غير القابل ربما كان ظلما لكونه أنّه اعطى الشيء ما لا يستحقه، ولكونه اعطاه اكثر من طاقته، وكلاهما ظلم والله ﷻ منزه عن كل ذلك، ولذلك اقتضت الحكمة والعدل أن يضع الوسائط التي تستوعب الفيض وتوصله الى القوابل (١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢)، إنّ الله ﷻ الموجد والمتصرّف مطلقا فهو الّذي خلق المسخّرات، وهو الّذي صرّفها على حسب إرادته، وأفاض عليها من فيوضاته، فإنّه ﷻ خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم، فأبدع الأفلاك ثمّ زيّنها بالكواكب، وعمد إلى إيجاد الأجرام السفليّة، فخلق جسما قابلا للصور المتبدّلة والهيئات المختلفة، ثمّ قسّمها بصور نوعيّة متضادّة الآثار والأفعال(٣).

إنّ وجود الفيض هو سبب الغاية الإلهية للموجودات، أي إحاطة علمه السابق بقانون المسخّرات على الوجه الأليق، إذ يقتضي إقامة ذلك القانون على ذلك الترتيب والتفضيل الذي من جملته، وجود ما يكون به القانون على وجه الصواب(٤).

أنّ المسخّرات قابلة للفيض الإلهي، فالرياح يسخّرها بأمره وبفيضه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ

١()ينظر: المطهري، مرتضى: العدل الإلهي، ٧٤.

٢()سورة الأعراف: الآية / ٥٤ .

٣()ينظر: الكاشاني، فتح الله بن شكر الله: زبدة التفاسير، ٢/ ٥٣٣ .

٤()ينظر: الموسوي، اسد الله: الإمامة، ٨٨ .

يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1]، ويبقى للأسلوب القرآني في توجيه الإنسان نحو الإيمان بالله ﷻ حركته التي يلامس بها الشعور العميق في إثارة الإحساس الداخلي بالمسخّرات من حوله، في ما يتحرك به من آثار رحمة اللهﷻ، وفي ما يفيض به من منابع نعم اللهﷻ، ولكن الإنسان يظل في مشاعره قلقا، فيهتز للبشرى بالنعمة، و يتعقد من خلال مظاهر الخوف، و لا يدرس الأمور بعقله ليعرف طبيعة قانون التسخير الذي تتنوّع أوضاعه تبعا لتنوع أسرار الحكمة في داخل الكون[2].

فالكون وكل ما فيه من مسخّرات مخلوقة لله ﷻ وتلك المسخّرات بحاجة دائمة الى الله ﷻ ولا تستغنى عنه ولا لحظة واحدة، وإنّ الانقطاع العلاقة بين المسخّرات وبين المبدأ الفيّاض يعني عدمها وفنائها[3].

يُلحظ مما سبق إنّ الخاصية الربانية هي الأساسية وتنبثق منها سائر الخصائص الأخرى، لكونها ربانية صادرة من الله ﷻ ووظيفة الإنسان هي التلقي والاستجابة والتكيف والتطبيق في حياته الواقعية، سيما إنّ قانون التسخير ليس نتاج فكر إنساني وإنّما هبه إلهية خاصة من الخالق للإنسان هدى ورحمة به، فلذلك تنشأ خواص أخرى ذات طابع علمي وطابع إنساني .

١()سورة الروم: الآية/ ٤٨ .

٢()ينظر: فضل الله: من وحي القرآن، ١٨/ ١٥٦ .

٣()ينظر: السبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ع)، ٤٠٨ .

المبحث الرابع: خصائص قانون التسخير العلميّة

يدل قانون التسخير على نظام الخلق الرائع، إذ أقيمت تلك المسخّرات على أتم نظام وهو أمر يقوله العلم والعقل كلما تقدم الزمن وكلما وقفنا على اسرار الكون وقوانينه[١]، وبيان ذلك يتم بالمطالب التالية:

المطلب الأول: قانون التسخير وسمة الاطراد

اطَّرَدَ الشيءُ أي تَبِعَ بعضُه بَعْضًا وَجَرَى مجْرى وَاحِدًا كجري الْأَنْهَار، واطَّرَدَ الأَمرُ: استقامَ [٢]، واطراد قانون التسخير بمعنى حصوله بتتبع أي باتساع وشمول وتكرار آثاره على وتيرة واحدة كلما توافرت الشروط، وانتفت الموانع، وتهيأت الظروف، فالأجسام تسقط إلى الأرض كُلما ألقينا بها في السماء، واليد تحترق كلما لمست النار، والمطر يهطل بإذن اللهﷻ كلما تلبّدت الغيوم في السماء، وتهيأت الظروف الجوية الملائمة[٣].

إنّ اطراد قانون التسخير ليس علاقة عشوائية، وليس رابطة قائمة على أساس الصدفة والاتفاق، إنّما هو علاقة ذات طابع علمي موضوعي، فسمة الاطراد هي تأكيد على الطابع العلمي لقانون التسخير في الكون؛ لأنّ القانون العلمي من أهم مميزاته هو الاطراد والتتابع وعدم التخلف، فيخلق ذلك لدى الإنسان المؤمن شعوراً واعياً بجريان الأحداث من حوله من غير الصدفة والعشوائية، فيتربى على ذهنية علمية واعية يتصرف في إطارها ومن خلالها مع أحداث الكون[٤].

إنّ جميع ظواهر هذا الكون، تتكون وفق قوانين عامة جعلها اللهﷻ في جبلّة الأشياء، وهي تتفاعل مع بعضها في نظام متسق، من غير أن تستغني عن إمداد

١()ينظر: السبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ع)، ٧٩ .

٢()ابن منظور: لسان العرب، ٢٦٨/٣ ، الكفوي: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ١٤٠.

٣()ينظر: كنعان، أحمد محمد: ازمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، ٥٤ .

٤()ينظر: الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنية، ٧٥- ٧٦ .

إفاضة اللهﷻ في كلّ آن، فمن ألقى حطبا في النار واحترق الحطب، صح القول: أنّ اللهﷻ أحرقه، لما أودع في طبيعة النار من خاصية الإحراق وفي طبيعة الخشب من خاصية الاحتراق، واللهﷻ يمدهما بإبقاء تلك الخاصية في كلّ مرّة [١]، حتى قيام الساعة حيث ترفع أوامر التسخير الإلهية عن القوانين الكونية التي وضعها اللهﷻ لتنظيم الحياة على كوكب الأرض[٢].

بعد بحوث مستفيضة ومتقدمة، عرف العلم مؤخراً، إنّ قضية تولّد المطر من السحاب، وتصادمه فى شحنات سالبة وموجبة ينتج عنها البرق، ويتخلّق بها الماء، ونبّه إليها القرآن وأوجزها في الآيات[٣]، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاء وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾[٥] خلق اللهﷻ السحاب بين السماء والأرض، وأرسالها بصورة منظمة من دون فوضى[٦].

إذ أنّ المطر لا يحصل إلّا اذا توفّرت الشرائط الثلاثة متتابعة: التبخّر فالتشبّع فالتكاثف، وهذا هو الذي دلّت عليه الآية الكريمة من اطراد، فقد جاءت بوصف موجز محيّر للعقول، عبّرت أولا بقوله تعالى:﴿... يُزْجِي سَحَابًا...﴾ إشارة إلى عملية التبخير وتكوين السحب، والإزجاء هو عملية إثارة السحب وانتشالها بهيأة أبخرة من

١()ينظر: معرفة، محمد هادي: التمهيد في علوم القرآن،١٨٥/٣ .

٢()ينظر: العبيدي، خالد فائق: ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية،٥٤/٥ .

٣()ينظر: الحفني، عبد المنعم: موسوعة القرآن العظيم، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤٢٤هـ، ١٦٩٠/٢ .

٤()سورة الروم: الآية /٤٨ .

٥()سورة النور: الآية/٤٣ .

٦()ينظر: الصادقي، محمد: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ١٩٥/١ .

البحار، ﴿...اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً ...﴾ لكون الرياح بهبوبها على سطح البحار هي التي تسبب التبخير والتدافع بها للتصاعد وتتكاثف وتتكوّن سحباً، ثم عبّرت عن عملية التشبّع بقوله تعالى: ﴿...ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ...﴾ إنّ درجة الإشباع الكافي إنّما تتوقّف على حصول التعادل وتساوي تبادل الجزئيات بين الماء و الهواء، وما هذا إلّا التآلف والتعاضد بين تلك الجزئيات، وإنَّ هذا التشبّع لا يحصل إلّا بالتعادل والتآلف بين ضغطي بخار الماء وبخار الهواء، أو الاتّحاد بين نوعي الكهربائية[١].

إنّ أصدق تعبير عن هذه الظاهرة هو وصف التأليف، الذي جاء وصفه في العلم بالتشبّع، ثم جاءت بقوله تعالى:﴿... ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً...﴾ وهذا أبلغ تعبير عن عملية التكاثف الذي حقّقه العلم، إذ لا تفسير للركام سوى التكاثف وتراكم بعض الشيء على بعض مع ضغط، فاذا ما تحقّقت الشرائط الثلاثة فعند ذلك: ﴿...فترى الودق يخرج من خلاله...﴾ الودق: المطر، وقد فصل اللهﷻ بين العمليات الثلاث ب (ثمّ)؛ لأنّ كلّ عملية إنّما تحصل بتعاقب وتتابع مع فترة، أمّا النتيجة وهي الإمطار، فجاءت بالفاء تعاقبا بلا تأخير، وهو الفور في حصول نتيجة عملية الإمطار[٢].

هذا التعاقب والتتابع في حصول المطر يحدث باطراد، في كل مره بنفس الحدث اذا ما توفرت الشروط، وهذا كله هو قانون التسخير في نزول المطر، فالاطراد يشمل جميع الموجودات ويعمّها إلا ما خرج بدليل.

المطلب الثاني: قانون التسخير في الثبوتية والاستمرار

من ضروريات الإيمان، ولإصلاح حياة الإنسان، خلق الله ﷻ كل ما يحتاج الإنسان إليه، من تنظيم وتقنين للمسخّرات، وجعل لتلك القوانين ركائز ودعائم، يرتكز ويعتمد عليها بحيث لا يقبل التغيير ولا التبديل؛ لأنّه قانون العصور والاجيال، فليس فيه من حيف أو جور، لا من الرجل على المرأة، ولا من المرأة على الرجل، ولا

١()ينظر: أحمد، يوسف حاج: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم و السنة المطهرة،ط٢، مكتبة دار ابن حجر، دمشق، ١٤٢٣هـ، ٢٦٣ .

٢()ينظر: معرفة، محمد هادي: التمهيد في علوم القرآن، ٦/ ١٤٧- ١٤٨ .

الفرد أولى به من الجماعة، ولا الجماعة أولى من الفرد، بل لكل حقوقه ونظمه، التي لا تنقصه عما يسعده، ولا تزيده فيما يشقيه، كل ذلك بالموازنة الدقيقة وبثبوتية واستمرار، فلكل حقه مما يستحقه، ويجب له أو يجب عليه، هذا عدل الله ﷻ المتكامل وهذه هي غايته الاولى، والتربية الحكيمة التي أرادها رب الإنسان للإنسان في تسخير الموجودات إليه(١).

إنّ الثبات لا يقتضي التجميد ولكنه يقتضي السماح بالحركة داخل اطار ثابت وحول محور ثابت، وهذه السمه هي طابع الصنع الإلهي في الكون كله، فمادة الكون ثابتة الماهية ولكنها تتحرك وتتخذ أشكال دائمة التحور والتغير والتطور، فالذرة متكونة من نواة ثابتة تدور حولها ألكتروناتها بمدار ثابت، كما إنّ لكل كوكب وكل نجم في المجرة له مدار ثابت ويتحرك حول محوره بحركة محكومة بقانون خاص ثابت ومنتظم، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾(٢) أي لا تقبل تحويل، ولا التغيير، بل هي ثابتة دائمة(٣).

إنّ قانون التسخير عادة مستمرّة منذ بدأ خلق آدم عليه السلام إلى الآن، لكونها على أساس الحكمة التي يدور عليها فلك التكوين، أو بمعنى أنّه لا يقدر أحد على تبديل تلك العادة المستمرة في سريان القانون في المسخّرات(٤).

المطلب الثالث: قانون التسخير لا يخرج عن قانون العليّة

العلّة لغةً: اسم مصدر على وزن فِعْلة، مشتق من الفعل عَلَّ وتأتي بمعنى المرض والسبب والحادثة والعذر والتكرار والدوام، فالعلّة يشترط فيها أن تكون سببا لحدوث شيء مع استمرارها(٥)، وفي الاصطلاح: (هي أمر يحتاج إليه أو يتوقف عليه

١()ينظر: القبيسي العاملي، محمد حسن: تفسير البيان الصافي لكلام الله الوافي، ٥ /١٠١ ـ ١٠٢ .

٢()سورة الأحزاب: الآية / ٦٢ .

٣()ينظر: الكاشاني، محمد: فتح القدير، ٣٥١/٤ .

٤()ينظر: نهاوندي، محمد: نفحات الرحمن في تفسير القرآن، ١٩٥/٥ .

٥()ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ٤٧١/١١ .

أمر آخر)[1]، (ولا نعني بالعله إلاّ أن يكون هناك امر واحد او مجموعه امور اذا تحققت في الطبيعة مثلا تحقق عندها امر آخر نسميه المعلول بحكم التجارب، كدلالة التجربة على أنّه كلما تحقق احتراق لزم ان يتحقق هناك قبله علّ' موجبة له من نار أو حركة أو اصطكاك أو نحو ذلك، ومن هنا كانت الكلية وعدم التخلف من احكام العلّية والمعلولية ولوازمهما)[2]

قانون التسخير لا يخرج عن قانون العليّة فالنظام الكوني الراهن قائم على أساس العليّة، وتقوم بين ظواهره وأجزائه رابطة العلية والمعلولية وتأثير كل ظاهرة في ظاهرة أخرى متوقف على الإذن الإلهي والمشيئة الإلهية، وقد تعلقت المشيئة الإلهية الحكيمة بتحقيق الفيض الإلهي عن طريق النظام السببي، وأن أي نوع من أنواع التأثير والتأثر مظهر من مشيئة اللهﷻ وإرادته الكلية[3].

ينبغي ألا يظن الإنسان عند اكتشافه القوانين ووصوله إلى معرفة العلاقة بين ظواهر الكون أنّه بذلك قد استقل بهذا الكون، أو أنّ هذه القوانين التي اكتشفها تكفي وحدها في الاستقلال بالفعل في هذا الكون، أو أنّها تعمل أثرها منعزلة عن خالق الكون، بل إنّ هناك بعداً آخر على درجة كبيرة من الأهمية ينبغي ملاحظته، فقد نعرف القانون ونكتشف السبب المؤثر الفاعل، ثم نحاول أن نضعه حيث يؤثر في محله القابل للأثر، فنجد أن هذا المحل معطل غير قابل للأثر فلا ينفعل ولا يتأثر، وبالتالي لا يؤثر القانون ويتعطل الأثر، وقد يكون له أيضا ضد يمانعه، ذلك أنّ كل سبب ليس مستقلا بالتأثير منفرداً به، بل لا بد له من أسباب تعاونه، فإذا لم تتم معاونة الأسباب الأخرى المشاركة وتنتفي الأضداد والعوائق المانعة لم يحصل المسبب.

١()الموسوي، أبو الحسن: الفتوحات العلوية تأسيس الحكمة الإلهية على متن بداية الحكمة، ط١، دار الحوراء، لبنان، ١٤٣٥هـ، ٣٤٥ .

٢()الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٧٤/١ .

٣()ينظر : السبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ع)، ٢٤ .

الإشارات القرآنية توجه نظرنا إلى ضرورة ربط الكون بخالقه بدءاً ونهايةً؛ لنعلم أنّ الذي خلق هو الذي يحفظ على الكون قانونه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[1].

أمسك سبحانه الكواكب بنظام الجاذبية، كما أمسك الطير في الجو بجناحيه، وأسند الإمساك إليه ﷻ لأنه خالق الكون، ومسبب الأسباب، وهي إشارة إلى إنّ الإنسان عليه أن يطيل التفكر في قانون التسخير، وكيف أتقنه ﷻ بقدرته، ودبَّره بلطفه وحكمته، ولولا هذا اللطف والتدبير لاختلَّ قانون التسخير، وأصبح بجميع مسخّراته هباء منبثا[2].

وعند محاولة دراسة الكون وقوانين تسخيره بعيدا أو منفصلا عن خالقه، فإننا بذلك نكون قد أبطلنا للكون، كونه آية دالة على خالقه، وكونه مرآة لصفات الخالق، ونقع في القول بالعبثية المطلقة أو الصدفة العشواء وتنتفي الغائية والحكمة، وفي ذلك بتر للصلة بين الكون وخالقه، ويكون العالم مادة فاعلة ومادة منفعلة وليس وراء ذلك فاعل حكيم ولا غاية مقصودة أو علّة مؤثرة[3].

فالمطر وحده لا ينبت النبات بل لا بد أن تنضم إليه عوامل أخرى لا تقل في تأثيرها عن المطر، فلا بد من اعتدال الهواء، وكون التربة صالحة للإنبات، فإذا نزل المطر وبذر النبات في صخر فمن العبث أن ننتظر إنبات الزرع؛ لأن التأثير هنا منتفٍ لانتفاء المحل القابل للأثر، والزرع لا ينمو ولا يؤتي ثماره إلا بتعهد صاحبه له وصرف الآفات المضرة عنه، إنّ الماء النازل من السماء حادث من الحوادث الوجودية، جار على نظام متقن غاية الإتقان من غير انتقاض أو استثناء، ويستند إليه

١()سورة فاطر: الآية/٤١ .

٢()ينظر: مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف، ٣٤٦/٥ .

٣()الجليند، محمد السيد: الوحي والإنسان قراءة معرفية، (د.ط)، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٢م، ١٨٣.

إنبات النبات، (فالقرآن يحكم بصحة قانون العلية العامة بمعنى أن سببا من الأسباب إذا تحقق مع ما يلزمه ويكتنف به من شرائط التأثير من غير مانع لزمه وجود مسببه مترتبا عليه بإذن الله سبحانه وإذا وجد المسبب كشف ذلك عن تحقق سببه لا محالة)[١]

فلا بد من انتفاء الموانع ووجود الأسباب المعاونة، وكل سبب معين أو شرط مطلوب تحققه في حدوث الأثر يعتبر جزءا من السبب العام للفعل، ويكون مؤثرا في أحداث المسبب بقدر الحاجة إلى تحصيله ومعاونته، وليس في الوجود سبب تام مقتضٍ للفعل بذاته مستقل عن الأسباب المعاونة، (فلكلِّ مصنوع صانعا ولكلّ مخلوق خالقاً ولكل معلول علّة ، فما دام الموجود في ذاته مفتقراً في وجوده وتحققه فلابد وأنْ يكون مرتبطاً بسبب أفاض عليه الوجود والتحقق ، وهذا بخلاف ما لو كان الموجود في ذاته غنياً عن غيره في الوجود ، فلا معنى لاحتياجهِ إلى علة تفيض عليه الوجود ما دام غنياً عما سواه في ذلك؛ إذ الوجود بالنسبة إليه متحقق)[٢].

فلا بد في كل سبب مؤثر من توفر ثلاثة أمور، وهي: وجود المقتضي التام للفعل، وتوفر الأسباب المساعدة أو الشروط الخارجية، وانتفاء المانع العائق، فإذا تحققت هذه الشروط الثلاثة في السبب فلا بد أن يوجد المسبب، أمّا أن يكون في الوجود علة تامة تستلزم معلولها، أو يكون في الوجود سبب تام مستقل بالتأثير، فهذا قول باطل يكذبه الواقع[٣].

قد يكون هناك عائق أقوى من السبب فيمنعه عن التأثير، وهذا ما يُعبّر عنه إن السبب لا يستقل بالتأثير، بل لا بد من ارتفاع الموانع التي قد تعوق السبب عن التأثير في المسبب، وهذه الموانع منها ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه، وهي كلها بيد الله ﷻ فهو سبحانه المسبب الأول، فهو الذي يجعل السبب مؤثراً، وفي نفس الوقت يجعل المحل غير قابل للأثر، فلا ينفعل بالسبب ولا يتأثر به، وهذه قضية ينبغي أن يتنبه لها المرء

١()الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٧٤/١ .

٢()الساعدي، صادق: نافذة على الفلسفة، ط١، توحيد، ١٤٢٢هـ.

٣()ينظر: الجليند، محمد السيد: الوحي والإنسان قراءة معرفية، ١٨٣

حتى لا يصاب بالغرور العقلي، وحتى لا يقطع الصلة بين الكون وخالقه أو يفصل بين الأسباب ومسبب الأسباب، فهو وحده سبحانه له الخلق وله الأمر، فعلى المرء أن يبحث ويكتشف ويعمل عقله، وفي نفس الوقت يكون قلبه معلقا بالخالق والمسبب يستمد منه العون والتوفيق(١).

ولقد لفت القرآن الكريم النظر لذلك قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۞نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۞ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۞أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۞أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ ﴾(٢)، وهذه الأدلة التي كلّ منها مصداق لقدرة الله ﷻ اللامتناهية وإنّه المسبب لكل شيء(٣).

وهي بذلك إلزام على الإقرار بأنّ الخالق في الابتداء هو الله ﷻ ولمّا كان قادراً على الخلق أولاً كان قادراً على الخلق ثانياً، ولا مجال للنظر في ذاته وصفاته تعالى وتقدس(٤)

نخلص من ذلك إنّ مظهر التناسق والانسجام في قانون التسخير للكون، من اهم الدلالات على وجود الخالق، وهذا التناسق والانسجام هو قانون العليّة الساري في كل المسخّرات، فلا يخرج قانون التسخير عن قانون العليّة، إذ لا يمكن تصور

١() الجليند، محمد السيد: الوحي والإنسان قراءة معرفية،(د.ط)، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٢م، ١٨٢.

٢()سورة الواقعة: الآية/٥٦- ٧٢ .

٣()ينظر: مكارم شيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٧/ ٤٨٢ .

٤()ينظر: الرازي: مفاتيح الغيب، ٣٥٣/٣ .

التسخير إذا جرد من العليّة؛ لأنّ الأجسام والموجودات بطبيعتها ساكنة فإذا انعدمت العلّة فلا تسخير.

المطلب الرابع: قانون التسخير في العمومية والشمولية

لقد اثبتت جميع الدراسات العلميه في الماضي ولا تزال ثابتة في الحاضر أنّ سلوك اي جزيء من اجزاء المادة في الكون بصورة عامة مهما صغر او تضائل حجمه، لا يمكن أن يكون سلوكاً عشوائياً بل أنّه على نقيض ذلك، يخضع لقوانين طبيعيه محددة، وفي كثير من الاحيان يتم اكتشاف القانون قبل اكتشاف اسبابه او فهم طريقة عمله بوقت طويل، ولكن بمجرد معرفه القانون وتحديد الظروف التي يعمل في ظلها يثق الكيمياويون فيه كل الثقة، ويظل القانون عاملا ومؤدي الى نفس النتائج، وليس من المعقول ان يكون لدى الكيمياويين كل هذه الثقة في القوانين الطبيعية، لو أنَّ سلوك المادة والطاقة كان من النوع العشوائي الذي تتحكم فيه المصادفه، وعندما يتم اخيراً ادراك الاسباب التي تجعل هذا القانون طبيعي عاملا وتفسر لنا حقيقته فإنَّ أي أثر لفكرة العشوائية او المصادفة في سلوك المادة او الطاقة، سوف يندثر اندثاراً تاماً، وقد اثبت اكتشاف تركيب الذرة أنَّ التفاعلات الكيمياوية التي نشاهدها والخواص التي نلاحظها ترجع الى وجود قوانين خاصة وليست محض مصادفه عمياء، فهي تخضع جميعا لقوانين معينة وليست وليدة المصادفة، إذ يكفي عدد قليل جدا من الذرات أي عنصر للكشف عنه ومعرفة خواصه، وعلى ذلك فإنَّ الكون المادي يسوده النظام وليس الفوضى وتحكمه القوانين وليس المصادفة او التخبط فهو عام شامل لكل موجود[١]

لو قيل أنّ المطر نزل بإرادة الله ﷻ، كأنّها حادثة مفردة مرتبطة بالله ﷻ بمعزل عن الحوادث الأخرى، وهذا الكلام يتعارض مع التفسير العلمي للمطر، بأنّه ظاهرة لها أسبابها، وعلاقتها مرتبطة بالدورة الطبيعية للماء، من التبخر والتحول إلى غاز وتصاعده إلى السماء سحاباً ثم يتحول بالتدريج إلى ماء، نتيجة انخفاض الحرارة

١()ينظر: موريسون، كريسي: الله يتجلى في عصر العلم، ٤٦-٤٨ .

فينزل المطر في مكان آخر، فهذا التسلسل السببي المتقن، وهذه العلاقات المتشابكة بين الظواهر الطبيعية من المسخّرات التي تعم الجميع فهي شاملة، هي تعبير واضح وجلي عن حكمة الله ﷻ وتدبيره وحسن رعايته، في القوانين التي وضعها في تسخير كل شيء، فعمومية وشمولية قانون التسخير، هي تأكيد على أنّ هذه القوانين ليست خارج قدرة الله ﷻ إنّما هي تجسيد وتحقيق لكلمته وسنته وإرادته في الكون، لكي يبقى الإنسان مشدوداً إلى الله ﷻ فتبقى الصلة وثيقة بين العلم والإيمان[1].

يتبيّن إنّ قانون التسخير شامل لكل من يريد اكتشافه واستثماره والإفادة منه، فقانون التسخير يضبط الحياة ويُسَيّر المسخّرات، ولا يعطل الله ﷻ سير هذا القانون، فالذي يعرف السباحة يعوم ويصل إلى شاطئ الأمان ولو كان كافراً، والذي لا يعرف أن يعوم يغرق ولو كان مؤمناً مالم تكن هناك معجزة أو كرامة[2].

١()ينظر: الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنية، ٨١-٨٢ .

٢()ينظر: مغنية: التفسير الكاشف، ١٢/١٦٠-١٦١ .

المبحث الخامس: قانون التسخير ذو الطابع الانساني

خلق الله ﷻ الإنسان قادراً على فهم القوانين المبثوثة في هذا الكون، فهي قابلة للفهم، ومن خلال هذا الفهم والتعقل استطاع الإنسان من صنع هذه التكنلوجيا الحديثة ومصادر القوى الرهيبة الموجودة في عصرنا، فقانون التسخير يعني بأن الله ﷻ بنى هذا الكون وفق سنن ونواميس جعلها متاحة في متناول فهم الإنسان وتعقله، كما في قوله تعالى:﴿ ...هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا..﴾[1]، إنّ الإنسان بإمكانه عمارة الأرض، والاستعمار هو جعل القادر يعمّر الأرض كعمارة الدار، أي جعله قادر على عمارتها وسكنها[2].

المطلب الأول: ارتباط قانون التسخير بالجزاء والثواب للإنسان

التسخير على المستوى ما يتعلق بالإنسان مرتبط بالكسب الإنساني، لذلك أعطت الشريعة الإسلامية للإنسان قيمة كبيرة، إذ سخّرت له الكون بما فيه، وإنّ هذا التسخير ليس المقصود منه أن الكون كله تحت إمرة الإنسان بل بقدر معيّن يدخل في منافعه وخدمته، لا لتصريفها ذاتاً كما يشاء، كتسخير ما في السماوات من نجوم وكواكب... فهي وجدت لفائدة الإنسان وفي إطار منافعه، ولا يمكن الإنسان غير الكامل من تصريفها وفق مشيئته[3].

فالإنسان له مكانة سامية في الإسلام كرّمه الله ﷻ وهو الهدف النهائي من خلق المسخّرات في الكون[4]، ومن أول معالم التكريم أنّ جعله خليفته في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[5]، إن

١()سورة هود: الآية /٦١ .

٢()ينظر: الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ١٦/٦ .

٣()ينظر: مكارم شيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٣٣٧/٧

٤()ينظر: المصدر السابق، ١٤٩/١

٥()سورة البقرة: الآية /٣٠ .

الله ﷻ خلق ما خلق ولم يقل في شيء منها ما قال في حديث خلق آدم، فظاهر هذا الخطاب تنبيه لشرف خلق الجنان وما فيها، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة، ولم يقل: إني خالق عرشا أو جنة أو ملكا، وإنما قال ذلك تشريفا وتخصيصا لآدم(١)، في هذه الآية تقرير صريح لخلافة الإنسان على الأرض وبيان مكانته التي استحق بها كل هذه المواهب(٢).

فهو مخلوق ذو خصوصية وأهمية عظمى إذ أنّ الله ﷻ نبأ ملائكته بخلقه قبل أن يخلقه، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(٣)، فإن أي شيء عظيم يُراد بيان عظمته يضاف إلى شيء عظيم، فأضاف الروح إليه ﷻ ليدل على عظمة تلك الروح التي استقرت في ذلك الجسد(٤)، وهذه الإضافة تخصيص بمعنى التشريف(٥)، وعلّمه سبحانه مالم يُعَلِّم أحد من خلقه، ومع هذا التكريم عَجّ الكِبر عند إبليس، ﴿... قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾(٦)، والحسد من هذا التكريم، ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً ﴾(٧)، وأبى السجود لما أمره الله ﷻ فكان جزاءه الطرد واللعن، قال تعالى: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا ﴾(٨).

١()ينظر: الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ٢٢٨/١ .

٢()ينظر: مكارم شيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٥٤/١ .

٣()سورة ص : الآية /٧١- ٧٢ .

٤()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٧٥٧/٨ .

٥()ينظر: مكي بن حموش: الهداية إلى بلوغ النهاية، ط١، جامعة الشارقه، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - الشارقة، ١٤٢٩ هـ، ٢٤٢٧/٤ .

٦()سورة الأعراف: الآية / ١٢ .

٧()سورة الإسراء: الآية /٦٣ .

٨()سورة الحجر: الآية / ٣٩ .

وإنّ اختيار الإنسان للإيمان والتقوى يبعث ذلك الاختيار على عمران الدنيا والآخرة بشهادة القرآن المجيد[١]، قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا﴾[٢]، فهناك العلاقة بين الاستقامة وتطبيق أحكام الله ﷻ وبين وفرة الخيرات ووفرة الإنتاج[٣]، فالاستقامة على الخط، تفرض توجيه الطاقات كلها نحو البناء لا الهدم، والخير لا الشر، والحياة لا الموت، مما يجعل الخير يتحرك في الإنسان، كما هي الأمطار و كما هي الينابيع، في هطولها على الأرض الميتة لتحييها، وفي تفجّرها في رحاب الوديان والسهول لتبعث فيها الخضرة و الرخاء العميم، وهذا هو قول الله ﷻ: ﴿...لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً...﴾ أي كثيرا، وهو تعبيرا عن الرخاء و السعة في الرزق، باعتبار أن الماء هو الأساس في ذلك كله[٤].

فان الله ﷻ لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا، فهناك مواقف إيجابية للإنسان تمثل حريته واختياره وتصميمه، لذلك فإن اختيار الإنسان له موضعه الرئيسي في التسخير، فقوانين التسخير ذات طابع إنساني لا تفصل الإنسان عن دوره الإيجابي، ولا تعطل فيه إرادته وحريّته واختياره[٥]، قال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا...﴾[٦] الدلالة على خاصية الإرادة الإنسانية والاختيار[٧].

هذا النسق القيمي مرتبط بعضه ببعض فالتسخير للسماء والرياح والسحاب والمطر ارتبط ارتباطاً وثيقاً بما يقدمه الإنسان من مقدمات، قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ

١()ينظر: مكارم شيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٩/ ٥٤ .

٢()سورة الجن: الآية/ ١٦ .

٣()ينظر: الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنية، ٦٩ .

٤()ينظر: فضل الله: من وحي القرآن، ٢٣/ ١٦٠ .

٥()ينظر: الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنية، ٨٩ .

(٦)سورة الإسراء : الآية / ٨ .

(٧)ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ٣٦/١٣.

وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾[1]، أيّ ان الأودية تسيل بقدر قطر المطر، وهذه الآية تلمح الى أنّ المطر له مقادير معينة يقدرها الله ﷻ حسب طاعة أو معصية العباد[2] هذا من جانب الاستقامة والإيمان واليقين بالله ﷻ فيمدد المؤمن بالخير والبركة في الدنيا وفي الآخرة.

أمّا جزاء الكافرين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۞ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۞ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾[3]، هنا استفهام انكاري من حال الإنسان غير المؤمن (فكيف تأمنون لصلابة الأرض التي تقفون عليها، وأنتم تعرفون مبلغ قدرته التي يزلزل بها الأرض، ويحول الجبال إلى تراب تذروه الريح، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً يرميكم بالحجارة أو يقصفكم بالريح المهلكة في البر ... فكيف تأمنون في البر من مكر الله ﷻ ما لا تأمنونه في البحر، مع أن كل القوانين في البر والبحر طوع إرادته و قدرته؟ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فيرجعكم إلى البحر بسبب أو بآخر، فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ يقصف السفن فيكسرها)[4].

وهذا هو التلازم بين الاستقامة وبين الانتظام بقانون التسخير، وهو الذي يريد القرآن تأكيده في وعي الإنسان، على أساس أن ذلك هو الوضع الطبيعي الذي يفرضه اتجاه الطاقات في مجراها العادي الذي يملأ الحياة خيرا وبركة، بينما يتمثل الانحراف في ابتعاد الطاقات عن النتائج الطيبة لتحل محلها النتائج الخبيثة البعيدة عن مصلحة الإنسان، إنّ خراب الحياة وعمرانها بيد الإنسان، فإذا أخلص لله ﷻ فيها على منهاجه

١()سورة نوح: الآية / ١٠-١٢.

٢()ينظر: المدرَسي: من هدي القرآن، ٥/ ٣١٩ .

٣()سورة الإسراء: الآية / ٦٧-٦٩ .

٤()ينظر: فضل الله: من وحي القرآن، ١٤/ ١٧٦ .

كانت الحياة جنّة الله ﷻ على الأرض، وإذا سار بعيدا عن منهاج الله ﷻ، وانحرف عن خطه، تحولت الحياة عنده إلى جحيم من الشقاء، في ما ينتجه من الحروب والدمار والفساد(١).

المطلب الثاني: قانون التسخير من مقومات الاستخلاف

إنَّ قانون التسخير من المقومات العامَّة للاستخلاف في الأرض، ويعني ذلك أنَّ الله ﷻ سخَّر ما في الكون من مخلوقات على نحو يتمشَّى مع استخلاف الإنسان في الأرض، ويتضح ذلك من خلال بيان الاستخلاف وانواعه.

أولاً: الاستخلاف في اللغة والاصطلاح

الاستخلاف لغةً: قال ابن منظور: (الخَلْفُ ضِدُّ قُدّام...وخَلَفْتُه أَيضاً إِذَا جِئْتُ بَعْدَهُ. وَيُقَالُ: خَلَّفْتُ فُلَانًا أُخَلِّفُه تَخْلِيفاً واسْتَخْلَفْتُه أَنا جَعَلْتُه خَلِيفَتي، واسْتَخْلفه: جَعَلَهُ خَلِيفَةً. والخَلِيفةُ: الَّذِي يُسْتخْلَفُ مِمَّنْ قَبْلَهُ، والجمع خَلَائِف)(٢)، قال الراغب: (الخِلافةُ النّيابة عن الغير إمّا لغيبة المنوب عنه، وإمّا لموته، وإمّا لعجزه، وإمّا لتشريف المستخلف)(٣).

الاستخلاف اصطلاحاً: عبادة طوعيَّة لله ﷻ بالتزام هَديه وشرائعه ينشأ عنها ضبط للسلوك الإنساني في علاقته مع خالقه ﷻ وعلاقته بالمسخّرات، حيث تسير الحياة الإنسانية ضمن إطار الصلاح، إنّ الاستخلاف علاقة معنوية تربط الإنسان بالطبيعة من ناحية، والإنسان بأخيه الإنسان من ناحية أخرى(٤).

اقتضى أمر الله ﷻ بسط مملكة الألوهيّة، ونشر لواء الربوبيّة بإظهار المخلوقات، وتسخير الموجودات وتدبير الأمور، وإمداد الدهور وحفظ مراتب

١()ينظر: فضل الله: من وحي القرآن، ٢٣/ ١٦٠ .

٢()ابن منظور: لسان العرب، ٩/٧٧-٨٣ ، مادة (خلف) .

٣()الأصفهاني، أبو الحسين بن محمد الراغب: المفردات في غريب القران، ١/٢٩٤ .

٤()ينظر: الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنية، ١٠٦ .

الوجود، فكان مباشرة هذا الأمر بالإعلان الإلهي عن خلق الانسان، إذ جاء هذا الإعلان مع بيان المهمة التي خُلِقَ لأجلها، كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾[1]، فهذه التسمية لهذا الكائن الجديد في سياق الاخبار بخلقه بحسب وظيفته وهي الخلافة، ينطوي على دلالة بالغة في ابراز هذه الوظيفة والتنويه بشأنها، فخليفة الله ﷻ في الأرض له حقيقة باطنيّة وصورة ظاهرة، أما حقيقته الباطنة: فالروح الجزئي المنفوخ فيه من الروح الأعظم، وأما صورته الظاهرة: فنسخة منتخبة من صورة العالم فيها من كل جزء من أجزاء العالم لطيفها وكثيفها قسط ونصيب فالإنسان خُلِق من طين ونُفخ فيه من روح الله ﷻ، اذا تبع شهواته سَفُل بنفسه، أمّا إذا ارتقى عن الوقوع في المعصية عَلى شأنه وارتفع وارتقى بروحه إلى السماء فكان من خاصة الله ﷻ وأصفياءه،- فسبحانه الذي صنع وجمع الكلّ في واحد[2].

ولا زال القرآن الكريم بعد هذا الاعلان الأول يعظّم هذه المهمة ويبين محتواها وأهدافها، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3]، إنَّ الخلافة المهمة الوجودية للإنسان تعني الخلافة عن الله ﷻ لتنفيذ مراده في الأرض واجراء احكامه فيها، وهذا معناه أن يكون الإنسان سلطاناً في الكون بغايه تطبيق المهمة التي كُلِف بها[4].

إنّ دور الإنسان في ممارسة حياته إنّما هو دور الاستخلاف والاستئمام، وأي علاقة تنشأ بين الإنسان والطبيعة فهي في جوهرها ليست علاقة مالك بمملوك، وإنما هي علاقة أمين على أمانة استؤمن عليها، وإي علاقة تنشأ بين الإنسان وأخيه الإنسان

١()سورة البقرة: الآية /٣٠ .

٢()ينظر: صدر المتألهين: تفسير القران الكريم، ٣٠٢/٢ - ٣٠٣ .

٣()سورة الأنعام: الآية /١٦٥ .

٤()ينظر: ابن عاشور: تحرير والتنوير ابن عاشور

مهما كان المركز الاجتماعي لهذا أو لذاك، فهي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الإنسان أو ذاك مؤديا لواجبه بهذه الخلافة وليست علاقة سيادة أو ألوهية أو مالكية[١]

ثانياً: أنواع الاستخلاف

للاستخلاف أنواع منها العام والخاص وكما يلي:

١ ـ الاستخلاف العام

أنّ في الاستخلاف العام أودع الله ﷻ في الإنسان ما يؤهله تكويناً لأداء المهمة الإستخلافية وعمارة الأرض، إذ جعله مهيّأ للسكن على الأرض وكذلك العروج بروحه إلى السماء، وهذا مالم يحدث مع أي مخلوق في الوجود، فالملائكة كانت لهم خلقة خاصة، ما كانت تؤهلهم لتلقي كل هذه العلوم، فهم مخلوقون لهدف آخر، لا للخلافة[٢].

الخلافة غير مقصورة على شخص آدم عليه السلام بل بنوه يشاركونه فيها من غير اختصاص، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣]، ويكون معنى تعليم الأسماء إيداع هذا العلم في الإنسان بحيث يظهر منه آثاره تدريجا دائماً ولو اهتدى إلى السبيل أمكنه أن يخرجه من القوة إلى الفعل[٤]، فكان العموم في هذه الآية صريح كون الكلام موجه للناس جميعاً.

١()ينظر: الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنية، ١٠٨ .

٢()ينظر: مكارم شيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٦١/١ .

٣()سورة الأنعام: الآية /١٦٥ .

٤()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ١٧٦/١ .

ويؤيد عموم الخلافة قوله تعالى: ﴿... إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ...﴾[١]،وقوله تعالى: ﴿... وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[٢]، أي يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله بعد انقراضهم، بمعنى يهلك قرنا، وينشئ آخرين، ويجعل أولادكم خلفاً منكم، ويجعل المسلمين خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم وديارهم[٣]، بهذه المعاني يتضح أنّ الاستخلاف هنا بالمعنى العام للجماعة وليس لفرد دون آخر.

إنّ الخلافة مهمة وجودية للإنسان تعني خلافة عن الله ﷻ لتنفيذ مراده في الأرض وإجراء أحكامه فيها، وهذا معناه أن يكون الإنسان سلطاناً في الكون بغاية تطبيق المهمة التي كلفه الله ﷻ بها، عملاً بما أمره وانتهاء عما نهى، هذه المهمة التي كلف الله ﷻ بها الإنسان وجعلها غاية لوجوده تنبني على عنصر أساسي، هو معنى الخلفية عن الله ﷻ وعن هذا العنصر تستمد جوهر حقيقتها وكل أبعادها، فالخلفية تقتضي أن يكون الهم الأكبر للخليفة تَرَقّيه نحو مستخلفه، واقترابه منه ليحقق معنى الاستخلاف على وجه الأفضل[٤].

ولذلك فإنّ الإنسان الخليفة جوهر خلافته أن يحصر همه وجهده في الاقتراب من الله ﷻ مستخلفه، وذلك بالعمل الدائم والكدح المستدين لترقية ذاته وتنميتها، حتى يبلغ من الاكتمال الدرجة التي ذكرها الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[٥]، والخطاب هنا لجميع البشر من المكلفين، وتفخيم لشأن الأمر الذي يلقى من جهته، فجعل الجزاء لذلك الكدح لقاءه، وهذا من المعاني العجيبة والحكمة البالغة، والهاء في فَمُلاقِيهِ تحتمل أمرين: أن تكون كناية عن الله ﷻ،

١()سورة الأعراف: الآية / ٦٩ .

٢()سورة النمل: الآية /٦٢ .

٣()ينظر: الشوكاني، محمد: فتح القدير، ٤ / ١٦٩ .

٤()ينظر: النجار، عبد المجيد: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ط٢، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا- الولايات المتحدة الأمريكية، ١٤١٣هـ، ٦٦ .

٥()سورة الانشقاق: الآية /٦ .

وتقديره فملاقي ربك، ويحتمل أن تكون كناية عن الكدح، وتقديره فملاقي كدحك الذي هو عملك[١].

إنّ تكامل الإنسان وتَرَقّيه لقربه من الله ﷻ لا يكون إلا عبر منهاج العبادة ولذلك قال تعالى في بيان قطعي: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢] ليبين أنّ الخلق للعبادة والطاعة[٣]، ومعنى العبادة إسلام النفس في كل ما يفعل الإنسان ويظهر لما يريده الله ﷻ ويرضاه، عبر الالتزام الكلي لفعل ما امر به وترك ما نهى عنه، ولما كان الإنسان في طبيعته تركيبه مؤلفه من عنصر روحي وهو النفخة الإلهية، وعنصر ترابي مادي، فإنّ الترقي في اتجاه الله ﷻ يكون شامل العنصرين معاً، وبذلك فإنّ مسرح التكامل والترقي هيأه الله ﷻ ليكون صالحا لهذه الطبيعة المزدوجة، فكانت الأرض مجالا لممارسه الخلافة[٤]، قال تعالى:﴿... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾[٥] وممارسه الخلافة على الأرض على سبيل تنميه الذات الإنسانية وتكميلها بمنهاج العبادة يقتضي التعامل مع هذه الأرض بما يدفع بالإنسان إلى اتخاذها طريقاً لتعظيم اللهﷻ وإكباره، والخضوع له، والسعي في محبته ونوال رضاه، بما يناله من التدبر في الأرض والاعتبار بأحوالها، من المعرفة بالله ﷻ وبكمال صفاته وعظمته وسعت رحمته، بما يدفع به أيضا إلى استثمارها، واستغلال منافعها وتسخير مناقبها، بما يكشف من أسرارها وقوانينها، وبما يقيم فيها من عمران وتجهيز يحكم من سيطرته عليها وإخضاعها لإرادته[٦].

١()ينظر: الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ٣٠٩/١٠ .

٢()سورة الذاريات: الآية/٥٦ .

٣()ينظر: الطوسي: التبيان في تفسير القرآن،٣٨/٥ .

٤()ينظر: النجار، عبد المجيد: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل،٦٢ .

٥()سورة البقرة: الآية /٣٠ .

٦()ينظر: النجار، عبد المجيد: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ٦٣ .

جمع الله ﷻ هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿...هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ...﴾[1]، أي ابتدأ خلقكم من الأرض ومرجع نسبكم إليه وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها أي جعلكم عُمّار الأرض بأن مكنكم من عمارتها وأحوجكم إلى السكنى فيها وأمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه من الزراعات وغرس الأشجار والمساكن، إذ امتن على عباده بأن مكنهم من عمارة الأرض[2].

إنّ وظيفة الخلافة التي جُعلت غاية للوجود الإنساني تعني مباشرة الإنسان للكون بالروح والجسم، اعتباراً به واستثماراً لمنافعه، كل ذلك تكميلاً للذات في بُعدها الفردي والجماعي وترقية لها في وجهتها إلى الله ﷻ عبر منهاج العبادة عملاً بما أمر وترك ما نهى، وهذه هي وظيفة الإنسان في اصل خلقته، وإنجازها على وجه الأكمل يتمثل بالأخص في حقيقتين أساسيتين:

الأولى: طبيعة التركيب الذاتي للإنسان، فهذا التركيب يشمل جزء روحي يمكنه من السمو والعلو نحو الأفق الإلهي الأعلى، ليقدس من هذا الأفق مضمون الخلافة أمرا ونهيا على سبيل الإدراك والاستيعاب والتحمل، كما يشمل على جزء مادي يمكنه من مباشرة الأرض بالسعي فيها للإنشاء والتعمير، فالإنسان من حيث تركيبه وضع في قمة الكون وكرمه الله ﷻ بالنفخة الروحية، ليكون قادراً على أنّ تكون له حركة فعالة في مجال يتلقى في احد طرفيه الأمر الإلهي، وينفذ في الطرف الآخر ذلك الأمر على مسرح الأرض، وذلك هو جوهر مهمة الخلافة، أمّا الكائنات ذات الطبيعة الواحدة لم يعهد إليها الله ﷻ مهمة الخلافة في الأرض؛ لأنّها اذا ما كانت روحانية صرفاً، فإنّها لا تقع على مباشرة المادة الأرضية بالفعل، وإذا ما كانت مادية صرفاً، عجزت أن تقتبس من الأفق الإلهي أوامر الاستخلاف.

الثانية: فهي حقيقة التكليف فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي حمل أمانة التكليف في حين أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، قال تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ

١()سورة هود: الآية /٦١ .

٢()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٢٦٤/٥ .

عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[١]، فالغرض من ذكر السموات والأرض والجبال هو الإشارة إلى عظمة هذه التضحية وتبعتها، وإنّ الإنسان هو المخلوق الوحيد من بين الكائنات الذي يستطيع أن يجاهد نفسه الأمّارة وشهواتها، ويقاوم أهواءها ونزعاتها[٢].

والتكليف مخاطبة الإنسان بمضمون الخلافة، وتمكينه من الاختيار بين أن يفي بما كلف به، وبين أن يخل بالتزامها على أساس من حريه الإرادة في الاختيار بين الإيفاء أو الإخلال بعد التبصر بعواقب كل من الطريقين، إن التكليف على أساس من حرية الإرادة هو السبيل الوحيد إلى الترقي والاكتمال في منهج العبودية، الذي هو روح الخلافة ففرصة الاختيار، بين اتباع الهوى والخلود إلى نوازع الهبوط، وبين اتباع الأمر الإلهي والتسامي إلى الأفق الأعلى، هي التي تمكن الإنسان من مغالبة الهوى لتحقيق التسامي في ضرب من الجهاد النفسي، الذي يؤدي إلى الترقي والاكتمال شيئا فشيئا عبر التفاعل مع الكون آخذاً بالأوامر الإلهية فعلاً وتركاً حتى الوصول إلى الإنسان الخليفة[٣].

بحكم أنّ الله ﷻ هو المطلق، فالطريق أيضاً لا ينتهي، هذا الطريق طريق الإنسان نحو الله ﷻ هو اقتراب مستمر بقدر التقدم الحقيقي نحو الله ﷻ، ولكن هذا الاقتراب يبقى اقترابا نسبيا، يبقى مجرد خطوات على الطريق من دون ان يجتاز هذا الطريق، لان المحدود لا يصل إلى المطلق، والكائن المتناهي لا يمكن أن يصل إلى اللامتناهي، فالفسحة الممتدة بين الإنسان وبين المثل الأعلى، فسحة لا متناهية، أي انه ترك له مجال الإبداع إلى اللانهاية، مجال التطور التكاملي إلى اللانهاية، باعتبار أن الطريق الممتد طريق لا نهائي[٤]

١()سورة الأحزاب: الآية /٧٢ .

٢()ينظر: مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف، ٢٤٤/٦ .

٣()ينظر: النجار، عبد المجيد: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ٦٤ .

٤()ينظر: الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنية، ٧٦ .

وما كان الإنسان ليصل إلى تلك الدرجة دون تكليف فالسماوات والأرض والجبال وكل المخلوقات الأخرى مسخّرة على قانون ثابت، وتظل ثابتة للوضع طيلة الأداء، لا فرص لها في الارتقاء الذاتي لتمارس عبر الخلافة هذه المهمة الوجودية التي أنيطت بعهدة الإنسان كما رسمتها العقيدة الإسلامية، بما بنيت عليه من الترقي الإنساني فرداً ومجتمعاً عبر التفاعل مع الكون، اعتباراً وتعميراً في خط العبودية لله ﷻ من شأنها أن تطفئ على الوجود الإنساني القيمة، وأن تجعل منه المخلوق الأعظم في الكون، إذ هي مهمه تفسح أمامها من الآمال ما يدفع به إلى المزيد من الفعل في الكون، فالهدف المقصود بعيد ولكنه مرئي واضح وهو الاقتراب من الله ﷻ بإنجاز الطاعات، وليس الدفع إلى الارتكاز بالإنسان إلى مهاوي الهلاك والتدني بالذات الإنسانية لاستقالة من عمارة الكون، والسقوط في التظالم، وممارسة السَحق للكرامة الإنسانية، من شعور باليأس والقنوط لما يظن أنّ حياته قد استنفذت أغراضها وأنَّ وجوده في الكون اضحى ضربا من العبث وهو ما سقطت فيه بعض المجتمعات[١]

ثانياً: الاستخلاف الخاص

وهو استخلاف فرد معيّن وهو مقصور على الأنبياء والأولياء، قال تعالى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[٢] والخليفة هو المدبر للأمور من قبل غيره بدلا من تدبيره، فداود لما جعل اللهﷻ إليه تدبير الخلق فكان بذلك خليفة، و لذلك يقال: فلان خليفة اللهﷻ في أرضه إذا جعل إليه تدبير عباده بأمره، أو معناه جعلناك خليفة لمن كان قبلك من رسلنا[٣]

أعطى اللهﷻ لداود من موقع الخلافة الشرعية في الأرض من خلال صفته الرساليّة التي تُبَلّغ فيها الرسالة للناس وتحرّكها في حياتهم، وتجسّدها واقعا حيّا في

١()ينظر: النجار، عبد المجيد: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ٦٥ .

٢()سورة ص: الآية / ٢٦ .

٣()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٥٥٦/٨ .

صفاته الشخصية التي تتمثل فيها المعاني الروحية، حتى ترسخ قيم الرسالة في حياة الناس والالتزام الشرعي الأخلاقي بكل حلالها وحرامها، ليكون قدوة لهم، و ليست هذه الخلافة مجرّد حالة تكريمية، أو موقع عمليّ في حركة الحياة العامّة بعيدا عن موقع السلطة الحاكمة، بل هي حركة في الحكم والسلطة العادلة، ﴿...فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ...﴾ لأن موقعك هو موقع إقامة الحق في الفكر والواقع على مستوى الدعوة، وعلى مستوى الحكم في الخلافات التي تحدث بين الناس، وعلى صعيد ما يمارسونه من سلوكهم العام والخاص، والخليفة الرسالي هو الذي يجعل هواه العملي تبعا لرسالته، فلا حرية له في أن يكون له هواه الخاص المنطلق من مزاجه الذاتي وعلاقاته الشخصية، وملاحظاته الخاصة الحادثة من انفعالاته وعواطفه؛ لأنه مسئول عن إدارة شؤون الناس العامة وعن الوصول إلى القول الفصل في قضاياهم العملية في الحياة، مما يفرض فيه أن يعيش التجرد من عاطفته وأن يكون موضوعيا في نظرته إلى الأمور، لئلا ينحرف عن سبيل اللهﷻ، فيؤثر تأثيرا سلبيا على تصرفاته الخاصة في التزامه الشرعي الأخلاقي، وعلى حركة العدل في الحكم بين الناس[1].

إنّ مهمه الخلافة على أساس من عمارة الأرض تسير بمنهج العبودية لله ﷻ، فوظيفة الخلافة لمّا كانت هي الغاية من حياة الإنسان فإنّها ستمثل المحور الذي ترجع إليه كل منازعات في الفكر والسلوك، والخيط الذي ينتظر كل حركة وسكون في حياته، وهي بهذا المعنى تكون منهجاً شاملاً في التصرف الإنساني سواء في سياسة نفسه فرداً ومجتمعاً، أو في تعامله مع الكون، أو في صِلته بخالقه، إذاً حقيقة الخلافة ملتقية بالذات الإنسانية عبر التفاعل مع الكون على خط العبودي لله ﷻ.

يُلحظ من ذلك إنّ من مقومات الاستخلاف هو التسخير، فلولا قانون التسخير في الموجودات، لما تمكن الإنسان من القيام بعمارة الأرض وفق مبدأ الاستخلاف الذي أراده اللهﷻ، وبالنظر إلى هذا الكون بما فيه من الجمال الطبيعي، والشعور بالبهجة الرائعة التي تملئ النفس عند النظر إلى النجوم، وأطوار القمر، وشروق

١()ينظر: فضل الله، محمد حسين بن عبد الروف: من وحي القرآن، ٢٥٣/١٩ .

الشمس وغروبها، والجبال والبحار بما فيها من خيرات، والأشجار بما فيها من ثمار، كل ذلك يهز مشاعر الإنسان إعجاباً بهذا الكون الذي أوجده ودبره الخالقﷻ وسخّره وذللـه للإنسان في الانتفاع، وعمارة الأرض وفق مبدأ الاستخلاف الذي خلق الإنسان له، من خلال قانون التسخير يبث الله ﷻ قدرته الإلهية في الكون، فهذا القانون هو تعبير وتجسيد وتحقيق لقدرته ﷻ

عني القرآن الكريم عناية فائقة، واهتم اهتماماً بالغاً في هذه الخصائص، ولا ريب في ذلك؛ فالقران الكريم كتاب هداية، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، وبقدر ما يدرك الإنسان من هذه الخصائص والمميزات ويتعامل معها بصورة صحيحة، بقدر ما يحصل له من القوة والسعادة والرخاء، وإذا ما تكاسل وتقاعس عن العلم والعمل بتلك الخصائص يصيبه البؤس والضعف والانكسار.

الفصل الثالث: ميادين قانون التسخير في القرآن الكريم وفوائده

المبحث الأول: ميادين قانون التسخير في القرآن الكريم

المطلب الأول: تسخير الأفلاك

المطلب الثاني: تسخير الماء

المطلب الثالث: تسخير الأنعام و النبات

المطلب الرابع: الرياح

المبحث الثاني : فوائد قانون التسخير على المستوى العقدي

المطلب الأول: فوائد قانون التسخير في تثبيت الواحدية

المطلب الثاني: فوائد قانون التسخير في تأييد الأنبياء

المطلب الثالث: فوائد قانون التسخير في تحقيق العبوديّة

المبحث الثاني: فوائد قانون التسخير على المستوى الفقهي

المطلب الأول: قانون التسخير في المباحث الفقهية

المطلب الثاني : نماذج من المسخّرات وفوائدها في العبادات

المبحث الرابع: فوائد قانون التسخير على المستوى التنويري

المطلب الأول: قانون التسخير والأمر بالتفكر

المطلب الثاني: أهمية التفكر بقانون التسخير

الفصل الثالث: ميادين قانون التسخير في القرآن الكريم وفوائده

لابد من بيان ميادين التسخير في الكون واستخلاص الفوائد وتوضيحها على مستويات، المستوى العقدي والمستوى الفقهي والمستوى التربوي... وكما يأتي :-

المبحث الأول: ميادين قانون التسخير في القرآن الكريم

لقد بيّن القرآن الكريم أنّ الإنسان خليفة الله ﷻ في الأرض، يقيم فيها شرعه ويعمل على إعمارها وإصلاحها، ولذلك سخر الله ﷻ الكون بكل مكوناته لخدمة الإنسان وجعله مذلل له ليتمكن من تحقيق مهام الاستخلاف، ومن الآيات الدالة على هذا التسخير قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾[1]، وقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[2]، ولعل في توضيح القرآن الكريم لحقيقة التسخير أعلاه تنبيه للإنسان إلى أهمية الحفاظ على المسخّرات لكونها مذللة لخدمته، وذكر منافعها الاقتصادية، والدعوة إلى الافادة الاقتصادية منها، وما في ذلك من إشارات إلى أهمية الحفاظ على هذه العناصر لأهميتها المعيشية لحياة الإنسان، ونعرض المسخّرات ومنافعها في القرآن الكريم.

المطلب الأول: تسخير الأفلاك

هذا التسخير يكون بإرادة الله ﷻ وحده بما يتناسب مع شؤون الخلق ومصالحهم، فالله ﷻ سخّر جميع الظواهر الكونية جواهر واعراض من أجل نفع الإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3]، وجه تسخير الشمس والقمر و الليل والنهار، ان الليل و النهار إنما يكون بطلوع الشمس وغروبها، فما بين غروب الشمس الى

١() سورة البقرة: الآية /٢٩ .

٢()سورة لقمان: الآية / ٢٠

٣()سورة النحل: الآية /١٢ .

طلوع الفجر، وهو غياب ضوء الشمس، فهو ليل، وما بين طلوع الفجر الى غروب الشمس، فهو نهار، فالله ﷻ سخّر الشمس على هذا التقدير لا تختلف، لمنافع خلقه ومصالحهم و ليستدلوا بذلك على أنَّ المسخّر لذلك و المقدر له حكيم ثم بين ان في ذلك التسخير لدلالات لقوم يعقلون عن الله ﷻ ويتبينون مواضع الاستدلال بادلته(١).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾(٢)، أي هذا الليل والنهار خلفة لتكون مادة اعتبار وإدراك لمن أراد أن يتذكر، ويعرف قدرة الله ﷻ وخلقه، وإبداعه في التكوين، فيذكر قدرة الله ﷻ الخلاق العليم، وأنّه ليس كمثله شيء، وأّنه خالق كل شيء، والمنعم على كل شيء، وأراد أن يشكر على ما أنعم بالطاعة، وفي هذا التعبير الحكيم إشارة إلى تبعة الإنسان في إهماله أو اعتباره؛ لأنه ﷻ قال لِمَنْ أَرادَ فإرادته هي الموجهة له بعلم الله العلى الكبير، وبهذه الإرادة يستحق الثواب ويستحق العقاب، والله ﷻ يهدى من أراد الهداية بالتذكر و شكر النعمة، وهنا للدلالة على التردد بين أمرين، أولهما، التذكر، والأخرى التي تكون بعد التذكر، وهو الشكور، وإن الليل و النهار من تعاقب الشمس و القمر في الحس، وهما مستمران في دأب وتوال(٣)

المطلب الثاني: تسخير الأرض

من الآيات القرآنية التي أشارت إلى تهيئة وتمهيد الأرض، بما سهل الحياة فيها، وسهل ممارسة الأنشطة الاقتصادية للانتفاع من خيراتها، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾(٤)، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٥)، مهد الأرض وهيّأها من أجل راحة الإنسان، فلا هي صلبة يستحيل

١()ينظر: ينظر: الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ٣٦٦/٣ .

٢()سورة إبراهيم: الآية/ ٣٣ .

٣()ينظر: ابو زهرة، زهرة التفاسير، ١٠/ ٥٣١٠ .

٤()سورة النبأ: الآية/٦

٥()سورة الزخرف: الآية/ ١٠ .

زراعتها وبناؤها، ولا هي هشّة يغرق فيها من عليها، والسبل هي الطرق السهلة بالرغم من وعورة الأرض، كما جعل طرقاً واضحةً حتى في البحار، وعلى الإنسان أن يكتشفها حتى يهتدي الى أقرب الطرق الموصلة بين مكانين [١].

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾[٢]، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾[٣]، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾[٤]، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا...﴾[٥]، فيها إشارة إلى أن الأرض تم تذليلها لينتفع بها الإنسان، (استعير الذلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقتها تشبيها بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة على طريقة المصرحة، والمناكب: تخييل للاستعارة لزيادة بيان تسخير الأرض للناس فإن المنكب هو ملتقى الكتف مع العضد، جعل المناكب استعارة لأطراف الأرض أو لسعتها، وفرع على هذه الاستعارة الأمر في فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِها فصيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة تذكيرا بما سخّر الله لهم من المشي في الأرض امتنانا بذلك، ومناسبة وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ أن الرزق من الأرض، والأمر مستعمل في الإدامة أيضا للامتنان، وبذلك تمت استعارة الذلول للأرض لأن فائدة تذليل الذلول ركوبها والأكل منها. فالمشي على الأرض شبيه بركوب الذلول، والأكل مما تنبته الأرض شبيه بأكل الألبان والسمن وأكل العجول والخرفان والذلول لها منكبان والأرض ذات متسعات كثيرة)[٦].

﴿... وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[٧]، ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ

١()ينظر: المدرَسي: من هدي القرآن، ٤٣٣/١٢ .

٢()سورة الذاريات: الآية/ ٤٨ .

٣()سورة نوح: الآية/ ١٩ .

٤()سورة البقرة: الآية/ ٢٢ .

٥()سورة الملك: الآية/ ١٥ .

٦()ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٩/ ٣٠.

٧()سورة البقرة: الآية/ ٣٦ .

سُطِحَتْ﴾[1]، ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا...﴾[2]، ونجد في الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[3]، وصف سبحانه الأرض في هذه الآيات بكلمة قرار، وفي غيرها بكلمة مستقر وفراش ومهد ومهاد، والمعنى واحد[4]، وفيها الحث على العمل والإنتاج، ودعوة وإباحة للإنسان لاستثمار الأرض والانتفاع منها

ففي الآيات نجد الأرض مسخّرة مهيأة مذللة، وعلى الإنسان السعي الحثيث من لإنجاز التنمية، ومن ثم تحقيق الرخاء كذلك فيها إشارة قوية إلى ضرورة سيطرة العقيدة على كل تصرفات الإنسان حيال المسخّرات من وجوب الشكر وعدم الإفساد، قال تعالى: ﴿...هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾[5]، ففي هذه الآية الكريمة دعوة للإعمار والبناء، فمعنى استعمركم فيها طلب منكم أن تعمروها، وعمارة الأرض إنما تتم بالزراعة والبناء والإحياء والإصلاح والبعد عن كل فساد.

بمعنى ما أنشأكم من الأرض إلّا هو، و لا اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها غيره، و إنشاؤهم منها هو: خلق آدم من تراب، واستعمارهم فيها هو: أمرهم بعمارتها، واسْتَعْمَرَكُمْ من العمر، نحو استبقاكم، من البقاء، أي أعمركم فيها دياركم ثمّ هو وارثها منكم إذا انقضت أعماركم، و بمعنى: جعلكم معمرين دياركم فيها[6]، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾[7]، فإن (مِمَّا فِي الْأَرْضِ) هو تعبير عن الموارد التي تزخر بها البيئة، وأما أكل الحلال الطيب فهو الانتفاع من خيرات البيئة.

١()سورة الغاشية: الآية/ ٢٠ .

٢()سورة غافر: الآية/ ٦٤ .

٣()سورة الأعراف: الآية/ ١٠ .

٤()ينظر: مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف، ٤٦٧/٦.

٥()سورة هود: الآية/ ٦١ .

٦()ينظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير جوامع الجامع، ١٥٢/٢.

٧()سورة البقرة: الآية/ ١٦٨

المطلب الثاني: تسخير الماء

ويتمثل بما يلي:

أولاً: تسخير المطر

ويظهر في قوله تعالى:﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[١]، ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٢]، فالمقصود هنا من عبارة وفي السماء رزقكم، وما أنزل الله من السماء من رزق، هو المطر[٣]، حيث تم حذف كلمة المطر واستخدم بدلاً عنه كلمة الرزق؛ لأنه بسبب المطر ينمو النبات الذي هو رزق

وهو ما يتم توضيحه بياناً في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾[٤]، وقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۞ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[٥]، وأنبتنا عليها أزواجا من الزهور و الورود ذات بهجة في مناظرها فعلنا كلّ ذلك لتكون هذه الآثار مثيرة للبصيرة ومذكرة لكل عبد ينيب الى الحق متى عرفه بعد البحث عنه و التصفح له[٦] .

ونزّلنا من السماء ماء وهو المطر كثير البركة لأنه يملأ أجواف الأرض واحواضها البارزة من غدران وانهار وبحار فأنبتنا بسبب هذا المطر جنّات مبهجات وحبّا مآله الحصاد والتغذي به بعد ذلك كما أنبتنا النخل، بسبب هذا الماء حال كونها رشيدة في قاماتها مطلعات لثمرها منضدة في رطبها وتمرها فعلنا ذلك ليرتزق العباد به و أحيينا بهذا الماء أراضي هامدة ميتة لا حراك فيها

١()سورة الذاريات: الآية/٢٢ .

٢()سورة الجاثية: الآية/ ٥ .

٣()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠٩/٩.

٤()سورة البقرة: الآية/ ٢٢ .

٥()سورة ق: الآية/ ٩-١١ .

٦()ينظر: الكرمي، محمد: التفسير لكتاب الله المنير، ٣١٣/٧.

كما ذكر القرآن الكريم أهمية المطر في إحياء البلدة الميتة وهي البلدة التي قد أجدبت وقحطت، فلا زرع فيها ولا نبات، مثل ما جاء في الآية السابقة، ونجد في قوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[١]، إلى جانب الإشارة إلى أهمية الأمطار في الحصول على مياه الشرب، فإن فيها إشارة الى فائدة اقتصادية متمثلة في كلمة (تسيمون) أي ترعون دوابكم ويعود عليكم دَرُّها ونفْعُها، وبالطبع لولا الماء الذي جاء بسببه الشجر ما كان بالإمكان ممارسة الحرفة الاقتصادية (الرعي).

ثانياً: تسخير البحر

وفي نعمة خلق البحار وتسخيرها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢]، فالبحار تشكل القسم الأكبر من سطح الكرة الأرضية، وأنّ الماء أساس الحياة، ولا زالت البحار باعتبارها المنبع المهم في إدامة الحياة البشرية، وحياة جميع الكائنات الحية على سطح الكرة الأرضية، فما أكبرها من نعمة حين جعلت البحار في خدمة الإنسان، إذ جعل الله ﷻ في البحار لحما ليتناوله الإنسان من غير أن يبذل أدنى جهد في تربيته، بل أوجدته ونمّته يد القدرة الإلهية، وممّا يكشف عن عظم نعمة البحار استخراج المواد التجميلية من قاعه، وأنّ البحار أوسع بكثير من الطرق البرية، أقلّ كلفة، أكثر أهلية للحركة، أعظم وسيلة نقلية للبشر، وذلك بملاحظة كبر السفن المستخدمة في النقل وضخامة ما تحمله[٣].

هنا الجعل والخلق والتسخير هو من عند الله ﷻ فضلا ومِنّة[٤]، فهو القادر القاهر الذي ذلّل كل شيء للإنسان ليسهل بلوغ غايته، وتحصيل رزقه، ومواقع حاجته

١()سورة النحل: الآية/ ١٠.

(٢)سورة النحل : الآية / ١٤ .

٣()ينظر: مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ٨/ ١٤٩-١٥٢ .

(٤)ينظر: الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط ٤١٧/٩.

التي لا يستطيع بلوغها من دون ذلك التسخير، ونجد في القرآن الكريم عند ذكر البحر تذكر الفُلك، ولعل من أهم المنافع للبحر جريان السفن فيه لنقل البضائع والركاب، فعندما جاء ذكر عن تسخير البحر تم ربطه بذكر الفلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]، وعندما جاء ذكر عن تسخير الفلك تم ذكر البحر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾[2]، ذكر فوائد اقتصادية أخرى للبحر، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3]

المطلب الثالث: تسخير الأنعام و النبات

ويتمثل بالمسخّرات من الحيوانات والنباتات:

أولاً: تسخير الأنعام

من نعم الله ﷻ على الإنسان أن سخَّر له الأنعام، مذللة خاضعة له مطيعة، فالدواب التي سخَّرها الله ﷻ لنفع الإنسان، البعض منها أكثر قوة بكثير من الإنسان، وليس لها عقل يعلمها الطاعة والانقياد له [4]، ولكن الله ﷻ جعل من تلك الأنعام ذليلة سهلة تحت المطاوعة الإلزامية قسراً، وبالقوة أحياناً، فهي مسلوبة الإرادة مكرهة، فهذ الوجه من التسخير هو ما كان قسراً من غير إرادة .

الإنسان يذلل الدواب للركوب ما كان منها ذوات الأربع، فبعضها سخَّرها الله ﷻ مسطحة الظهر مستوية، سهلة المركب مطيعة قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ

١()سورة الجاثية: الآية/ ١٢.

٢()سورة إبراهيم: الآية/ ٣٢.

٣()سورة فاطر: الآية/ ١٢.

(٤)ينظر: الفخر الرازي، محمد بن عمر: التفسير الكبير مفاتيح الغيب، ط٣، تح: دار إحياء التراث العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ، ٦٢٢/٢٧.

الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ۞ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾(١) فسخَّر الله ﷻ الدواب فاهمة لمراد الإنسان، قابلة للترويض حتى الصبي يمكن يروض تلك الدواب بفضله ﷻ (٢).

لتسخير الحيوانات منافع عديدة، وهو ما يعني أنه لابد من تقديرها وحسن رعايتها، قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣) فبعد قوله تعالى (والأنعام خلقها لكم) تم مباشرة ذكر فوائدها متمثلة في الحصول على الدفء والمنافع والطعام والجمال وحمل الاثقال إلى بلاد بعيدة.

ثانياً: النبات

قال تعالى: ﴿... وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ۞ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ...﴾(٤)، أي أن الله ﷻ أخرج أنواعًا مختلفة من النبات، وكلوا من هذه الأنواع من النبات وارعوا حيواناتكم، وفي ذلك بيان لنعمة بيئية وربطها بدعوة اقتصادية للاستهلاك والرعي(٥)، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

١()سورة الزخرف: الآية١٢-١٣

(٢)ينظر: مكارم شيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،٢١/١٦.

٣()سورة النحل: الآية/ ٥-٨.

٤()سورة طه: الآية/ ٥٣-٥٤ .

٥()ينظر: الحائري الطهراني، علي: مقتنيات الدرر، ٨٩/٧.

الْمُسْرِفِينَ﴾[1]، وهنا بعد أن تم ذكر صنوف من البيئة النباتية متمثلة في الجنات المعروشات وغير المعروشات والنخل والزرع المختلف أُكله والزيتون والرمان المتشابه وغير المتشابه، مع بعدم تجاوز حدود الاعتدال في إخراج المال وأكل الطعام وغير ذلك.

الله ﷻ هو الذي خلق الزرع، على تنوّع أشكاله وألوانه وأثماره، فهناك البساتين المعروشة (المرفوعة الأغصان على دعائم، وهناك البساتين غير المعروشة، المتروكة أصولها من غير دعائم ، والنخل والزرع، كالحنطة والشعير والعدس والرز وغيرها، أو في طعمه ورائحته، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً يشبه بعضه بعضا، كثمر الرمان، وإن كان قد يختلف في طعمه، من حيث الحلاوة، والحموضة، وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ، يختلف في شكله وطبيعته)[2]، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

إنّ الماء المنزل من السماء، وما يؤدي إلى إنبات الأرض من النباتات التي يأكلها الناس والحيوانات، وظهور حسن هذه الأرض وبهاؤها، يجب أن لا تؤدي إلى غرور الإنسان وتفاخره بقدرته على السيطرة على البيئة وحصاد ثمارها والانتفاع بها، لأن الله ﷻ قادر على جعل الزروع والنباتات محصودة مقطوعة لا شيء فيها، كأن لم تكن تلك قائمة قبل ذلك على وجه الأرض.

المطلب الرابع: الرياح

الرياح أحد المسخّرات له أيضاً منافع، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ

١()سورة الأنعام: الآية/ ١٤١ .

٢()ينظر: فضل الله: من وحي القرآن، ٣٤٢/٩.

٣()سورة يونس: الآية/ ٢٤ .

لَوَاقِحَ...﴾[1]، أرسلنا الرياح وسخرناها تلقح السحاب، وتحمل المطر والخير والنفع، فأنزلنا من السحاب ماء أعددناه لشرابكم وأرضكم ومواشيكم، وما أنتم بقادرين على خزنه وادّخاره، ولكن نخزنه لكم رحمة بكم، وإحسانًا إليكم[2]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ...﴾[3]

أي أن الرياح التي تحمل السحاب، تبشر الناس بالمطر رحمة منه، فإذا حملت الرياح السحاب المحمل بالمطر تحيي البلد الميت الذي أجدبت أرضه، ويَبِست أشجاره وزرعه، فينزل الله به المطر، فيخرج به الكلأ والأشجار والزروع، فتعود أشجاره محملة بأنواع الثمرات، وهناك إشارة في القرآن الكريم لدور الرياح في إجراء السفن في البحر بأمر الله ﷻ ومشيئته، للابتغاء من فضله بالتجارة وغيرها[4]، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[5].

ومنها تسليطها للعذاب قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[6]

١()سورة الحجر: الآية/ ٢٢ .

٢()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ١٤٦/١٢.

٣()سورة الأعراف: الآية/ ٥٧.

٤()ينظر: مكارم شيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١٨٩/١٦.

٥()سورة الروم: الآية/ ٤٦.

٦()سورة الحاقة: الآية/ ٧ .

المبحث الثاني : فوائد قانون التسخير على المستوى العقدي

القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد للناس كافة يهدي للتي هي أقوم، بمعنى الأكثر استقامة واعتدالاً، يتمثل بالعقيدة الواضحة القابلة للفهم والإدراك والتي تكون أساساً لكل عمل، وهي الأقوم الخالية من الخرافات والتي توائم بين الإنسان وعالم الوجود(١).

المطلب الأول: فوائد قانون التسخير في تثبيت الواحدية

من اجل تثبيت العقيدة في توحيد الخالقية والربوبية، استند القرآن الكريم في الغالب تارة إلى آيات الأنفس، قال تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢)إذ إنّ جملة وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً في هذه الآية محل بحث ونظر في آيات النفس، فإن الإماتة والإحياء أمور وجودية تحتاج إلى علة فاعلية(٣).

تارة اخرى يستند إلى آيات الآفاق، قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٤) ففي هذه الآية استفهام تعجبي من إنكار المشركين وجعل الشريك لله ﷻ الذي خلق الأرض: جبالها، وسهولها، وهضابها، والبحار، والانهار... في يومين، فقد استدل ﷻ على إثبات ذاته وصفاته بأفعاله، فهي دالة على إثبات صفاته(٥).

تارة ثالثة يجمع بين آيات الآفاق والأنفس، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ۞ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(٦)، فهناك تنوع في أساليب القرآن الكريم

١()ينظر: مكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٤٠٨/٨ .

٢()سورة البقرة: الآية /٢٨ .

٣()ينظر: الآملي، الشيخ عبدالله الجوادي الطبري: تسنيم في تفسير القرآن، ط٢، تح: محمد عبدالمنعم الخاقاني، دار الإسراء، بيروت – لبنان، ٢٠١١م، ٧١٦/٢ .

٤()سورة فصلت: الآية/٩ .

٥()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٦/٩ .

٦()سورة الذاريات: الاية/٢٠-٢١ .

لتثبيت الواحدية وبيان أهميتها من خلال قانون التسخير، والوصول إلى التوحيد وترك الشرك، من خلال الاستدلال بالقانون الذي جُبلت عليه المسخرات، فقد أنكر على الكفار اتخاذ الشريك مع الله ﷻ في العبادة، في الوقت الذي يقرون فيه بالخالقية، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ الله فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ... وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُون﴾ (١)، فالسؤال هنا تعجبي من الإيمان الباطل للمشركين، مع اعترافهم بأنّ الله ﷻ الخالق الفاعل، واعترافهم بأنّه الذي أنشاء السماوات والأرض وأخرجهما من العدم، إلا إنّهم منكبون على عبادة الحجر الذي لا ينفع ولا يضر، فبقدرته وتدبيره أوجد قانون لكل المسخرات بطريقة واحدة ومستمر وثابتة لا تختلف(٢)،وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على كمال قدرته وتمام نعمته وحسن تدبيره، فالقانون الذي تسري عليه المسخّرات أقرّ بوجود خالق لهذا النظام الأحسن والأكمل.

إنّ خلق السماوات والأرض من الإيجاد إلى التسخير للشمس والقمر والمخلوقات من التدبير الذي يتفرع عليه أرزاق الإنسان والحيوان...فهذا الخلق والتسخير لا ينفك أحدهما عن الآخر، فالذي يعترف بالخالقية لابد له من الاعتراف بتسخير المخلوقات وتدبيرها من قِبل خالقها(٣)

التدبير هو التسخير الذي لأجله خُلِق المُسَخَّر، وهو عباره عن خاصية مودعة في بواطن المخلوقات بأمر من الله ﷻ، لينظمها بصوره عادله ولتقوم على أساسها كل العلاقات والروابط بين العله والمعلول، وسائر الموجودات فيما بينها، فكل كائنات المادية والأحياء والإنسان، كلٌ بما يناسب وجوده، فهو منتظم بقوانين وتواصل

١()سورة العنكبوت: الآية/٦١,٦٣ .

٢()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٤٥٧/٨ .

٣()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ١٤٨/١٦ .

الكائنات حياتها بهذه القوانين[١].

الله ﷻ هو خالق العالم وحافظاً له بتلك القوانين، التي أقام على أساسها الكون وهي نفسها تحفظ العالم من الانهيار والتبعثر والفناء، وكل ما هو موجود في هذا العالم يرتبط ارتباطا كاملا بالقدرة الإلهية والعلم الإلهي؛ لأنه هو الذي أوجدها وخلقها وهو الذي أرساها في هذا العالم، فهذا الخلق والتنظيم عملا إراديا ذا قواعد لا يمكن أن تتغير وتبدل إلا في حالات استثنائية، تظهر في صوره خارقه للعادة من باب المعجزة - وهي أيضاً تخضع لقواعد خفيه واستثنائية - ومن دون هذه القوانين لا يستقيم الكون، فالخلق دون تنظيم وتدبير وتقدير لا يليق بالمقام الإلهي، إذ أنّ الموجودات تخضع لقانون عام[٢].

أشار الله ﷻ في قانون التسخير السائد في الطبيعة وأنه دليل التوحيد بقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[٣]، إذ نفى الله ﷻ عنه الولد والشريك وإنّ الخلق شامل لكل الموجودات[٤]، وهذا الخلق والتقدير مظهر من مظاهر تجلي الخالق.

هذا رد على الثنويّة والوثنيّة في نفي الولد والشريك وإثبات الواحدية من خلال الخلق والتقدير للكون بقانون يناسبه، وهيّأ له ما يصلح معه استمرارية الحياة بحكمته ﷻ وإرادته[٥]، فالمالك ﷻ لا يمكن أن يكون له شريك في الملك ولا ولداً، وإنّ الخالق هو الذي قدّر الكون بقانون متقن بديع منتظم فلا مجال للصدفة في ذلك الإتقان والإبداع والانتظام[٦].

١()ينظر: الخلخالي، محمد مهدي: الحاكمية في الإسلام، ٧٢٢ .

٢()ينظر: المصدر السابق، ٧٢٣ .

٣()سورة الفرقان: الآية /٢ .

٤()ينظر: الجزائري، نعمة الله بن عبد الله: عقود المرجان في تفسير القرآن، ٤٥٠/٣ .

٥()ينظر: الشوكاني، محمد: فتح القدير، ٧١/٤ .

٦()ينظر: مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف، ٤٤٨/٥ .

ارسى الله ﷻ قانون التسخير في الموجودات من هذا العالم حتى تشق طريقها إلى الكمال اللائق بها، بقانون خاص مُعيّن قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[١]، فإجابة موسى عليه السلام لفرعون كانت جامعة مانعة وبعبارةٍ قصيرةٍ عن معرفة الله ﷻ، إذ أشار إلى أصلين أساسيين هما الخلق أي الإيجاد من العدم والهداية التكوينية والتدبير، وكل منهما دليل وبرهان يوصل إلى معرفة الله ﷻ وتوحيده[٢].

المراد من الإيجاد والهداية هو الهداية التكوينية بقانون التسخير لتلك المسخّرات، ولعل أكثر المباحث العقدية التي عبّرت عن ذلك هو برهان النظم، ففيه بيان واضح وصريح أنّ هذا الكون يسير بقانون ثابت منتظم منذ خلقه وإيجاده من العدم، وهذا النظام المتقن هو من صنع صانع واحد أتقن هذا الصنع، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[٣]، فمن خلال اظهار بديع صنعه في الجبال وعظمتها، يتجلى لنا الإيمان ويترسخ في الأذهان أنّ الذي أوجدها بهذا الإتقان هو الخالق الواحد، ويرتكز برهان النظم على قضيتين أساسيتين وهي أنّ هناك قانون دقيق ومحسوب يحكم الموجودات في العالم وأينما وجد هذا القانون منتظماً دقيقاً محسوباً فمن غير الممكن أن يكون وليد الصدفة بل لا بد من أنّه يصدر من عليم قادر عظيم[٤].

وإنّ نظام الخليقة هو الأكمل والأحسن ولا يتصور ما هو أكمل وأفضل مما عليه الآن، قال تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾[٥]، فكل موجود خُلق على النظام الأكمل الأتم، فهو حسن ومتقن يدل على قدرة الخالق

١()سورة طه: الآية /٥٠ .

٢()ينظر: مكارم شيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤/١٠ .

٣()سورة النمل: الآية / ٨٨ .

٤()ينظر: الشيرازي، ناصر مكارم، معرفة، محمد هادي: تفكروا في عظمة خلق الله، ط١ ، جمعهُ: محسن عقيل، دار الحجة البيضاء، لبنان، ١٤٢٢هـ ، ٩-١٠ .

٥()سورة السجدة: الآية /٧ .

وعظمته في صنعه، وما من شيء في الوجود إلا ونرى فيه النظام والتناسق الذي يدل على العليم الحكيم في خليقته[١].

إنّ فعل أي فاعل من حيث الكمال والنقص يتناسب مع فاعلية الفاعل من الصفات والكمالات، وكل ما كان الفعل عارياً عن النقص يكون فاعله كذلك منزهاً عن أي نوع من أنواع النقص والعيب، وإذ إنّ الله ﷻ يوصف بالكمالات على وجهها الأتم، يكون فعله أيضاً أكمل فعل وأتم[٢].

يُلحظ من ذلك أنّ من فوائد قانون التسخير في القرآن الكريم هي إثبات الواحدية، ولولا قانون التسخير لما تبيّنت الحقيقة في إثبات الخالق أنّه مدبر للكون ومسخره بنظام دقيق متقن، فلا مجال للعبثية والصدفة في مسخّرات تجري بأمره سبحانه وتعالى.

المطلب الثاني: فوائد قانون التسخير في تأييد الأنبياء

هناك تسخير خاص للأنبياء الله ﷻ بيّنه سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، وله فوائد، تتجلى في إثبات النبوة وإلقاء الحجة على المعاندين:

أولاً: التسخير لداود عليه السلام: سخّر الله ﷻ مع داود الجبال والطير فقال: ﴿... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٣]، إنَّ كلمة التسخير توحي بوجود نوع من المشاركة الحقيقية التي لا نحيط بعلمها، ولكن نؤمن بها من خلال الله ﷻ الذي يعلم من أسرار خلقه، ما لا نعلمه، مما اختص بعلمه، ولم يعطه لأحد من عباده[٤].

إنَّ داود عليه السلام كان له صوت حسن، فيه حنان وصفاء، والصوت الحسن هبة من الخالق العظيم، يمنحه للبعض من الناس، ليكون من الآيات الدالة على قدرة الله ﷻ،

١()ينظر: مغنية: التفسير الكاشف، ٦/ ١٧٨ .

٢()ينظر : السبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ع)، ٢٦-٢٧ .

٣()سورة الأنبياء: الآية / ٧٩ .

٤()ينظر: فضل الله: من وحي القرآن، ١٥/ ٢٥١ .

وأنعمه التي يتفضل بها على عباده. و أهمية هذه الهبة الربانية تكمن في كيفية استخدامها، إمّا للصلاح و الخير، وإمّا للفسق والشر، وداود عليه السلام قد استخدم هذه الهبة، كما يبيّن القرآن الكريم، في التسبيح لله الملك القدوس العزيز الحكيم، وكانت تتجاوب معه الجبال والطيور، مسخّرة بأمر ربّها، فتسبح بحمده- عز و جل- مع تسابيح داود عليه السّلام التي تتصاعد في الآفاق أناشيد شكر وطاعة وثناء، إن تسابيح الجبال والطير مع داود عليه السلام هي حقائق من القرآن تبيّن كيف أنَّ الله سبحانه وتعالى يخرق القوانين، والسنن، ويجعل الجبال والطير تُسبّح مع داود سبحانه وتعالى ليدلنا على أنَّ هباته وعطاياه سبحانه هي للحق، والخير [1]، فهذا التسخير تقشعر له الأبدان، فالمسخّرات تردد التسبيح والإنسان يغفل عن ذلك، فالجبال بعظمتها والطيور بلطافتها عابدة لخالقها الذي أوجدها .

ثالثاً: التسخير للنبي سليمان عليه السلام

آتى الله سبحانه وتعالى النبي سليمان عليه السلام ملكًا عظيما تمتزج فيه النبوّة بالقيادة الدنيوية، وخلافًا لغيره من الأنبياء الكرام اجتمع له في ملكه معجزاتٌ خارقة واستحال على الحُكّام من بعده أن يحظوا بمثل ما حظي به من عطاء رباني خارق للقوانين السارية في الوجود، لقد وفّق النبي سليمان عليه السلام في تسيير شؤونه بين السنن والخوارق سأل النبي سليمان عليه السلام ربه أن يعطيه من فضله وطلب منه منحة ينفرد بها بين الحكّام ، بل من دون الناس قاطبة، في قول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[2]، فاستجاب الله سبحانه وتعالى له وأعطاه من الخوارق ما لم يؤت غيره من بعده[3]، في قوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۞ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۞ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۞ هَذَا

١()ينظر: الزين، سميح عاطف: التفسير الموضوعى للقران الكريم، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ت)، ١٢/ ٩٣٨ .

٢() سورة ص: الآية / ٣٥ .

٣()ينظر:علم الهدى، علي بن الحسين: تنزيه الأنبياء عليهم السلام، ط١، الناشر:الشريف الرضي، قم، (د.ت)، ٩٨ .

عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]

١ ـ التحكّم في الريح: هذه الظاهرة الطبيعية أصبحت طيّعة بين يديه تأتمر بأمره[2]، كما قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[3]، وأعظم بهذا التحكّم منّة تُذهل العقول، نؤمن بها ونسبّح ربّنا الفعّال لما يريد، وإن لم نُحط بكلّ جوانب وحقائق هذه النعمة.

٢ ـ التحكّم في الجنّ: ولعلّ هذا التسخير أكبر، إذ لنا أن نتصوّر تطويع الله ﷻ لمخلوقات غيبية للإنسان، يسخّرها في خدمة مملكته ويردعها عن إيذاء الخلق، رغم ظنّ أكثر الناس أنّ لديها قدرات تفوق قدرات البشر، فيخشونَها ويعوذون بها، يقول سبحانه: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[4]، ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ۞ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾[5]، يستخدم سليمان عليه السلام مردة الجنّ لكفّ أذاهم من جهة، ولإشغالهم بالإنتاج النافع لمملكته من جهة أخرى، فإنّ الجنّ مخلوقات مسخّرة وقد خصّ الله ﷻ نبيه سليمان عليه السلام بتسخيرها له.

٣ ـ معرفة لغة الحيوانات : هذه منحة أخرى مَنّ الله ﷻ بها على سليمان عليه السلام لحكمة يعلمها هو سبحانه وتعالى، وكم تاقت البشرية وما زالت تتوق – وعلماء الطبيعة فيها بصفة خاصة – إلى إدراك لغة التواصل بين الحيوانات لأنّها بشهادة القرآن الكريم أمم

١()سورة ص: الآية / ٣٥- ٣٩ .

٢()ينظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير جوامع الجامع، ٤٨٣/٣ .

٣()سورة سبأ: الآية / ١٢ .

٤()سورة النمل: الآية/ ١٧ .

٥() سورة سبأ: الآية / ١٢-١٣ .

أمثالنا أي أن لها حياة مشتركة تقتضي تبادل الخطاب بشكل من الأشكال[١]، قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[٢]، أوتينا من كل شيء يؤتى الأنبياء والملوك ومن كل ما يطلبه طالب لحاجته إليه وانتفاعه به ومن كل شيء علماً وتسخيراً في كل ما يصلح أن يكون معلوماً أو مسخراً[٣]، ويتبيّن من سياق القصة أنّ تعليم الله ﷻ له، تجاوز الطيور إلى باقي الحيوانات، فقد فهم كلام النملة وهي ليست طيرا في قوله سبحانه: ﴿...قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ...﴾[٤] ، معرفة النمل بالنبي سليمان عليه السلام على طريق المعجزة الخارقة للعادة تسخيراً له[٥]، وهذا التسخير وذاك جُعل في يد الأنبياء لطف من الله ﷻ ولولاه لما تمكّن الأنبياء من اكمال مسيرتهم في التبليغ والدعوة، فالمسخّرات والقانون الذي جبلت عليه محل تأييد للأنبياء ودحض للكافرين.

المطلب الثالث: فوائد قانون التسخير في تحقيق العبوديّة

إنّ لبيان العبودية للمسخّرات أثرٌ في ثبات العقيدة عند الإنسان، فلا يستوحش المتعبد طريق الحق لقلة سالكيه فالكون كله يهتز من خشية الله ﷻ قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[٦]، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾[٧]، فكل شيء منقاد لله ﷻ، وهذا التسليم والسجود والقدوم رغبةً وطوعاً، فكل شيء في هذا الكون مسخر، ومسلم، وساجد، وطائع، وشاهد، وهو جند من جنود الله ﷻ، قال تعالى: ﴿... لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ

١()ينظر: الفيض الكاشاني: تفسير الصافي ٤ / ٢١٣ .

٢() سورة النمل: الآية / ١٦ .

٣()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٧ /٣٣٥ .

٤() سورة النمل: الآية / ١٩،١٨ .

٥()ينظر: الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ٨٤/٨ .

٦()سورة آل عمران: الآية/٨٣ .

٧()سورة مريم: الآية /٩٣ .

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض ...﴾[1]، إنَّ استيعاب عبودية المسخّرات من خلال قانونها التسخيري في الكون، له فائدة جليّة في تثبيت عقيدة الإنسان وتربيته وردعه عن ارتكاب المعاصي، فبمجرد الشعور بأنّ الأشياء كلها شاهدة ومطيعة لله ﷻ في يوم الحساب، فمن المستبعد الانغماس في المعاصي[2]، قال تعالى: ﴿...أَنطَقَنَا الله الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ...﴾[3]، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[4]، فيكفي الإيمان بطاعة وعبودية بمثل هؤلاء الشهود، للسير في طريق الحق والعدالة والنزاهة والتقوى ولثبات العقيدة [5]، فيومئذ تتكلم الأرض وتشهد، لمن صام وصلى واتقى وهدى... وتشهد على من أشرك وكفر وسرق وقتل...[6].

فالخالق للمسخّرات هو مدبرها، والذي يدبر مخلوقاته لابد أن يكون محيطاً بقانونها وبكل العلاقات التي تربط المسخّرات مع بعضها في عالم الوجود، ومثل هذه المعرفة ملازمة للخالق وحده لأنّه؛ يعلم بما خلق من المسخّرات وما يلزمها وعلاقاتها وانسجامها مع سائر المسخّرات الأخرى والقانون الذي جُبلت عليه، فهناك تلازم بين الخالقية والربوبية [7].

إنَّ معرفة العبودية للمسخّرات تأتي من توحيد الخالق والمربي لهذا الكون، فهو وحده مستحق للعبادة، وما سواه عبد خاضع له ذليل ومسخّر، فتوحيد الربوبية هو دليل على توحيد العبودية، ولمعرفة العبودية للمسخّرات لابد بيان حقيقة العبودية، وحقيقة الإدراك والشعور لدى المسخرات في خضوعها لموجدها ومربيها.

١()سورة الفتح: الآية/٤ .

٢()ينظر: الآملي: تسنيم في تفسير القرآن، ٥/٢٥٥-٢٥٦ .

٣()سورة فصلت: الآية/ ٢١ .

٤()سورة الزلزلة: الآية/٤ .

٥()ينظر: الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٥/٣٨٨ .

٦()ينظر: مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان، ٤/٧٩٠ .

٧()ينظر: الآملي: تسنيم في تفسير القرآن، ١/٤١٠-٤١١ .

أولاً: حقيقة العبودية للمسخّرات

تحدثت الآيات عن عبادات تقوم بها كل الموجودات: الإنس والجن والملائكة وحتى المسخرات من: التسبيح والحمد والسجود والصلاة، وكذلك وصفت بالخشوع والشفقة والتصدع من خشية الله ﷻ، والتسبيح في مفهومه العام هو السبح في عبادة الله ﷻ، أي الجري المستديم بلا فتور سواء كانت العبادة قول أو فعل أو نيّة، فإذا استمر العبد على أي عبادة من العبادات بلا فتور فهو مسبّح[١]، فتنقسم العبودية إلى عبودية عامة وتسمى التكوينية، وعبودية خاصة وتسمى التشريعية[٢].

١ ـ العبودية العامة التكوينية

هو أن الكل خاضعون ومسَلِّمون لقوانين الحياة والممات والمرض، فقانون التسخير يجري على جميع الكائنات، مؤمناً وكافراً، إذ يسيرون وفق القوانين التي وضعت لكل شيء، ويخضعون ومسَلمون لها، فهي تسير بأمر الله ﷻ شاءوا أم أبوا، فلا يستطيع أحد التحكم بهذا القانون وليس للإنسان سوى الطاعة، قال تعالى:﴿...وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[٣]، والمراد من جملة الاستسلام هو الانقياد والخضوع، منقادون لأمر الله ﷻ غير ممتنعين عن تدبيره وبما يضع الله ﷻ من العافية والأسقام واللذات والآلام والقبح والجمال، فينقسم هذا الاستسلام منهم ما يكون طوعاً ومنه ما يكون كرها، فالطوع كخلقة الإنسان وسيماً أو غنياً، فهو محب لذلك الحال غير كاره له، والكره كخلقة الإنسان قبيحاً أو فقيراً أو مريضاً، فهو يكره ما هو عليه ويحب الانتقال من هذا الحال إلى ما هو أفضل منه، كِلا الفريقين قد أسلم لخالقه خاضعاً لتدبيره[٤]، فالإسلام هنا هو الاستسلام والخضوع

١()ينظر: معرفة، محمد هادي: التفسير الاثري الجامع، ط١، مؤسسة التمهيد للثقافة و النشر، قم ١٤٢٨هـ، ٣٩٥/٢.

٢()ينظر: الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٣٦٤/٧ .

٣()سورة آل عمران: الآية/٨٣ .

٤()ينظر: الشريف الرضي: حقائق التأويل في متشابه التنزيل، ١٥١/٥ .

التام والطاعة الكاملة والالتزام بقانون التسخير الذي أوجده الله ﷻ في كل شيء[١]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾[٢]، وهنا العموم في العبودية[٣]، واصلها التذلل والخضوع والانقياد، فكل حادث هو عبد، والله ﷻ هو المعبود بذاته وصفاته وأفعاله وآثاره[٤]، أي إنّ كل ما في السماوات والأرض يأتي إلى الله ﷻ عبداً وهي العبودية التكوينية[٥]، فهي قيام وجود الموجودات بالله، وعبادته تكويناً، إذ تخضع ذوات الأشياء لله ﷻ ولا تقبل التبديل ولا الترك[٦]، فشروق الشمس قانون ثابت لا يمكن للإنسان سوى الخضوع له، والعمل على الاستفادة منه ومن غيرها من المسخرات.

٢ ـ العبودية الخاصة التشريعية

هي العبادة الخاصة بالعبد المطيع، فهي خضوعه لله ﷻ حباً وطمعاً في عبادته، ويجد المؤمن كماله في عبادة الخالق والمدبر، بأفعال وأقوال مخصوصة وفق شريعة كل نبي مرسل إلى قومه، وهي عبودية اختيار للمكلف، تقبل التبديل والترك[٧].

يُلحظ مما سبق أنّ الكائنات لا تختلف في العبادة التكوينية فهي عامة للجميع من الذرة إلى المجرة، والعبادة التشريعية فهي تخص الملائكة ومن كُلِف بالعبادة وفق الشريعة المنزّلة عليهم، وبيّن لنا القرآن الكريم إن عالم الوجود قطعة واحدة من الحمد والتسبيح، والمسخّرات كلها مسبّحة وحامدة لله ﷻ وأزيز هذا التسبيح والحمد يملأ الكون كله ولا يسمعه إلا المستبصرين المتأملين والعلماء الذين أضاء الله ﷻ قلوبهم

١()ينظر: العاملي: تفسير البيان الصافي في كلام الله الوافي، ٢٥١/٢ .

٢()سورة مريم: الآية/٩٣ .

٣()ينظر: الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم: تفسير مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار، ٥١/١ .

٤()ينظر: اصفهاني، محمد حسين: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٢٣٨ .

٥()ينظر: السلطان علي شاه، محمد بن حيدر: بيان السعادة في مقام العبادة، ١٦/٣ .

٦()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ١٨٢/١٦ .

٧()ينظر: المصدر السابق، ١٨٢/١٦ .

وأرواحهم بنور العبادة والإيمان به، قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾[1]، إنّ الخشية والتسبيح والسجود في كل شيء، كلٌ على حسب ما يليق به، فليس تسبيح الملائكة كتسبيح الإنسان، ولا تسبيح الإنسان كتسبيح الحيوانات والنباتات والجمادات[2]، فجميع الخلق متساوون تكويناً في التسبيح لله ﷻ، وإن عدم تسبيح الإنسان يعد تخلفاً عن عهده التكويني الفطري مع ربه، وشذوذاً عن واقع الكائنات[3].

ثانياً: الشعور والإدراك عند المسخّرات

إنّ كل شيء له أحساس بقدر يَعرف به الخالق، ولغة مخصوصة يعبر بها عن معرفته، فإذا به يسبّح لخالقه[4]، وعالم الوجود من الملائكة والإنس والجن، لها شعور وإدراك بما أفاض الله ﷻ عليهم، فيعبدون الله ﷻ على قدر معرفتهم بخالقهم، أمّا المسخّرات من: الحيوانات والنباتات والجمادات، لها نوع من الشعور بالرغم من عدم إدراكنا لهذا الشعور، وبذلك فهم يحمدون ويسبّحون ويخشعون ويخضعون لله ﷻ[5]، وهناك آراء في حقيقة هذا الحمد والتسبيح [6]:ـ

١ ـ التسبيح بلسان المقال

كل المسخّرات لها نوع من الإدراك والشعور سواء كانت هذه الموجودات عاقلة أو غير عاقلة، وهي تسبّح الله ﷻ وتحمده في نطاق عالمها الخاص، بالرغم من إننا لا نستطيع ادراك تلك العبادة ولا الإحساس بها وسماعها، وهناك آيات تؤكد هذا المعنى، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ

١()سورة الإسراء: الآية/ ٤٤ .

٢()ينظر: الشهرستاني: تفسير الشهرستاني المسمى مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار، ٤١٩/١ .

٣()ينظر: المدرَسي: من هدي القرآن، ١٣/١٥ .

٤()ينظر: المدرَسي: من هدي القرآن، ١٢/١٥ .

٥()ينظر: الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٤٦٤/١٥ .

٦()ينظر: المصدر السابق، ١٠/٩ .

يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾[1]، فالتسبيح على هذا الرأي تنزيه قولي كلامي وحقيقة الكلام الكشف عمّا في الضمير بنوع من الإشارة إليه والدلالة عليه.

الذي يكشف به عن معنى مقصود قول وكلام، وقيام الشيء بهذا الكشف قول منه وتكليم وإن لم يكن بصوت مقروع ولفظ موضوع، ومن الدليل عليه ما ينسبه القرآن إليه ﷻ من الكلام والقول والأمر والوحي ونحو ذلك، مما فيه معنى الكشف عن المقاصد وليس من قبيل القول والكلام المعهود عندنا جماعة المتكلمين باللغات، وقد سماه الله ﷻ قولاً وكلاماً، وعند هذه الموجودات المشهودة من السماء والأرض ومن فيهما ما يكشف كشفا صريحا عن وحدانية ربها في ربوبيته وينزهه تعالى عن كل نقص وشين فهي تسبح الله ﷻ [2]، استدلوا على كونه تسبيح مقال استناداً إلى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[3]، فلو كان هذا التسبيح تسبيح دلالة لم يكن التخصيص لداود فائدة، وإنّ معجزة داود هي موافقة تسبيح الجبال لتسبيحه، وقرع تسبيحها أسماع الناس وهو بلسان المقال دون لسان الحال[4]

إنّ لكل شيء تسبيح بمعناه الحقيقي، ولا معنى لحملها على التسبيح بلسان الحال[5]، وفي جملة الاستدراك من قوله تعالى: ﴿...وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾[6]، لاتفقهون تسبيحهم أي لو كان تسبيحهم لسان حال أوالمراد دلالة وجودهم على وجوده هي قيام الحجة على الناس مما يفقه الناس،لما كان للاستدراك بـ(لا يفقهون)من معنى[7].

١()سورة الإسراء: الآية/٤٤ .

٢()ينظر:الطباطبائي:الميزان في تفسير القرآن،١١٠/١٣، فضل الله: من وحي القرآن، ١٣١/١٤.

٣()سورة الأنبياء: الآية/٧٩ .

٤()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ١٩٠/١٧، الشوكاني، محمد: فتح القدير، ١٩٩/٥.

٥()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ١١٢/١٣ .

٦()سورة الإسراء: الآية/ ٤٤ .

٧()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ١٤٤/١٩ .

٢ ـ التسبيح بلسان الحال

أي بدلالة وجوده وصورته وإتقانه على وجود مصور حكيم، تماماً كما يدل الكتاب على الكاتب، واللوحة الجميلة على الرسام ومهارته، ولسان الحال عند البعض[١] أقوى وأبلغ في الدلالة من لسان المقال، عللوا ذلك بأن لسان المقال يحتاج إلى الدليل، أما لسان الحال فهي بذاتها دليل يؤدي إلى العلم واليقين، فكل فعل حسن ومتقن فهو يدل بفاعله بطبعه ووضعه، ويحمد الله ﷻ ويثني عليه بلسان حاله، ولسان الحال يغطي أحياناً على لسان المقال، فقد يحدث إنّنا نشاهد آثار عدم الارتياح والحزن، أو عدم النوم على وجه شخص ما، بالرغم عدم القول والتحدث بما يعتريه، إلا إنّ لسان حاله يتحدث ما بداخله[٢].

٣ ـ الحمد والتسبيح

هو تركيب لساني مقالي، أي من لسان الحال والمقال إذ قسم التسبيح إلى تكويني وتشريعي، فإنّ من البشر وكل الملائكة يحمدون الله ﷻ عن إدراك وشعور قولاً وحالاً، وكل ذرات الوجود تتحدث عن عظمة الخالق بلسان حالها وبالرغم من إن التسبيح بلسان الحال والمقال مختلفين إلا انهما يشتركان بالمفهوم الواسع للحمد والتسبيح[٣].

إنّ الكائنات برمتها ذلولة تسلك سُبل ربها التي جبلت عليها في عالم الوجود، فالمسخّرات بأسرها في خضوع تام، واستسلام محض اتجاه قانونها التسخيريّ، لا تجور ولا تحور عن الطريق المرسوم وفق إرادة اللهﷻ وقانونه الجاري في الخلق، فكلٌ في فلك يسبحون كلٌ ينهج منهجه الذي جُبل عليه، كلٌ قد علم صلاته وتسبيحه وعبادته، فمن حصر التسبيح في لسان المقال فقد فسّر القول بكل ما يظهر من مكامن الأشياء وليس تكلماً محضاً، فالتكلم إذا كان قولاً؛ فلأنّه يبدي ما مكمون المتكلم من

١()ينظر: مغنية: التفسير الكاشف، ٤٨/٥، ٣٨٨/٤ ،

٢()ينظر: الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٠/٩ .

٣()ينظر: الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٢/٩- ١٣ .

مقاصد وآراء، فكل ما كان ذلك شأنه صح اطلاق القول عليه بالكلام بهذا الاعتبار، فقوله تعالى:﴿...اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ...﴾[1].

أي بدت منهما ما يكشف عن طوعهما وخضوعهما لإرادة الله ﷻ[2]، فإنه مشهد كوني رهيب عجيب حين ينبئنا ربنا بأن كل شيء يسبح الله ﷻ ويحمده، من كل ذرة وكل زاحفة وكل طير وكل دابة، حتى الكواكب والنجوم، فالوجدان يرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله، وكلها تسبّح وتمجد خالقها[3].

إنّ ما نعلمه من أسرار وخفايا العالم في مقابل ما لا نعلمه كالقطرة في قبال البحر، وكالذرة في قبال الجبل العظيم، وإذا فكرنا بشكل صحيح فلا نستطيع أن نسمّي الذي نعرفه بأنّه -علم- إنّنا في الواقع لا نستطيع أن نسمع تسبيح وحمد هذه الموجودات الكونية مهما أوتينا من العلم، لأنّ ما نسمعه هو كلمة واحدة فقط من هذا الكتاب العظيم، وعلى هذا الأساس تستطيع الآية أن تخاطب العالم بأجمعه و تقول لهم إنّكم لا تفقهون[4]، فبمجرد الإحساس أن الكون له إدراك، تتحقق العبودية وتخشع القلوب للواحد القهار، فالإنسان في خلوته تشهد عليه حواسه وجوارحه والأرض التي تحمله وكل شيء حوله.

ثالثاً: العبادة عند الحيوانات والنباتات والجمادات

الشرط الأول للمحاسبة والعقاب هو العقل والإدراك ويستتبعها التكليف والمسؤولية، فالإنسان العاقل البالغ مكلف بالعبادة، وهذا مما لا شك فيه، وإن التسبيح والحمد والسجود والقنوت من العبادات التي تتعبد بها المسخّرات لخالقها وربها الذي أوجدها من العدم، واختلف في بيان حال المسخّرات من التكليف بهذه العبادة وفي

١()سورة فصلت: الآية/١١ .

٢()ينظر: معرفة، محمد هادي: التفسير الاثري الجامع، ٣٩٦/٢-٤٠٠ .

٣()ينظر: الصادقي: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم(صادقي طهراني)، ٣٧٨/١، ينظر: العاملي: تفسير البيان الصافي في كلام الله الوافي، ٣٠٨/٣ .

٤()ينظر: الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،١٢/٩

حقيقة إرادتها بتلك العبادة.

للتكليف مراحل ودرجات وكل مرحلة تناسب درجة معينة من العقل والإدراك، وإنّ التكاليف الإسلامية المفروضة على الإنسان تتطلب وعياً ومستوى رفيعاً من الإدراك لإنجازها ولا يمكن فرض مثل تلك التكاليف على باقي المسخّرات[١]، ولبيان مراحل التكليف للمسخّرات نبينها على حسب أجناسها من الحيوانات والنباتات والجمادات، فيظهر بذلك تكليفها من عدمه وتتبيّن حقيقة عبوديتها :-

١ ـ عبودية المسخّرات من الحيوانات

الحيوانات كل ما يدب على الأرض، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[٢]، لذا يطلق عليها الدواب وهي على فصائل وأنواع، وكل منها يمثل أمة من الأمم، إلا إنها تباينت الآراء في الشعور والإدراك وتكليفها بالعبادة، على أقوال:-

أ ـ القول الأول: إنّ شرائط التكليف لا تصح حصولها في البهائم والطيور لذلك شبه الجِهال بالأنعام، ولو كانت مكلفة لكان فيها المؤمن والكافر[٣]، ولو وجب حمل الآية ﴿... إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم...﴾ على العموم لوجب أن تكون أمثالنا في هيأتنا وخلقتنا وأخلاقنا، ولا تكليف إلا مع كمال العقل[٤]، فالتكليف لا يصح إلا لعاقل واستدلوا بان الصبيان أعقل من البهائم ومع هذا ليسوا مكلفين[٥].

ب ـ القول الثاني: إنّ لها من التكاليف البسيطة بقدر ما يناسبها من الفهم والإدراك، والتي يمكن تصورها وقبولها في الحيوان ولا يمكن إنكارها، وإنّ هذه التكاليف

١()ينظر: الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٢٧٠/٢ .

٢()سورة الأنعام: الآية/٣٨ .

٣()ينظر: ابن شهرآشوب، محمد بن علي:متشابه القرآن ومختلفه، ط١،بيدار، قم، ١٣٦٩هـ،٢٠٨/١.

٤()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٤٦٢/٤ .

٥()ينظر: الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ١٣١/٤ .

والمسؤوليات الملقاة على الحيوانات في مرحلة خاصة لا تعني أن لها إماماً أو قائداً وشريعة وديناً كما ذهب بعض الصوفيين، فهي لا يقودها سوى إدراكها الباطني أي إنها تدرك بعض الأمور فتكون مسؤولة عنها بقدر إدراكها لها[١].

يُلحظ من قوله تعالى: ﴿...أُمَمٌ أَمْثَالُكُم...﴾ إذ ذكرت الآية إنّ الحيوانات أمم أمثال الناس، وليس المراد بذلك كونها جماعات ذوات كثرة وعدد إذ الأمة لا تطلق على مجرد العدد الكثير، بل إذا أجمع ذلك الكثير جامع واحد من مقصد اضطراري أو اختياري يقصده أفراده، فإن كل نوع منها يشترك أفراده بطريقة خاصة من الحياة والرزق والنسل والمأوى، وسائر الشؤون الحيوية.

فإنّ هذا المقدار من الاشتراك في قوله تعالى:﴿...ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ يدل على المماثلة ليست مجرد التشابه في الشؤون الحيوية، بل هنا جهة اشتراك تجعلها كالإنسان في ملاك الحشر إلى خالقها، وليس الحشر إلى الله ﷻ في الإنسان إلا نوعا من الحياة الشعورية[٢]، فهي أمم أمثالنا لها لغة ومنطق وعبارات مفهومة[٣].

عند الالتفات إلى الحيوانات فكثير منها تتعاون جميعاً، في الاصطياد وتجميع الغذاء وتخزينه للمستقبل، فحياة النمل فيها من التنسيق ما هو ملفت في تقسيم الأعمال وتنظيمها، بمملكة لها عمّالها وجنودها يعملون من اجل الجميع، فيدعو ذلك للتأمل والتفكر في خلق الرحمن، كما قال الإمام علي عليه السلام : (انظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطافة هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر، كيف دبت على أرضها وهبت على رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها، وتعدها في مستقرها ...)[٤]،

١()ينظر: الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٢/٢٧١-٢٧٦ .

٢()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ٧/٧٣

٣()ينظر: ابو زهرة، محمد، زهرة التفاسير، ط١، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ١٠/٥٤٤٣، مغنية: التفسير الكاشف، ٥/٢٤، المدرَسي: من هدي القرآن،٦/٣٣٠

(٤)خطب الإمام علي عليه السلام : نهج البلاغة، صادق الموسوي، ط١، مطبعة مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، نشر مؤسسة الإمام صاحب الزمان(عج)، طهران، ١٤١٨هـ ،الخطبة ٨ ص١٢٧.

فهذه المسخّرات مع الإمكانيات البسيطة مقارنة بالإنسان، وانعدام بعض الحواس لديها، إلا إنّها تحفظ نوعها وتدافع عن مملكتها وتبني لها موطن، وتؤسس مجتمع يحكمه نظام خاص بها، فهذا يدعو إلى الكثير من التأمل والتفكر في خلق الله ﷻ وبقدرته وتدبيره في خلقه.

من بعض لطائف الفهم ودقائق النباهة لدى الحيوان ما ذكر في حكاية النمل والهدهد مع سليمان عليه السلام قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1]، فكان نداء النملة تحذيري لبني نوعها وحثهم للدخول في بيوتهم لئلا يحطمهم سليمان وجنوده، فيه بيان لدقة فهم النملة ما ليس ببعيد عن مستوى فهم الإنسان متوسط الحال في الفقه والتعقل، فهنا النملة شعرت بالخطر ونادت جماعتها وحذرتهم لصيانة سلامتهم، ومن الملفت والمثير للدهشة هو إيجاد العذر لسليمان وجنوده فقيّدت كلامها بلا يشعرون فكأنها عرفت عصمته عن الظلم[2].

هي كانت مأمورة بالطاعة وقد خلق الله ﷻ لها من الفهم ما تعرف به أمور طاعته، ولا يمتنع أن يكون لها من الفهم ما يستدرك به ذلك، وقد عُرف أنها تشق ما تجمع من الحبوب بنصفين مخافة أن يصيبها الندى فتنبت، إلا الكزبرة فإنَّها تكسرها بأربع قطع لأنَّها تنبت إذا شقت بنصفين، فمن هداها إلى هذا فإنَّه يهديها إلى تمييز ما يحطمها مما لا يحطمها[3].

أنّ للحيوانات برمّتها منطقا، أي طريقة خاصّة للتفاهم مع بعضها، سواء كان

١()سورة النمل: الآية /١٨ .

٢()ينظر: شبر، عبدالله: الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين، ط١، مكتبة الألفين، الكويت، ١٤٠٧هـ، ٤١٨/٤ ، السلطان علي شاه: بيان السعادة في مقام العبادة، ١٦٩/٣، مغنية، محمد جواد: التفسير المبين، ط٣، دار الكتاب الاسلامي، قم، ١٤٢٥هـ، ٤٩٦، الكرمي، محمد: التفسير لكتاب الله المنير، ط١، المطبعة العلمية ، قم، ١٤٠٢هـ، ١٧١/١.

٣()ينظر: الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ٣٣٦/٧ .

ذلك عن طريقة إيجاد أصوات خاصة كما في الدوابّ والطيور، أم بطريقة أخرى - إشعاع أمواج لاسلكية- كما في الحشرات، الأمر الذي يمكن الوقوف عليه بطريقة ما، وبالفعل قد عرف شيء من منطق البهائم وحتّى بعض الحيتان في البحار، ولا يستحيل في قدرة الله ﷻ أن يُعَلّم نبيّه عليه السلام منطق الطير وسائر الحيوان، فتظهر آثار الفهم والشعور لها وربما يؤيد ذلك أصحاب الحيوان وبمطالعتهم وتربيتهم لأنواع الحيوان المختلفة من عجائب الأحوال التي لا تكاد تظهر إلا من موجود بإرادة لطيفة وشعور(١).

كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله ﷻ عليها بالطبع، فهي من بين نسّاجة كالعنكبوت، ومدخرة كالنملة ومعتمدة على قوت كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع(٢).

من الحيوانات من يملك حواس خارقة لا يمتلك الإنسان مثلها فتميزت عنه، كالرادار في الخفاش، والنظر الحاد لدى بعض الطيور، وحاسة الشم لدى الحشرات، ومعرفة الطيور للطرق الجوية وقد تقطع مسافات بين القطبين الشمالي والجنوبي، وخبرة الأسماك في هجرتها في أعماق البحار، فلا عجب بأن لهذه الحيوانات تكلماً ونطقاً وإدراكاً خاصاً بها(٣).

إنّ الحيوانات لا تخلو من معنى الاختيار بصورة عامة وإن كان ضعيفا، ومن الجائز أن يجعل الله ﷻ المتوسط من مراتب الاختيار الموجودة في الحيوانات، ملاكاً لتكاليف مناسبة خاصة بها لا نعلمها، أو يعاملها بما تملك من موهبة الاختيار بنحو آخر خفي عنا، إلا إنّه فيها ما يصح الإنعام عليها عند الموافقة، ومؤاخذتها عند

١()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ٧٦/٧- ٧٨ ، معرفة، محمد هادي: شبهات وردود حول القرآن الكريم، ط١، مؤسسة التمهيد للثقافة والنشر، قم، ١٤٢٣ هـ، ٣٢٠ .

٢()ينظر: الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ٨٦ ، ابو زهرة، زهرة التفاسير، ٢٤٩١/٥.

٣()ينظر: الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٢/ ٣٢.

المخالفة[١]، وقوله تعالى:﴿...ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ بيان لعموم الحشر لهم وأن حياتهم الموهوبة، نوع من حياة تستتبع الحشر إلى الله ﷻ كما أن الحياة الإنسانية كذلك، ولذلك أرجع الضمير المستعمل في أولي الشعور والعقل، إشارة إلى أن أصل الملاك هو الأمر الذي يدور عليه الرضا والغضب والإثابة والمحاسبة موجود فيهم.

إنّ فائدة قانون التسخير في تلك العبودية هو التبصر في توحيد الله ﷻ ولطيف قدرته وعنايته بأمر الخليقة والنظام الجاري في عالم الوجود، ومعرفة أنّ الموجود آخذ في سلسلته من النقص إلى الكمال وبعض قطعاته المشتملة على حلقات الحيوان الشامل للإنسان وما دونه مراتب مختلفة مترتبة آخذة من المراتب القاطنة في أفق النبات إلى المراتب المجاورة لمرتبة الإنسان ثم الإنسان كلها عابدة مسبّحة لله ﷻ[٢].

٢ ـ عبودية المسخّرات من النباتات

إنّ النبات هو مصدر غذاء الإنسان، وفي قوله تعالى:﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[٣]، النجم هاهنا ما نجم من النبات، أي طلع و ظهر، والمراد بسجود النبات والشجر ما يظهر عليها من آثار صنعة الصانع الحكيم، والمقدّر العليم، بالتنقل من حال الاطلاع، إلى حال الإيناع، ومن حال الإيراق إلى حال الإثمار، غير ممتنعة على المصرّف، ولا آبية على المدبّر[٤].

إنّ النجم هو النباتات الصغيرة، والشجر هي النباتات الكبيرة ذات الساق، وذلك ليوجدوا ارتباطا بين الاثنين، والذي يبدو من ظاهر الآية أنّها لا تحتاج إلى هكذا تأويل، فالنجم هو الذي في السماء، والشجر هو الشجر الذي نعرفه، و ربما الهدف من ذكرهما معا بيان العلاقة بين أبعد الأشياء عنّا وأقربها إلينا في الطبيعة، فهي وإن كانت في نظرنا جوامد إلّا أنّها تملك قدرا من الوعي والإحساس يدعوها لعبادة ربّها

١()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ٧/٨٠-٨١ .

٢()ينظر: المصدر السابق، ٧/٨١

٣()سورة الرحمن: الآية/٦ .

٤()الشريف الرضي، محمد بن الحسين: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ٣٢٠ .

قال تعالى: ﴿...وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾[1]، ومن الشجر ساجدا بعروقه و سوقه الناعمة، فان أصل الساق قائم وإن كان قيامه أيضا سجودا فانه قيام بأمر الرحمن[2].

إن دلّ السجود على غاية الخضوع و العبودية، فإنّ سجود النجوم والشجر يتجلّى في خضوعها لقانون الله ﷻ المرتبط بتسخيرها، فلا نجد نجمة تنحرف عن مسارها، ولا شجرة تُنبت غير ثمرها[3].

المقصود بالسجود هو الخضوع المطلق لله ﷻ في ساحة العبودية، باعتبار أنّ النباتات تتحرك في نطاق القوانين التي أودعها الله ﷻ فيها وفي الأرض التي تحضنها، وبذلك تنفعل تكوينياً بذلك، انفعالا يشبه الخضوع الإرادي للمخلوق الحيّ في سجوده لله ﷻ، إذ أنّ السجود هو حركة شكلية تعبّر عن الخضوع لله ﷻ في العمق[4]، فمحراب الكون لا تخلو منه كائنة إلا ساجدة، والنبات من الساجدين نجماً وشجراً﴿...وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾

٣ ـ المسخّرات من الجمادات

الجماد قسم من أقسام المسخّرات في الكون، وهو ما لا ينمو ولا يتغذى ولا يتكاثر، خلاف الإنسان والحيوان والنبات[5]، وقد وردت في القرآن الكريم آيات تتضمن أفعال وأقوال لتلك المسخرات، قبل الشروع ببيانها نذكر إنّ الطريقة العقلائية في المفاهيم تقضي بأن الظواهر الكلامية حجة، ما لم يكن هناك دليل عقلي يمنع من الأخذ بها، وقد جرى القرآن الكريم على هذه الطريقة في أسلوبه، فلا بد من السير عليها في ما

١()سورة الاسراء: الآية/٤٤

٢()الفرقان فى تفسير القرآن بالقرآن و السنه ١٧/٢٨

٣()الامثل ٢٨٦/١٤

٤()من وحي القران ٣٠٥/٢١

٥()ينظر: عبد الحميد، أحمد مختار وبمساعدة فريق عمل: معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، عالم الكتب، ٢٠٠٨م، باب ج م د ، ٣٩١/١ .

نأخذ منه أو ندع، فإذا أخبر القرآن الكريم بحوار ضمن قصة ولم يكن هناك مانع عقلي من الإقرار به، فيلزمنا الإقرار به واعتباره حقيقة واقعة، أمّا إذا كان هناك مانع عقلي، فلا بد من حمله على ما ينسجم معه من قواعد المجاز والكناية والاستعارة[١]، ولبيان ذلك نذكر المسخّرات من الجمادات التي جاءت في القرآن الكريم كما يأتي:

أ ـ السماء والأرض

إنّ التأثير والتأثر والفعل والانفعال دائر بين أجزاء العالم المشهود، فهناك نوع من ارتباط بين الوجود وقانون التسخير الجاري في السماء والأرض[٢]، فللمسخّرات حظاً من الشعور بقدر مالها نصيباً من الوجود فتواردت أفعالها العبادية في آيات كثيرة[٣]، ومن تلك الأفعال يذكر البحث ما يأتي:

ـ حمل الأمانة : قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[٤]، المستفاد من ظاهر الآية أنَّ الإنسان فقط هو من حمل الأمانة بعد أن تم عرضها على السماوات والأرض، واختلف المفسرون في المراد من الأمانة، بالقول أنّها التكاليف الشرعية والفرائض[٥]، وهناك من يجدها ولاية أهل البيت عليهم السلام[٦]، والولاية تقع ضمن التكاليف الشرعية التي على المسلم مراعاتها عند الإماميّة، فلا يمنع أن يكون هذا التفسير داخلا في التفسير الأول من جهة العموم والخصوص، وأنها الأمر والنهى، وأنها أمانة الفرج عند المرأة[٧]، وأنها الخلافة وأنها الجنابة والصلاة والصوم، وأنها

١()ينظر: فضل الله، محمد حسين: من وحي القرآن، ٢٢٥/١ .

(٢)الطباطبائي: الميزان، ١٧/ ٣٦٦ـ٣٦٧ .

(٣)ينظر: معرفة، محمد هادي: التفسير الاثري الجامع، ٤٠٢/٢ .

(٤)سورة الأحزاب: الآية /٧٢ .

(٥)ينظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري)، ٣٨/٢٢ ، الشوكاني، محمد: فتح القدير، ٣٥٥/٤ .

٦()ينظر: القمي : تفسير القمي، ١٩٨/٢ .

٧()ينظر: الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، ٨/ ٣٦٧ .

أمانة آدم قابيل على أهله و ولده، فقتل قابيل هابيل وأنها ودائع الناس وأنها الطاعة وأنها التوحيد، وجُل هذه الآراء تنطوي تحت قسمين[١]:

الأول: التوحيد، فإنه أمانة عند العبد، و خفى في القلب، لا يعلمه إلا الله.

الثاني: قسم العمل، و هو في جميع أنواع الشريعة.

الأمانة العامة للمسخّرات هي تسبيحها لخالقها وقد أدتها، وحملها الأنسان بظلمه وجهله[٢]، والأمانة واجبها الأداء إلى أهلها مادامت أمانة عند غير أهلها وحملت فقد تحققت الخيانة سواء نوى أن يؤديها من أخذها أم لم يؤديها عملياً[٣]، فهي أمانة بين محمولة دون رد وبين مؤداة، فمن طبع الأمانة أداؤها لا حملها إلّا لأدائها، فمن حملها فقد خانها[٤]، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا...﴾[٥]، فالأمانة عرضت على المسخّرات كلها[٦].

هي لمن يعقل تكليف العقل قدره في الإنسان، ولمن يشعر تكليف الشعور قدره في الحيوان والنبات والجماد، فهي مطلق التكليف غير خاص بذوي العقول، فسائر الكون مكلف بمعداته أن يعيش وفق ما خلق لأجله، أمام الخالق مسبّحا وأمام الخلق عدلا سائرا ﴿...فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها...﴾ دون ردّ و بأداء كما حُمّلن، فان حمل الأمانة مطلقا دون أداء خيانة لها مطلقا، وفي أداء غير سليم خيانة نسبية، فأبين ان يخونها وكل يعمل كما حُمّل، فكرهوا حملها وأشفقوا منها من غير معصية لخالقهم، ولكن تعظيما

١()ينظر: ابن العربي، محمد بن عبدالله: أحكام القرآن (لابن عربي)، ط١، دار الجيل ، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٥٨٨/٣ـ١٥٨٩ .

٢()ينظر: الصادقي، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (صادقي طهراني)، ٣٧٨/١ .

٣()ينظر:المصدر السابق، ٣٨٢/١ ،الأبياري، إبراهيم، الموسوعة القرآنية، ط١، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٤٠٥ هـ، ٥٥٧/١٠ .

٤()ينظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير جوامع الجامع، ٣٣٦/٣ .

٥()سورة النساء: الآية/٥٨ .

٦()ينظر: الصادقي، محمد: الفرقان في تفسير القرآن، ط٢، فرهنك إسلامي، قم، ١٤٠٦هـ ، ٢١٤/٢٤ .

لدين الله ﷻ، أن لا يقوموا بها[١]، وقيل الأمانة هي العقل؛ لأنّه بحصوله تتحصل معرفة التوحيد وتجرى به التكاليف الشرعية، بل لحصوله تعلم كل ما في إمكان البشر تعلمه وفعل ما في إمكانهم من الجميل فعله و به فضل على كثير ممن خلقه[٢].

ـ طاعتهما لأمر الله ﷻ : قال تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[٣]، و كيف لها لا تسلّم لأمر الله ﷻ، وكلّ وجودها في كلّ لحظة من فيض لطفه، ولو انقطع عنها هذا الفيض بأقل من رمشة عين، لتلاشت من الوجود، فالسّماء والأرض مطيعتان لأمر ربّهما منذ أوّل خلقهما حتى نهاية أجلهما[٤].

أنّ التقوى صفة عامّة لجميع المسخّرات، وكلّ شيء يصحّ توصيفه بالتقوى والتحرّز عن التخلّف عن الأوامر التشريعيّة والتكوينيّة، فإذا قالت السماوات والأرض: أَتَيْنا طائِعِينَ فهو عين التقوى والتجنّب عن الهوى بالخضوع والخشوع لخالقها، والإتيان بصيغة الجمع المخصوصة بذوي العقول هو لأجل ما تحرّر وتكرّر من ثبوت العلم المركّب لكافّة المسخرات في الطبيعة[٥].

ـ تنفيذ الأوامر: قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾[٦]، ويوجه الخطاب إلى الارض والسماء، بصيغة العاقل، فتستجيب كلتاهما للأمر الإلهي فتبلع الأرض و تكف السماء، فابتلعته الأرض في

١()ينظر: حوّى، سعيد، الأساس في التفسير، ط٦، دار السلام ، القاهرة، ١٤٢٤ هـ، ٤٤٨٩/٨ .

٢()ينظر: الأبياري، إبراهيم، الموسوعة القرآنية، ٢٧/٨ .

(٣)سورة فصلت: الآية/ ١١ .

٤()ينظر: مكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٥٣/٢٠ .

٥()ينظر: الخميني، مصطفى: تفسير القرآن الكريم، ط٤، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، طهران، ١٤١٨ هـ، ٥٠/٣ .

(٦)سورة هود/ ٤٤ .

جوفها وغار من سطحها طاعة لله ﷻ[١].

ـ إنكارهن للشريك : قال تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾[٢]، فيها إشارة إلى أن مجموعة عالم الوجود من المسخرات تمتلك نوعا من الحياة والإدراك والشعور[٣].

وهذه المسخّرات لا تتحمل الإساءة إلى الله ﷻ في أيّ شيء يبتعد عن مستوى عظمته، فالمسخّرات تعرف بعمق وجودها أنها مخلوقة لله ﷻ، ومحتاجة إليه من دون فرق بين مخلوق ومخلوق، فمهما ارتفعت درجات بعضهم عن بعض، فإنها لا ترتفع عن درجة العبودية لله ﷻ؛ لأن امتيازاتهم الذاتية تتحرك في دائرة العبودية والحاجة إليه في طبيعة الوجود والاستمرار، ولعل المراد بإتيان كل الموجودات للرحمن، في مواقع العبودية، هو انقيادهم في وجودهم و في إطاعتهم لله ﷻ على أساس الإحساس بالعبودية والاعتراف بها بين يديه[٤].

ـ تسبيحها وبكائها: قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ...﴾[٥]، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾[٦]، إنّ المؤمن إذا مات بكى عليه معالم سجوده من الأرض، ومصعد عمله من السماء أربعين يوما وليلة، ويبكيان على الأنبياء ثمانين يوما وليلة، ولا يبكيان على الكافر لأنهم لم يصلوا لله ﷻ في الأرض ولا كانت لهم أعمال صالحة تصعد إلى السماء لكفرهم[٧].

١()ينظر: القبيسي العاملي، محمد حسن: تفسير البيان الصافي لكلام الله الوافي، ط١، مؤسسة البلاغ، بيروت، (د.ت)، ١٧٤/٣ .

(٢)سورة مريم: الآية/ ٩٠-٩١ .

٣()ينظر: مكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٥١٠/٩ .

٤()ينظر: فضل الله، محمد حسين: من وحي القرآن، ٨٠/١٥-٨١ .

(٥)سورة الاسراء: الآية /٤٤ .

(٦)سورة الدخان/ ٢٩ .

٧()ينظر: مقاتل بن سليمان: تفسير مقاتل بن سليمان، ٣ / ٨٢٢ .

ـ شهادتها : قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[١] إنّ ذلك النطق باللسان الملكوتي، إذ لكل شيء ملكوتاً في هذا العالم، ولكل ذرة لسان ملكوتي ناطق بالتسبيح والتمجيد والتوحيد والتحميد وبهذا اللسان نطق الحصى في كف النبيّ ﷺ و به تنطق الأرض يوم القيامة[٢] .

تبيّن إنَّ للسماوات والأرض إدراك للأمور بل لها حكمة تتهرب مما ادركته من صعوبة، وتخاف وتتشقق وتخشى وتتصدع وتشهد، بل هي أعقل من الإنسان في رفضها لحمل الأمانة وخوفها من خالقها، فهي ملتزمة بدورها الذي خلقت لأجله وتسير وفق قانونها الذي جُبلت عليه، فهي تدرك خالقها وسرّ وجودها ولِما خلقت، وذلك كله يظهر من خلال قانونها الذي جُبلت عليه.

ب ـ الجبال

وردت كلمة جبل بصيغة المفرد و الجمع فى القرآن الكريم ٣٩ مرة، منها ٦مرات فى صيغة المفرد و٣٣ مرة فى صيغة الجمع وجاءت الإشارة إليها بالتعبير (رواسى) فى عشر آيات أخرى[٣]، الجبال كلمة تدل على الشموخ والكبرياء، كما أنّها وصف يخيب من حاول الاتصاف بها، فهي التي تنزوي أمامها رقاب الجبابرة، وتنقطع لديها الأعناق التي تحاول أن تطيل شموخها، وفي ذلك يخاطب الله ﷻ أولئك الذين يمشون في الأرض متبخترين متكبرين قائلا: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾[٤]، وهي ثالث المسخّرات التي عُرِض عليها الأمانة لحملها، ومع تلك العظمة التي اتصفت بها إلا إنّها لها أفعال تتذلل بها لخالقها وجاءت بأفعال تدل على إدراكها وهي:

---

(١)سورة الزلزلة: الآية/٤ .

٢()ينظر: الفيض الكاشاني، محمد بن شاه مرتضى: تفسير الصافي، ط٢، مكتبة الصدر، طهران، ١٤١٥هـ، ٢٥١/٢.

٣()ينظر: النجار، زغلول راغب محمد: من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ٣١/٣ .

٤()سورة الإسراء: الآية/٣٧ .

ـ **الخشوع**: وهي صفة اتصفت بها الجبال فإن الخالق ساقها في معرض المدح والثناء، ومعرض ضرب الأمثال في العبودية والخشوع للقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ...﴾[1]، بمعنى أنَّ الجبل له استحقاق نزول القرآن الكريم عليه، فيصير خاشعا متصدّعا من خشية اللهﷻ، فالجبال تخضع و تخشع وتتشقّق للقرآن الكريم، إشارة إلى أنّ القرآن الكريم ينفذ تدريجيّا فيها، وبعد كلّ فترة تظهر عليها آثار جديدة من تأثيرات القرآن الكريم، إلى حدّ تكون كالعاشق الواله الذي لا قرار له ثمّ تتصدع و تتشقق[2].

ـ **حمل الأمانة**: أن الجبال لم تغترّ بعظمتها، ولم تتباه بمظاهر الرفعة والإباء التي أودعها اللهﷻ فيها، فلما عرض الحق جل جلاله الأمانة عليها، تسرّب إليها الرعب وداخلها الخوف، لشدّة تحمل الأمانة والمسؤولية والتكاليف السماوية، فآثرت أن تنقاد للحق طواعية؛ لأنها أدركت بصدق ثقل الأمانة، وهو موقف الحساب وموطن الجزاء يوم الدين[3]، فالجبال يرافقن الأنبياء ﷺ في الحمد والتسبيح بل كان لها عقل واختيار، ومن ثمّ فإنّها تقع تحت تكليف واختيار وفوق ذلك فإنّ لها حقّ الرفض أو القبول فيما اذا عرضت عليها مشاقّ التكاليف[4].

ـ **التجلي والخشية**: ظاهر التنزيل أشعَر بأنّ الجبل له استعداد قبول التجلّي فيصير دكّا، وله استشعار الخشية فيهبط من خشية اللهﷻ، وله استحقاق نزول القرآن الكريم عليه، فيتصدع من خشية اللهﷻ، فالعقل يقتضي أن يكون الموصوف بهذه الأوصاف عاقلا فاهما للخطاب[5]، حيث أخبر التنزيل بأنّ الجبال كانت مخاطبة بالتأويب مع داودعليه السلام قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[6]، إنّ خطاب

١()سورة الحشر: الآية/ ٢١ .

٢()ينظر: مكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٢١٧/١٨ .

٣()شعبان، مروان وحيد: الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، ٣٤١ .

٤()معرفة، محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن، ٣٤٤/٥ .

٥()ينظر: الشهرستاني: مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار، ٤١٨/١ .

٦()سورة سبأ: الآية/ ١٠ .

كلّ شيء على حسب ما يليق به، كما أنّ إجابة كلّ شيء على حسب ما يليق به، وفي التنزيل الجبال رجال، قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ...﴾[1]، ويشبّه الله ﷻ قلوب الكفرة بالحجارة، قال: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2]، وبيّن الأشدّ بثلاث صفات في الحجر لم توجد هي في قلوب الكفرة، التفجير بالأنهار، والتشقّق فيخرج منها الماء، والهبوط من خشية الله ﷻ، فيعلم بهذا المثل أنّ قلوبهم أشدّ قسوة من الحجارة، والموازنة بين المثل والممثّل به يجب أن تكون بأقصى ما يمكن حتّى يحصل من التمثيل فائدة التفصيل، كذلك الخشية، لكن تفاوت الأمر فيها على حسب تفاوت أوضاع المسخرات على مراتبها[3].

ج ـ الجوارح

الإنسان مركّب من جوارح، وهذه الجوارح لها أجهزة تكوّن الكل الإنساني، ومدير كل الجسم هو العقل، فهو الذى يأمر اليد لتمتد وتسرق، أو تمتد لتربت على اليتيم، والعين تأخذ أوامرها من العقل، فإما أن يأمرها بأن تنظر إلى جمال الكون، وتعتبر بما تراه من مسخّرات منتظمة، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام، فالجوارح خادمة مطيعة مسخّرة للإنسان وإرادته، لكن الأمر يختلف في الآخرة، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[4]، فالجوارح تقول يوم القيامة لأصحابها: كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصي رغما عنا؛ لأننا كنا مسخّرين لكم في الدنيا، والآن انحلّت إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله[5]، قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ

١()سورة النمل: الآية/٨٨ .

٢()سورة البقرة/٧٤ .

٣()ينظر: الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم: مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار ٤١٧/١-٤١٩

٤()سورة يس: الآية /٦٥ .

٥()ينظر: الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي، ٦٤٠٢/١٠ ـ ٦٤٠٣ .

وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ۞ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]، فمن علم أن كل شيء ناطق ناظر إلى ربه لزمه الحياء من كل شيء حتى من نفسه و جوارحه، ومن كان مشهده هذا استحى من المسخّرات كل الحياء في خلوته كما يستحي في جلوته، فإنه في جلوة أبدا، لأنه لا يخلو عن مكان يقلّه و سماء تظلّه، ولو لم يكن في مكان لاستحى من أعضائه ورعية بدنه، فإنه لا يفعل إلا بها، فإنها آلاته وإنه لابد أن تستشهد فتشهد[2].

تسبيح وحمد غير ذي الحياة بكلام يمكن أن يسمعه من يستطيع أن يسمع كلّ الأصوات، ويمكن أن يفهم دلالاته من يفهم كلّ اللّغات، فهو أمر ممكن عقلا، وغير مستبعد على قدرة الله ﷻ، قد قرّبت لنا المكتشفات في هذا العصر، أنّ بعض الصفائح المعدنية المصنّعة، قابلة لأن يسجّل عليها بوسيلة أشعّة اللّيزر آلاف الصفحات الناطقة، فإذا حرّكت على آلة حكاية الصّوت المسجّل فيها نطقت بكلّ ما هو مسجّل فيها على أحسن وجه وأكمله، أفيعجز خالق الكائنات وربّها من أن يجعل كلّ شيء فيها صغيرا كان أو كبيرا يسبّح بحمد ربّه تسبيحاً يمكن أن يسمعه و يفهمه من هيّأه الله ﷻ لاستماعه وفهمه؟ وقد أبان الله ﷻ أنّ أسماع الناس وأبصارهم و جلودهم تسجّل عليهم أعمالهم، وتشهد عليهم بها يوم الدّين في محكمة اللهﷻ الّتي يفصل بها بين العباد[3].

د ـ الظلال

ظل الأشياء يحدث نتيجة سقوط جسم معتم فيحجب الإنارة على الجهة المعاكسة للضوء، فالظلال تعم كل الأجسام الكثيفة الشاخصة أمام الشمس أو مصدر

١()سورة فصلت: الآية/ ٢٠ـ٢٢ .

٢()ينظر: ابن عربي، محمد بن علي: رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن، ٤٤/٤ .

٣()ينظر: الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة: معارج التفكر و دقائق التدبر، ٤٧٥/١ .

الضوء، فالرقائق كالهواء والماء وكذلك القوى المادية، كالجاذبية المغناطيسية، والكهربائية، والروح فلا ظل لها[١].

والظلال جمع ظل وهو ستر الشخص ما بإزائه، والظلّ الظَّليل هو ستر الشمس اللازم[٢]، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾[٣]، وهذه الآية تدل على أنّ ظلال المؤمنين والكافرين جميعا يسجد لخالقه[٤]، وقيل المعنى في سجودها تمايلها من جانب إلى جانب وانقيادها بالتسخير بالطول والقصر[٥]، لا يبعد أن يخلق الله ﷻ للظلال عقلاً تسجد بها لله ﷻ كما جعل للجبال عقلاً حتى اشتغلت بتسبيحه، فالمؤمن هو وظله يسجدان لله ﷻ طوعاً، والكافر يسجد لله ﷻ كرها، ويفسر السجود كرهاً بالانقياد؛ لأن الكفار وإن لم يسجدوا لله ﷻ فهم منقادون لأمره[٦]، وللظل آثار فهو يزيد وينقص في طرفي النهار ويختلف اختلافا ظاهراً للحس فله نحو من الوجود يخضع في وجوده لله ﷻ ويسجد له، وهي تسجد لله ﷻ سجدة طوع في جميع الأحيان[٧].

هـ ـ الرياح والسحاب والرعد

جاء في القرآن الكريم خمسة وعشرون نصّا موزّعة في السّور حول الرّياح، على اختلاف وظائفها المادّيّة والمعنوية، فمنها قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى

١()ينظر: الصادقي، محمد: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم(صادقي طهراني)، ١٢٢/١ .

٢()ينظر: الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، ٢٣٥/٦ ، السلطان علي شاه، محمد بن حيدر: بيان السعادة في مقام العبادة، ٣٨٠/٢ .

٣()سورة الرعد: الآية / ١٥ .

٤()ينظر: الشريف الرضي، محمد بن الحسين: حقائق التأويل في متشابه التنزيل، ١٥٣/٥ .

٥()ينظر: الطبرسي، الفضل بن حسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٦/ ٤٣٧ .

٦()ينظر: الشوكاني، محمد: فتح القدير، ٨٣/٣ .

٧()ينظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ٣٢٢/١١ .

وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[1]، ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[2]، ريح باردة شديدة ذات صوت شديد مخيف، وهذا يكون من شدّة سرعتها واصطدامها بالأشياء ذوات الحجوم المادّية، إنّ هذه الريح الّتي أرسلها الله ﷻ على عاد قوم النبي هود عليه السلام فأهلكهم بها آية من آيات الله ﷻ في كونه، وقوّة من القوى العظيمة في خلقه[3]، هي دالّة على قدرته أن يسخّرها في إهلاك من يشاء، ومتى شاء بحسب حكمته، وإرسالها للإهلاك بها قد كان مسبوقا بالإنذار، فالعذر بما أجراه بها قائم، قال تعالى: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا۞ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا۞ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا۞ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا۞عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾[4]، وهي لمن سيأتي بعد قوم عاد من الذين يسمعون أخبارهم، أو يشاهدون آثارهم، عبرة تتضمّن إنذارا بعقوبة الله ﷻ لمن يفعل مثل أفعالهم، وما أجرى الله ﷻ بها من عقاب للكفرة المكذبين من قوم عاد دليل على قانون الجزاء الرّبّاني، و قصص المهلكين بها ومواطن إهلاكهم الماثلة في الأرض مذكّرة بعذاب الله ﷻ للكافرين فهذا التذكير قائم دائم[5]، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[6]، دلّت هذه الآية على أنّ من وظائف الرياح السببيّة على سطح الأرض، أن تأتي منتشرة لتجمع بخار الماء، وتحمله سحابا ثقالا بماء المطر، ليتمّ بأمر الله ﷻ وقضائه وقدره سوقه لأرض ميّتة لا نبات فيها، فتكون به حياتها، إذ ينزل الله ﷻ الماء بهذه الأرض من السّحاب، فيخرج النبات منها، ويخرج به من كلّ الثمرات، فيستبشر النّاس بالغيث، وفرحوا بمقدمه، فكانت الرّياح

١()سورة فصلت: الآية /١٦ .

٢()سورة الحاقة: الآية / ٦ .

٣()ينظر: المُدرَسي، محمد تقي: من هدي القرآن، ٢١٢/١٧.

٤()سورة المرسلات: الآية/٢ ـ ٥ .

٥()ينظر: الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكه: معارج التفكر ودقائق التدبر، ٦٢٥/٢ ، مكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٢٨٨/١٩ .

٦()سورة البقرة: الآية/١٦٤ .

بشرا بين يدي رحمة الله ﷻ، أما وظيفة الرّياح في دلالاتها الإيمانية فهي التذكير بالله ﷻ، بنشر الرّياح، وإنزال الغيث، وبالبعث والنشور، بإخراج الموتى من القبور، الّذي يشبه إحياء البلد الميّت، وإخراج النبات في الأرض من البذور، وعودته إلى الحياة، أنّ إرسال الرّياح عمل من أعمال الله ﷻ لا شريك له، وأنّ من نظام الرّياح في سنّة الله ﷻ أن تثير السّحاب المتجمّع بالتبخّر، وسوق الرّياح إلى بلد ميّت إنّما يتمّ بأمر الله ﷻ مع السّوق، لا بالوظيفة ذات النّظام الدائم بإثارة السّحاب، وكذلك إحياء الأرض بعد موتها إنّما يتمّ بأمر الله ﷻ، لا بالوظيفة ذات النظام الذي لا يتخلّف(١).

إنَّ امتنانه على سليمان عليه السلام إذ سخّر له ممّا سخّر الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، بعد أن سأل ربّه أن يهبه ملكا يخصّه به، لا ينبغي لأحد من الناس من بعده وبما أنّ سليمان عليه السلام احد من رسل الله ﷻ، وبما أنّه مصدّق بسائر الأنبياء والرّسل عليهم السلام، فتسخير الريح له يلقي في عقول النّاس وقلوبهم ذكرا بالله ﷻ وبرسالاته، وبما جاء فيها من وعد ووعيد، وفي إلقاء هذا الذكر إعذار وإنذار فهي دلالات الإيمانية، وتسخير الريح لعبد من عباد الله ﷻ لا يخرج في طبيعته عن تسخير الريح لإرادة الله ﷻ وهي مسخرة لإرادته ﷻ دائما بدون شك تجري وتسكن بأمره وفق قانونه، فاذا يسّر الله ﷻ لعبد من عباده في فترة من الفترات أنّ يعبّر عن إرادة الله ﷻ، وأن يوافق أمره أمر الله ﷻ فيها، وأن تجري الريح رخاء حيث أراد فذلك أمر ليس على الله ﷻ بعسير(٢)، إنَّ الخشية منه ﷻ من لوازم ربوبيته العظمى وقيمومته فتتصف جميع تلك المسخّرات من الجماد والنبات والحيوان، بالخشية من الله ﷻ، ولم يدل دليل عقلي أو نقلي على أن مفاهيم الألفاظ لابد وأن تختص بعالم الإنسان وبما نتعقله من المعاني، بل هي عامة لجميع العوالم كل على حسب وجوده(٣)، وإنَّ الله ﷻ جعل لكل كائن في الوجود حياة تناسبه، وله إرادة تناسبه، وله انفعال يناسبه، وقد

١()ينظر: الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكه: معارج التفكر ودقائق التدبر، ٦٢١/٢ ـ ٦٢٩ .

٢()ينظر: العاملي، محمد حسن: تفسير البيان الصافي في كلام الله الوافي، ١٨٦/٤ .

٣()ينظر: الموسوي، السبزواري، عبد الأعلى: مواهب الرحمن في تفسير القرآن (للسبزواري)، ط٢، مكتب سماحة آية الله العظمى السبزواري ، ايران، ١٤٠٩هـ، ٢٨٥/١ـ٢٨٦ .

ضرب الله ﷻ لنا في ذلك صورا شتّى، فنجد أنَّ الشيء الذى يعزّ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا ببيان من الله ﷻ، بأنَّ لكل كائن في الوجود له حياة تناسبه، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة في كل كائن، كتصورها في الإنسان(١).

إنّ ما يوجد ويتحقق في قانون التسخير، موجود بفضل تفاعل القوى المودعة للمسخّرات في هذا الكون، وإنّ حظ الإنسان من ذلك هو مجرد تقارب ما بين هذه القوى لتتفاعل هي مع بعضها، فالإنسان إنّما يوجد شرط التفاعل، أمّا أصل الإيجاد فهو من فعل العوامل والقوى الطبيعية، وهي بدورها مسخّرة ومنتظمة بإرادة الله ﷻ وحوله وقوته أبدياً، وبذلك يستطيع الإنسان أن يدرك وجه انتساب الأفعال الاختيارية إلى فاعليها، في حين صحة انتسابها إلى اللهﷻ وإلى قانون التسخير الذي أودعه الله ﷻ في هذا الكون(٢)، إنّ قانون التسخير المترابط والمنسجم بعضه مع بعض في وحدة جامعة متكاملة، لممّا يدلّ بوضوح على وحدة موجده، وأنّه الّذي يلجأ إليه جميع المسخّرات في فقرها وحاجتها، فهو الغنيّ الّذي لا فقر لديه والكامل الّذي لا نقص فيه، وهو ربّ العالمين إذ لا ربّ سواه، فكلّ المسخّرات تكشف بحاجتها و نقصها، عن تنزّه مسخّرها عن الحاجة وبراءته من النقص، وهذا الكشف الذاتي- المنبعث من صميم المسخّرات- قد عبّر عنه بالتسبيح والتحميد، وإنّ مجرّد الكشف الذاتي لا يسمّى تسبيحا حتّى يقارن بالقصد، والقصد ممّا يتوقّف على الحياة، والظاهر من التعبير القرآني أنّ للمسخّرات بأسرها شعور وإحساس و أنّ لها حظّا من العلم على قدر مالها من مرتبة الوجود(٣)، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ...﴾(٤)

١()ينظر: الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي،١٠/٥٨٦٥-٥٨٦٦

٢()معرفة، محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن،١٧٧/٣

٣()ينظر: معرفة، محمد هادي: التفسير الاثري الجامع، ٤٠١/٢ .

٤()سورة الحج: الآية/١٨ .

المبحث الثالث: فوائد قانون التسخير على المستوى الفقهي

إنّ القيام بالتكاليف الشرعية في ظل الظواهر الكونية من حركه المسخّرات وقوانينها لها فوائد في بيان الحكم الشرعي ودخاله، إذ أنَّ تلك المسخّرات بحركتها وقانونها الذي تسري عليه، يمكن أن تغير حكم شرعي، واحيانا يراعى في ذلك الحكم اليُسر ورفع الحرج عن المؤمنين في بعض المواقف الفقهية:

المطلب الأول: قانون التسخير في المباحث الفقهية

خلق الله ﷻ هذا الكون وفق قوانين منتظمة ومنسقة بين جميع المسخّرات جواهراً وأعراضاً، لحِكم عِدّة، منها الظاهرة كالأهلة في الحساب الزمني، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...﴾[1]، إذ جعل الله ﷻ الأهلة علامات الشهور ودلائل أزمان الفروض، ومواقيت للناس في الحج والصوم ومحل الكفارات وفعل الواجب والمندوب وحلول آجال الدَين[2].

ومن النعم غير المعلومة في قوله تعالى: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[3]، يبين الله ﷻ أنّ هناك منافع لا تعلمونها ولا يبلغها الإحصاء[4]، وما يهم البحث هو النِعم الظاهرة التي تُأثر على تطبيق العبادات والقيام بالتكاليف الشرعية في ظل تلك الظواهر الطبيعية في الكون بقوانينها المسخّرة للإنسان، فتظهر علاقة بين المسخرات وبين الأحكام العبادية، ويظهر مدى التأثير والتأثر الحاصل بينهما عند تطبيق تلك الأحكام التي يتعبد بها الإنسان لخالقه.

انمازت الأحكام الفقهية في الإسلام بقيامها - عادة - على المقاييس الطبيعية، لتوفرها لدى الناس ولا تتأثر بمرور الزمن عليها، أما المقاييس الغير الطبيعية فليست في متناول الجميع، فقياس الزمن يقوم على أساس: الشروق، والغروب، والزوال،

١()سورة البقرة: الآية / ١٨٩ .

٢()ينظر: القطب الراوندي، سعيد بن هبة الله، فقه القرآن (للراوندي)، ١٨٨/١ .

٣()سورة النحل: الآية/ ٨ .

٤()ينظر: مغنية: التفسير الكاشف، ٤٩٩/٤ .

ورؤية الهلال، والأشهر القمرية تفضل على الأشهر الشمسية في الأحكام الفقهية، على الرغم إن كُلاً منها يترتب على حركة الكواكب السماوية، لكن الأشهر القمرية قابلة لمشاهدة جميع الناس، في حين الأشهر الشمسية لا يمكن معرفتها إلا بواسطة[١].

إنّ المتأمل لقانون تسخير الشمس والقمر والأرض، لا يلبث أن تأخذه الدهشة من تلك الأجرام المتحركة وفق قانون عجيب وتوافق غريب، وما ينشأ عن تلك الجواهر من أعراض: ليل ونهار، شروق وغروب، وتطورات القمر من الهلال إلى البدر إلى المحاق ثم ظواهر الخسوف والكسوف وما يرافقها من رهبه وذهول، وتضرع وإذعان، لخالق هذا الكون المنتظم المنسق منذ ملايين السنين، قال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[٢]، جعلهما في مسيرهما كالحسبان في الفلك يقول لتعلموا عدد السنين والحساب وذلك أن الله ﷻ قدر لهما منازلهما في السماء الدنيا[٣].

الشمس والقمر بحسبان خلقهم الله ﷻ بعيده عن العجز والنقصان والخلل والطغيان، أي يجريان في أفلاكهما بحساب لا يتجاوزانه إلى أقصى منازلهما، تقطع الشمس جميع البروج الاثنى عشر في ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً، وبها الليالي والأيام والشهور والأعوام، فهما يجريان في منازلهما بحساب معلوم عنده[٤].

المطلب الثاني : نماذج من المسخّرات وفوائدها في العبادات

إنَّ الناظر إلى المسخّرات وإلى جميل ما خلق ﷻ ويتأمل صنعه وعظيم قدرته فيما وضع من قوانين في هذا الكون، يجد من بين كل تلك المسخّرات آيتين عظيمتين

١()ينظر: مكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٢/٢ .

٢()سورة الأنعام: الآية/ ٩٦ .

٣()ينظر: مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان، ٥٨٠/١ .

٤()ينظر: الطريحي، فخر الدين بن محمد: مجمع البحرين، ط٣، تح: الحسيني الإشكوري، أحمد، الناشر: مرتضوي، طهران، ١٤١٦ هـ، ٤٠/٢ .

في تعاقبهما وجريانهما في السماء هما الشمس والقمر، وجعل الله ﷻ تلك المسخّرات علامات ودلائل لبعض الأحكام التعبدية يُعلم بها أوقات الأداء لتلك العبادات والالتزام بها ولبيان ذلك نفصل في تلك الآيتين الشمس والقمر لما لهما من اثر كبير في المباحث الفقهية.

أولاً: اثر الشمس على المباحث الفقهية

إنَّ من نِعم الله ﷻ على المسلم أن فرض عليه الصلوات يؤديها في اليوم والليلة وكذلك الصيام في شهر رمضان وحج بيته الحرام، وهذه الفروض لم تكن عشوائية الأداء، بل حدد الله ﷻ لها مواقيت تؤدى بها، وتلك المواقيت مرتبطة بحركة الشمس والقمر والأرض.

من الفرائض التي ترتبط بدوران الأرض حول الشمس بالدرجة الأولى هي الصلاة وللشمس فيها اثر مباشر في تحديد وقتها، قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾(١)، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٢).

فالشمس لها أثر في اختلاف أحوال الليل والنهار وهي من آيات الله ﷻ وهذا الاختلاف يدل على صانع، وطول الليل تارة وطول النهار تارة أخرى من اختلاف الفصول، وهي أيضاً من الآيات العظام فمنها تنتظم أحوال العباد في تحصيل مصالحهم(٣).

إنّ الشمس سلطان النهار واكثر مصالح العالم مربوطة بها، وهي جوهر من

١()سورة الزمر: الآية /٥ .

٢()سورة لقمان: الآية /٢٩ .

٣()ينظر: الفخر الرازي، محمد بن عمر: التفسير الكبير مفاتيح الغيب، ١٦٦/٤ .

أعراضها الليل والنهار والنور والظلمة عسكران عظيمان مهيبان وفي كل يوم يغلب احدهما الآخر، فيزيد كل واحد منهما بقدر ما ينقص الآخر[١]، فالتكوير دلالة على الحركة لتكون الليل والنهار أما الولوج دلالة على قصر احدهما وطول الآخر، فالشمس للدفء والطاقة وتكوين الغذاء وتبخير الماء وتشكيل الرياح وكذلك بها يحدد أول النهار وآخره[٢].

إنّ الليل والنهار يحيطان الكرة الأرضية في كل وقت، فكل لحظة يدخل فيها النهار من طرف الكرة الأرضية، ويُلج النهار في الليل من طرف آخر، قال تعالى:﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[٣]، فالشمس تجري بحسبان ما يحتاج الخلق إليه في معايشهم ومعاملاتهم، فهي للحرث والزرع، وأمّا القمر فللمواعيد وآجال الديون في المعاملات، وفيها منافع لا يعرف تفصيلها إلا الله ﷻ[٤]

جعل الله ﷻ الصلوات الخمس مضبوطة بمواقيت، قال تعالى: ﴿...فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾[٥]، وأمرﷻ بإقامة الصلاة والإتيان بأعمالها على وجه التمام في خشوعها وركوعها وسجودها وسائر فرائضها[٦]، إذ تدل الآية الكريمة على طبيعة الصلاة لا تكون إلا بوقت محدد ومعلوم

١()ينظر: الفخر الرازي، محمد بن عمر: التفسير الكبير مفاتيح الغيب، ٤٢٣/٢٦ .

٢()ينظر: العبيدي، خالد فائق: ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية، ط١، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ١٤٢٦هـ، ٥٢/٦ .

٣()سورة الأنعام: الآية /٩٦ .

٤()ينظر: الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ١٢١/٤

٥()سورة النساء: الآية/ ١٠٣ .

٦()ينظر: القطب الراوندي، سعيد بن هبة الله، فقه القرآن (للراوندي)، ط٢، تح: الحسيني الإشكوري، أحمد والمرعشي، محمود، الناشر: كتابخانه عمومى حضرت آية الله العظمى مرعشى نجفى (ره)، قم ، ١٤٠٥هـ، ٨٣/١ .

وتم تحديد هذا الوقت في آيات أُخر[١]، وموقوتاً من التوقيت أي محدداً ومفروضاً فالصلوات الخمس لها وقت محدد[٢]، فقانون التسخير ضابطاً لأوقات الصلوات الواجبة، وكذلك صلاة الآيات، والاستسقاء، تعتمد على حركة المسخرات وآثارها.

قال تعالى:﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ...﴾[٣]، فالنهار هو مقدار من الزمان الذي أوله طلوع الشمس وآخره غروبها، فتدل الآية بأنَّ قبل النهار وبعده أي طرفيه وقتان للصلاة، قبل طلوع الشمس وحين غسق الليل بعد الغروب[٤]، وطرفي النهار يريد بهما صلاة الفجر والعصر، وزلفاً من الليل صلاة المغرب والعشاء[٥]، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿... وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ...﴾[٦]، المراد من التسبيح في هذه الآية الكريمة هو الصلاة اليومية المفروضة، قبل طلوع الشمس صلاة الفجر، وقبل غروبها صلاة العصر، وآناء الليل المغرب والعشاء، وأطراف النهار هي الظهر، فالآية تقتضي الصلوات الخمس في اليوم والليلة[٧].

في قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ۞وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[٨]، إنّ هذه الآية تدل على الصلوات الخمس في اليوم والليلة؛ لأن قولهﷻ ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يقتضي المغرب والعشاء، وقولهﷻ ﴿حِينَ تُصْبِحُونَ﴾ يقتضي صلاة الفجر، وفي قولهﷻ ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ يقتضي

١()ينظر: يزدي، محمد: فقه القرآن ،ط١، إسماعيليان ، قم المقدسة ، ١٤١٥هـ، ٧١/١-٧٢.

٢()ينظر: الحفني، عبد المنعم: موسوعة القرآن العظيم، ٢١٢٦/٢ .

٣()سورة هود: الآية/١٣٠ .

٤()ينظر: يزدي، محمد: فقه القرآن (لليزدي)، ٧٥/١ .

٥()ينظر: الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، ٧٩/٦ .

٦()سورة طه: الآية/١٣٠ .

٧()ينظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ٢٦٥/١٤ .

٨()سورة الروم: الآية/١٧-١٨ .

صلاة العصر، وقوله ﷻ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾يقتضي صلاة الظهر[١].

من خلال تعدد المشارق والمغارب التي بينها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ...﴾[٢]، فالشمس في كلّ يوم تطلع من نقطة جديدة مختلفة عن السابقة، وتغرب من نقطة جديدة أخرى، وبذلك لدينا بعدد أيّام السنة مشارق ومغارب[٣]، وإنّ مشارق الشمس ومغاربها متوالية على بقاع الأرض، فتغرب الشمس عن قوم، لتشرق على قوم آخرين، وهكذا تتوإلى في كل لحظة أثناء دوران الأرض حول نفسها وأمام الشمس، ليطلع مشرق هنا، ويختفي مغرب هناك[٤].

لذ فإنّ عبادة الله ﷻ مستمرة في كل لحظة، إذ يُرفع الأذان دون انقطاع طالما الأرض تدور، فيستشعر الإنسان بالعبادة المستمرة في كل بقعة على الأرض وفي كل وقت، وهذه القانون الذي يحكم المسخرات منذ خَلْقِها قائم حتى يأذن الله ﷻ بزواله، منتظم بهندسة عجيبة تنظم بها حياة الإنسان في معرفة أوقات صلاته اليومية.

ومن جانب آخر أخبر الله ﷻ وقت الصيام، فقال تعالى: ﴿...وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلى اللَّيْلِ...﴾[٥]، ويبدأ من بعد رؤيه الهلال والشهود، على استثناء من لم يستطع من السفر والمرض، فعدة من أيام أخر، بعدد أيام التي فاتته من أيّام الشهر الكريم، فيكون الصيام في النهار ابتداء من الخيط الأبيض الذي يحيط الأفق عند الفجر وهو الحدّ الأول، أمّا حدّهُ الثاني فهو الليل عند مغيب الشمس وتذهب حمرتها، وعلى تفسير ثاني

١()ينظر: مقاتل بن سليمان: تفسير مقاتل بن سليمان، ٤٠٩/٣ ، الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، ٢٣٧/٨ .

٢()سورة المعارج: الآية /٤٠ .

٣()ينظر: مكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٣٥/١٩ .

٤()ينظر: فضل الله، محمد حسين بن عبد الروف: من وحي القرآن، ١١٠/٢٣ .

٥()سورة البقرة: الآية/١٨٧ .

عند مغربها فقط[١].

فحقيقة الصيام الإمساك عن المفطرات ابتداء من الفجر الصادق حتى الليل، ولابد من تبيّن الفجر بالنظر في الأفق، فاذا بزغ خيط من البياض النور على امتداد الأفق وانكشف الظلام الليل فقد أسفر الفجر، ويبقى الصائم ممسك عن المفطرات حتى يأتي الليل إذ تغيب الشمس وعلى رأي تذهب حمرتها، فالشمس بشروقها وغروبها تُحدد مدة الصيام في اليوم الواحد.

فضلا عن ذلك إذا أجدبت الأرض، وقلت الأمطار استحب صلاة الاستسقاء[٢]، أيضاً صلاة كسوف الشمس وخسوف القمر فرض واجب، كذلك عند الزلازل والرياح المخوفة والظلمة الشديدة[٣].

يُلحظ من ذلك أنَّ القانون الذي جُبلت عليه الشمس، له فائدة جلية في معرفة أوقات الصلوات اليومية المفروضة على المكلفين، فالصلاة أحد أركان الإسلام نجدها ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بقانون التسخير، إذ أول ما يذكر عن الصلاة يذكر معها وقتها وسميت بمواقيتها، فصلاة الفجر في وقت الفجر وصلاة الظهر في وقت الظهر وهكذا بقية الصلوات مرتبطة بحركة الأرض، وطلوع الشمس وغروبها.

ثانياً: أثر القمر على المباحث الفقهية

التقويم الطبيعي ميسور للمتعلم والأميّ في جميع بقاع الأرض، وبه يمكن أن يحدد أول الشهر، وأوسطه، وآخره، وكل يوم من أيامه بدقة، فالتغيرات التدريجية المنتظمة التي تحدث وفق قانون التسخير للقمر، تجعل منه تقويماً طبيعياً يساعد الناس على تنظيم أمورهم الحياتية القائمة على التوقيت وتحديد الزمن، وكذلك تنظيم

١()المدرسي، محمد تقي: احكام الصيام وفقه الاعتكاف، ١٢/١ .

٢()ينظر: الشيخ المفيد: المقنعة، ط٢، تح ونشر: مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ١٤١٠هـ، ٢٠٧ .

٣()ينظر: الشيخ الطوسي: المبسوط، (د.ط) تصحيح: محمد تقي الكشفي، نشر: مكتبة الرضوية لإحياء آثار الجعفرية، مطبعة الحيدرية، طهران، ١٣٨٧هـ، ١٧٢/١

عباداتهم المقيدة بالزمان: كالحج، والصوم.

إنّ الهلال هو المرجع في تعيين دخول هذا الزمن، قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، الأهلة التي في منازل القمر المقدرة لها، مَواقِيتُ لِلنَّاسِ في شتى حاجياتهم الدينية والزمنية، ومواقيت للحج، الحج الأكبر لتبين أيامه في ذي الحجة، والحج الأصغر كعمرة التمتع فإنّها بادئة من أوّل شوال، والأهلة للحج أفردت بالذكر بعد عموم (مواقيت)؛ لأن الحج هو جملة العبادات بجملتها سياسية وسواها وقد تشمل على الصوم، وهي على أية حال في قمة الطقوس الإسلامية التي تحافظ على أساس الإسلام[2].

فكتاب التكوين والتدوين متجاوبان في الأصالة القمرية، وتلك الأهلة هي تقاويم قويمة قيّمة للناس ككلّ مهما اختلف أعرافهم ومذاهبهم بالنسبة للسنين والحساب، فالقمر في كتابي التكوين والتشريع مقياس لضبط الأوقات والتعرف إليها، ولا اضبط منه لكل الناس دون حاجة إلى وسائل مصطنعة خاصة ضبطا للأيام في غير المقياس القمري.

قال تعالى: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[3]، السؤال يتجه إلى الأهلة لأوائل الشهور، كذلك لكل أيام الشهور، فالكل هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ دون اختصاص بالأهلة الأولى دون الأخرى، و مهما كان لكلّ منزل من منازل القمر أو منازل له اسم خاص، ولكن الاسم الجامع لها، فالهلال هو في اطلاق عام يشمل كل الحالات القوسية وغير التامة للقمر؛ لأنه مقوس إلّا حالة النصف الدائري، فهو قبلها وبعدها مقوس، مهما اختلفت أهلته من حيث النعومة والضخامة، والأهلة

١()سورة البقرة: الآية/١٨٩ .

٢()ينظر: الصادقي، محمد: الفرقان في تفسير القرآن، ٨٨/٣ .

٣()سورة يس: الآية /٣٩ .

تشمل البدر للأغلبية، فهي تعم كل حالات القمر البارزة بأسرها[١].

كذلك الصيام الذي هو ركن من أركان الدين ومن ينكره يخرج عن الإسلام، وهو عباده مفروضة على المؤمنين والغاية منه تنميه روح التقوى، ليس فقط بحفظ النفس عن الشهوات الحلال ليكون حفظها عن الحرام أيسر، وإنّما هي عبادة تقرب المسلم إلى اللهﷻ وتزيده تقوى، وهو معدود لا يزيد ولا ينقص فإنّه شهر كامل وهو شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن الكريم[٢]، قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[٣]،

يُلحظ مما سبق إنّ في القمر حكمة في منازله واختلاف صوره، وهي معرفه الناس للمواقيت، فبداية شهر رمضان ونهايته، وسائر منافعهم ترتبط بالقمر، ورؤيته مُيسّرة لكل الناس مما جعلهم يضبطون مواقيتهم بلا تكلف ولا اختلاف، فرؤية الهلال في شهر شعبان هو بمثابة الإذن بالدخول لشهر رمضان وتحقق عبادة الصيام على المكلف غير المعذور، وشهود هلال شوال بمثابة إتمام لشهر رمضان وانتهاء عبادة الصيام للمكلف ودخول العيد، فإنّ تطبيق عبادة الصيام تنعقد حين الشهود لهلال شعبان وينقضي عند شهود هلال شوال، لذ فإنَّ حركه الشمس والقمر مشهدان من مشاهد الكون، ويبتنى على تلك الحركة تقدير الزمن وحساب السنين، فالشمس في ضيائها الناتج عن الانفجارات الذرية والقمر المنير إذ يستمد نوره من الشمس عاكساً ضوئها الساقط عليه، ويحل القمر في كل ليله منزلة فيبدأ بالهلال ثم ينمو ليصير بدراً ثم يتناقص إلى المحاق.

فالشمس والقمر وسيلتان أساسيتان لضبط الوقت، وكل هذا القانون وهذا التناسق وهذه الدقة التي لا تشوبها أي خلل أو تغيير، لم تكن وليده العبث والمصادفة

١()ينظر: الصادقي، محمد: الفرقان في تفسير القرآن، ٩٠/٣ .

٢()ينظر: القطب الراوندي، سعيد بن هبة الله، فقه القرآن (للراوندي)، ١٧٤/١ ، المدرسي، محمد تقي: احكام الصيام وفقه الاعتكاف، ط١، دار بقيع، ١٤١٦هـ، ٧/١ .

٣()سورة البقرة: الآية/١٨٥ .

العابرة، إنّ في اختلاف الليل والنهار وتعاقب الليل والنهار، واختلافهما في الطول يوماً بعد يوم، دليل على وجود خالق قادر وهو المدبر لأمر هذا الكون وفق قانون دقيق منسجم بين الأعراض والجواهر في لوحه إلهية بالغة الجمال بتناسق وحدتها الموضوعية في تسخير الموجودات للإنسان في هذا الكون تحقيقاً لخلافته وعمارته على الأرض، فلولا هذا القانون وهذا الانتظام لعطلت العبادات واختلفت.

المبحث الرابع: فوائد قانون التسخير على المستوى التنويري

كل إنسان له غريزة تدفعه على استكشاف كل مجهول يحيط به ومعرفة حقائقه، وما يكتنفه، ومن هذا المنطلق تراوده هواجس واستفسارات حول كل أمر في حياته، فيتحرى عن منشأ الخلق وعلّته، فمن هذه المسائل التي تراوده هي خلق الكون وتسخيره وفق القوانين والنظم التي يتقوّم عليها، فهذه الأفكار لا تنفك عن مخيلة الإنسان كلما اختلى مع نفسه وتأمل في ما حوله[١]، وقد أمر القرآن الكريم على التفكر والتدبر في آيات الله ﷻ وتسخيرها [٢]؛ لأهميته في بيان الحكمة من تسخير الكون، وإثبات عبودية المسخرات، وكما يأتي بيان ذلك:

المطلب الأول: قانون التسخير والأمر بالتفكر

عندما وهب لنا الله ﷻ العقل وقوة التفكير، أمرنا أن نتفكر في تسخير مخلوقاته، ونتأمل في آثار صنعه، ونتدبر في حكمة خلق الكون وتسخيره وإتقانه وتدبيره له، وما جاء في القرآن الكريم من الحث على التفكير واتباع المعرفة والعلم، إنما جاء مقرراً للفطرة في العقل ومنبهاً للنفس على ما جبلت عليه من الاستعداد للمعرفة والتفكير[٣]، وهذا التفكر في التسخير، والنظر في آثار الأمم السابقة، والسير في الأرض، لا يتم في الغرفة المغلقة إنما على الطبيعة، يدرس الإنسان الحفريات وينقب عن الآثار ويبحث في طبقات الأرض، لكي يفهم كيف ابتدع الله ﷻ الخلق ابتداعاً، ويكون الإنسان قادراً على ملاحظة التطورات الحياة من خلال النظر والتفكر في قانون تلك المسخّرات[٤] .

لقد انعم الله ﷻ على الإنسان بالعقل والتفكير وميّزه عن سائر المخلوقات

١()ينظر: قراملكي: أجوبة الشبهات الكلامية/ التوحيد ١٣

٢()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٤٦٣/٨.

٣()ينظر: المظفر، محمد رضا: عقائد الامامية،(د.ط)،مكتبة الامين، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٨٨هـ، ٣٣.

٤()ينظر: المدرَسي، محمد تقي: من هدي القرآن، ٤٣٥/٩ .

بخاصية التعقل، فقد ورد في القرآن الكريم آيات عديدة في الأمر بالتفكر سواء التفكر في ذات الإنسان أم في المسخّرات أم في الآيات المتلوة، وما يريده البحث هو بيان الأمر في التفكر بالمسخّرات وقانونها الثابت ونسقها المنتظم المبثوث في الكون، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ الله السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ...﴾(١)، فقد أمرهم بالسير في مناكب الأرض إلى المعرفة تسخير الكون والنظر فيه(٢)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(٣).

إنّ من صفة أولي الألباب أن يتفكروا في خلق الكون وتسخيره، ويتدبروا في كل ما حولهم ومن حولهم، ليستدلوا على وحدانية الله ﷻ وعلمه وحكمته وكمال قدرته، فهم يستدلون على توحيد الله ﷻ بخلقه وتسخيره للسماوات والأرض وما بينهما(٤)، فكان لسان حالهم أنّ ما خلقته وسخرته ليس عبثاً بل دلالة على وحدانيتك وحكمتك وطريق إلى معرفتك وعبادتك(٥)، فمن تفكر في قانون تسخير مخلوقات الله ﷻ يتصف بصفة أولي الألباب، ولو كانت المسخّرات على غير نظام وقانون لما كان الكون مدعاة للتأمل والتفكر.

من ضروريات الحياة الإنسانية أن يمر الإنسان بمراحل ينتقل بها من القصور والجهل وصولاً إلى العلم الذي لا ينتابه الشك وهو اليقين، فحجية النظر متقدمة على اليقين، وهذا قانون الحياة الإنسانية في التدرج من النقص إلى الكمال ولا يختلف فيها البشر، وفي حال وجود بعض الأفراد يخالف ذلك كما يحكيه القرآن الكريم عن عيسى ابن مريم ويحيى عليهما السلام فلا يكون ذلك إلا بخرق العادة الجارية، فما كل إنسان على هذا

١()سورة الروم: الآية /٨.

٢()ينظر: صدر المتألهين: تفسير القران الكريم، ٦٣/٢ .

٣()سورة آل عمران: الآية/ ١٩١ .

٤()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٩١٠/٢ .

٥()ينظر: الشيباني، محمد بن الحسن: نهج البيان عن كشف معاني القرآن، ط١، تح: دركاهي، حسين، نشر الهادي، قم، ١٤١٣هـ ، ١٠١/٢ .

النعت ولا كل نبي تم له ذلك[١].

جاء في القرآن الكريم كثيرٌ من الآيات التي تتضمن الحديث عن قانون التسخير والتفكر به، من السماوات والأرض والجبال والبحار والرياح والأمطار والنبات والدواب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ الله مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢]، فكل تلك المسخّرات تدل على إنّ لها خالق مدبر ومسخِّر، من جهة أنّه فعله متقن ومحكم، وبنظام واحد وعلى ترتيب واحد فلا تفاوت ولا اختلاف، وهي لقوم يعقلون أي من استدل منهم؛ لانّ من لم ينتفع بالتسخير ولم يستدل به على الخالق، صار كالذي لا عقل له، ووصف المتدبر للتسخير بقوم يعقلون[٣].

النظر هو طلب الشيء من جهة الفكر كما يطلب إدراكه بالعين، في قوله تعالى:﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾[٤] أي انظروا - بصيغة الأمر - ماذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من الدلائل والعبر في اختلاف اللّيل والنهار، وما في السماء من نجوم وأفلاك، وما خلق من الجبال وإنبات الأشجار وثمارها وأنواع الحيوانات وفوائدها الّتي يُستفاد منها، فإنّ النظر والتدبّر بتسخير المسخّرات في أفرادها وجملتها، يدعو الذي له عقل إلى معرفة الصانع واليقين بوحدانيّته وقدرته وحكمته[٥].

من يتأمل في آيات الله ﷻ يجد عظمة الخالق ودلائل القدرة الإلهية في إنشاء

١()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ١٧٢/٧-١٧٦ .

٢()سورة البقرة: الآية/ ١٦٤ .

٣()ينظر: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٤٥٠/١ .

٤() سورة يونس: الآية/١٠١ .

٥()ينظر: الحائري الطهراني، علي: مقتنيات الدرر،٢٨٧/٥.

هذ الكون، ومن يتفكر في ذلك الخلق والإيجاد ينال الفضل في تفكره، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1] فالله ﷻ ابدع في خلق هذا الكون، واحكم صنع كل شيء وفق قانون مبرمج ودقيق للغاية يدل على قدرة صانع مبدع في صنعه، وسخّر كل ما في الكون للإنسان لكي يتفكر في قدرة خالقه الجليلة، حيث يعود بالنفع له في كمال إيمانه، فيزداد حب العبد لربه وخضوعه وتسليمه لأمر خالقه، والتوكل عليه في جميع الأمور فسبحانه الذي قدر كل شيء فأحسن تقديره، فقال تعالى : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[2]

الإنسان شيّد الأهرامات بمضاعفة القوة الفردية من أجل العمل المشترك، وقد اكتشف الرافعة والعجلة والنار، كما جعل من الحيوانات تحمل له حمولته مستأنسة، وأضاف لها العجلات ومع تطور الحياة الإنسانية فقد تمكن من التحكم بقوة البخار والغاز والكهرباء، وتوصل إلى الأجهزة الميكانيكية والألكترونية التي هي من مستحدثات عقله، كما أنه وظف قانون الجاذبية الذي هو القدرة الإلهية في جذب الأشياء إلى الأرض، بعد أن استبعد مواجهته وقمعه، فقام بدراسته والعمل بما يتطلب هذا القانون من قوة معاكسة لرفع الأجسام من الأرض إلى الفضاء، فتمكن من الطيران وكذلك الوصول إلى سطح القمر، فلا يحدث هذا بالمصادفة إنما بقدرة إلهية وعناية ربانية، فالقرآن الكريم لم يوكل التفكير بتسخير الكون إلى فئة معينة - كما في استنباط الحكم الشرعي إذ أوكل هذه العملية إلى المتخصصين الفقهاء وفي هذا قيمة حضارية واحترام لذوي الاختصاص – وإنما جعل مهمة التفكير في تسخير الخلق وظيفة كل فرد وقرر ذلك وأكده مراراً ووضع له منهجاً صحيحاً في التفكير محدداً

(١)سورة آل عمران: الآية ١٩٠-١٩١.

(٢)سورة الفرقان: الآية ٢.

أبعاده ومعالمه وآفاقه[١].

العلم بقانون التسخير يتحقق من خلال أدواته للنظر والاستدلال والتفكر، قال تعالى: ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢]، فالإنسان يولد خاليا من كل أداة من أدوات المعرفة التي تتيح له التحرك في اتجاه الحصول عليها، إلا ما اختزنته الفطرة السليمة في عمق الذات من استعداد للتعلم، فيشكل القاعدة لكل معرفة تأتيه من الخارج، إذ زود الإنسان بأدوات المعرفة الحسية السمع والبصر، أما الْأَفْئِدَةَ فهي أدوات المعرفة العقلية، وهذه هي النعم التي تفتح للإنسان باب المعرفة بقانون التسخير لهذا الكون، ولكل القضايا التي قد تكون بعيدة عنه، بحيث لا يمكن أن يدركها بطريقة مباشرة، ولكنه يدركها بطريقة فكرية، ويريد الله ﷻ للإنسان أن يتعمّق في وعيه وتفكيره لقيمة هذه النعم، ويدرك أهميتها في كل حركة بحياته، ليعرف من خلال هذا التفكر علاقتها بالله ﷻ وبمنته عليه، ليتحول ذلك إلى موقف اعتراف بالجميل وشكر الله ﷻ[٣].

الإيمان بالله ﷻ لا يكون صحيحاً إلا إذا كان مبنياً على العلم لا على التقليد، ولا على الأوهام والشطحات، وإنّ طريق العلم واليقين بالله ﷻ هو التفكر بقانون التسخير لتلك المخلوقات من تدبير وتنسيق بين أجزاء الكون وكلياته[٤]، فالإسلام يدعو الإنسان إلى التأمل والتفكر في الطبيعة باحثاً في أسرارها وفوائدها ومنقباً عن منافعها، فقد ركز على النظر في ملكوت الله ﷻ والتفكر بالمعرفة الحسية والمشاهدة، وهذا ما سار عليه المسلمون وانتقلت منهم إلى الأوربيين فكانت أساس العلم التجريبي لديهم[٥].

١()ينظر: معرفة، محمد هادي: التمهيد في علوم القرآن، ٢٩١/٦ .

٢() سورة النحل: الآية/٧٨ .

٣()ينظر: فضل الله: من وحي القرآن، ٢٦٩/١٣ .

٤()ينظر: مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف، ١٢/٥ .

٥()ينظر: مغنية: التفسير الكاشف، ٢٤/٥ .

يُلحظ مما سبق التنوع في الحث على التفكر بقانون التسخير في القرآن الكريم، فتارةٌ بالأمر وتارةٌ بالاستنكار، وأخرى بختم الآيات بالتعقل والتفكر، ووصف أصحابها بقومٍ يعقلون أو يتفكرون وأولي الألباب، وان اليقين هو نتيجة للتفكر ومتأخر عنه.

المطلب الثاني: أهمية التفكر بقانون التسخير

عند النظر في قانون التسخير والتأمل فيه من خلال دراسة الأسرار الكامنة في الكون، والنظر في عالم الخلق، نجد أنّ الموجودات برمتها تدلنا إلى كمالات الله ﷻ الوجودية، فلا يتصور احد أنّ بناء الكون، ودقة نظامه، قد تم من دون علم واختيار وقدرة[١].

التفكر في تسخير خلق الله ﷻ يزيد الإيمان في القلب ويرسخ اليقين، كما يمنح خشية الله ﷻ وتعظيمه، فالتفكر من صفات المؤمنين العالمين بما حولهم من تسخير الكون، فالعلماء هم من يخشون الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾[٢]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ الله عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[٣]، فلا يخاف الله ﷻ حق خوفه إلا العلماء الذين ينظرون في حجج الله ﷻ وبيناته ويفكرون بما يفضي بهم إلى معرفة الخالق من خلْقه وتسخيره للسماء والجبال مختلفة ألوانها والناس والدواب والأنعام[٤].

١()ينظر: السبحاني، جعفر: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، (د.ط) تر: جعفر هادي، قم - ايران، (د.ت)، ٦٦ .

٢()سورة النازعات: الآية/٤٥ .

٣()سورة فاطر: الآية/٢٧-٢٨ .

٤()ينظر: الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، ٤٢٧/٨ .

خشيتهم على قدر معرفتهم بخالقهم وما سخر لهم من مخلوقات عظيمه[١]، والخوف لا يكون إلا مع العلم لا مع الجهل[٢]، والنظر في تسخير ملكوت الله ﷻ وقانونه المبثوث في الكون يهدي الإنسان إلى التوحيد هداية قطعية[٣]، ولأهمية التسخير نجد أنّ الله ﷻ أقسم ببعض المسخرات، وبقانونها وبديع صنعها كالخنس[٤]، والليل، والشمس، ومواقع النجوم...تنبيهاً لما فيها من بديع صنع وكمال قدرة ولعظمة الله ﷻ في خلقه فقد عظم القران الكريم أمرها[٥]، كما أنّ هناك سور تحمل اسم أحد تلك المسخرات كسورة الشمس، القمر، النجم، الليل، الضحى، الأنعام...

بمجرد التفكر في قانون التسخير ينال الإنسان منزلة رفيعة عند الله ﷻ وفضل، ومدح القرآن الكريم العباد الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، ويذكرونه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فالتفكر بما يقرب إلى الله ﷻ من أهم المطالب الدينية قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار﴾[٦].

١()ينظر: الشريف الرضي، محمد بن الحسين: حقائق التأويل في متشابه التنزيل، ٥/ ٧٥ .

٢()ينظر: الشيباني: نهج البيان عن كشف معاني القرآن،٤/٢٦٠ .

٣()ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ٧/١٧١ .

٤() جمع خانس، صفة النجوم فالمراد بها التي تخنس نهارا، وتطلع ليلا، ينظر: الشريف الرضي، محمد بن عبد الحسين: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ط٢، المصحح: الحسن محمد عبدالغني، بيروت، ١٤٠٦هـ، ٣٥٩ .

٥()ينظر: صدرالدين الشيرازى، محمد بن إبراهيم: تفسير القرآن الكريم، ٥/١٢٠ .

٦()سورة آل عمران: الآية/ ١٩٠-١٩١ .

الخاتمة

الخاتمة

١. إنّ قانون التسخير يُقرّ بالوحدانية من خلال اثارة دفائن العقول حول وجود الله ﷻ عبر المسخّرات، التي تحيط بالإنسان والتي تدخل ضمن اهتماماته وتلامس حاجاته، والتي يقع عليها بصره وحواسه، فهو مدار إثبات وجود الله ﷻ ومُظهر صفاته العَليّة التي لا نهاية لكمالها كالرحمة والقدرة والحكمة...

٢. إنّ قانون التسخير يُمَكّن الإنسان على القيام بالمهمة الأساس في وجوده، وهي الاستخلاف وعمارة الارض فإذا وظّف الإنسان قانون التسخير في حياته تمكّن من إصلاح الأرض وعمارتها.

٣. قانون التسخير عام شامل لجميع المسخرات العلوية والسفلية فلولا ثبات واستمرار القانون في تلك المسخّرات لانفضّ عُقد الكون واندثرت اجزائه واضطربت الحياة وانتهت.

٤. إنّ المسخّرات تسير في قانونها بطاعة لخالقها، وفق حياة نسبية اوجدها خالقها فيها، فهي حيّة بنسبة وعاقلة بنسبة تجعلها تعبد وتسبّح وتختار وتطيع وتشهد.

٥. إنّ قانون التسخير يسري في الوجود كله، ولا يمكن تصوّر المسخّرات دون قانونها لأنّ في نفي قانون التسخير اثبات للصدفة والاتفاق، ونفي الايمان بأي قانون في الوجود.

٦. بفضل قانون التسخير تمكّن الإنسان من أنّ يتعامل مع الطبيعة ومظاهرها، على أنّها موجودات قائمة على إرادةٍ عاقلةٍ.

٧. القرآن الكريم اغلب آياته تتكلم عن القانون الذي تسري عليه المسخّرات، من خلال ذكر الآيات الكونية بالترغيب تارة والترهيب تاره أخرى.

٨. قانون التسخير يُمكن أن يوصف بأنّه قانون دائم جاري مجرى الزمان وينطبق على كل المسخّرات لأنّه متعلق بالقرآن الكريم والقرآن باقي ما بقي الزمن وهو دستور الحياه.

٩. يعد العلم بقانون التسخير من الوسائل الدعوية الضرورية التي تعين على فهم الصحيح لمعاني القرآن الكريم، فإنّ واقع المسلمين من التخلف الحضاري

والتدهور الاجتماعي، وغياب القوة والعزة والسلطان، إنما يعزى الى الجهل بقانون التسخير، ولا سبيل الى التقدم والنهضة والرقي الا بفهم وحسن استعمال وإتقان واستثمار هذا القانون.

١٠. قانون التسخير ليس بدعة بل قواعد ثابتة في كتاب الله ﷻ ويجب التعامل معه على أنه علم ومن أهم العلوم، فيجب أن تكون له أصوله وضوابطه، فقول الله ﷻ أنّ هناك قانون لكل شيء، يوجب علينا أن نجعل هذا القانون علماً من العلوم لنستمد منه الهداية والموعضة

التوصيات

١. القرآن الكريم لا تحصى نعمه ولا تنقضي عجائبه، وإنّ حصر قانون التسخير فيه لا يمكن أن يكون في رسالة بل يحتاج الى أكثر من مُؤَلَّف؛ لأنَّ فيه آفاق لا تدرك ولا ينبغي أن تترك، وعليه لابد من استفراغ الوسع من الباحثين في تتبع جزئيات قانون التسخير في القرآن الكريم لإظهار عظمته وفوائده في الحياه.

٢. استخراج كنوز التسخير من كتب المرويات لأهل البيت (عليهم السلام) وبيان حدود التسخير عندهم مع إمكانية تطبيقها لكل معصوم بمؤلف يظهر فيه التسخير الكون عندهم وجعلها دراسة في مرويات أهل البيت.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١-الأبياري، إبراهيم، الموسوعة القرآنية، ط١، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٤٠٥ هـ.

٢-أحمد، يوسف حاج: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم و السنة المطهرة،ط٢، مكتبة دار ابن حجر، دمشق، ١٤٢٣هـ.

٣-ابن إدريس، محمد بن أحمد: المنتخب من تفسير القرآن والنكت المستخرجة من كتاب التبيان، ط١، كتابخانه عمومى حضرت آيت الله العظمى مرعشى نجفى (ره)، قم، ١٤٠٩هـ.

٤-الأزهري، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ(ت ٩٠٥هـ): شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٥-الأصفهاني، أبو الحسين بن محمد الراغب: المفردات في غريب القران، تح: صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم، بيروت، ١٤١٢هـ.

٦-الأصفهاني، أبو الحسين بن محمد الراغب: تفسير الراغب الأصفهاني، ط١، تح: محمد عبد العزيز بسيوني، نشر كلية الآداب - جامعة طنطا، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

٧-اصفهاني، محمد حسين: مجد البيان في تفسير القرآن،ط١، مؤسسة البعثة، طهران، ١٤٠٧هـ.

٨-ابن العربي، محمد بن عبدالله: أحكام القرآن (لابن عربي)، ط١، دار الجيل ، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٩-الكرماني، محمود بن حمزة: أسرار التكرار في القرآن، ط١، الناشر: دار الفضيلة، القاهرة ، (د.ت).

١٠- الآملي، عبدالله الجوادي الطبري: تسنيم في تفسير القرآن، ط٢، تح: محمد

عبدالمنعم الخاقاني، دار الإسراء، بيروت – لبنان، ٢٠١١م.
١١- الأنباري، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري: اسرار العربية، ط١، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٩٩٩م.
١٢- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان: البحر المحيط، ط١، تح: صدقي محمد جميل، نشر، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
١٣- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: إعجاز القرآن للباقلاني، ط٥، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ١٩٩٧م.
١٤- البقاعي، إبراهيم بن عمر: نظم الدرر في تناسب الآيات و السور، ط٣، تحقيق عبد الرزاق غالب، نشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ.
١٥- البلاغي، محمد جواد: آلاء الرحمن في تفسير القرآن، ط١، تح: مؤسسة البعثة شعبة التحقيقات الإسلامية، الناشر: الوجداني ، قم، (د.ت).
١٦- پاني پتي، ثناء الله: التفسير المظهري، ط١، مكتبة رشدية ، كويتا، ١٤١٢ هـ.
١٧- الثعلبي، أحمد بن محمد: الكشف والبيان(تفسير الثعلبي)، ط١، دار احياء التراث العربي، تح: ابي محمد بن عاشور، بيروت، ١٤٢٢هـ.
١٨- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط٣، تح: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٢م.
١٩- الجرجاني، علي بن محمد بن علي: التعريفات، ط١ تحقيق، جماعة من العلماء، نشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
٢٠- الجزائري، نعمة الله بن عبد الله: عقود المرجان في تفسير القرآن، ط١، تح: مؤسسة الضحى الثقافية، الناشر: نور وحي، قم ١٤٣٠هـ.
٢١- الجصاص، أحمد بن علي: أحكام القرآن (للجصاص)، ط١، تح: القمحاوي، محمد صادق، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ.
٢٢- الجعفي: المفضل بن عمر: توحيد المفضل إملاء الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام على المفضل، ط٢، مؤسسة الوفاء، لبنان، ١٤٠٤هـ.

٢٣- الجليند،محمدالسيد:الوحي والإنسان قراءة معرفية،(د.ط)، دارقباء،مصر، ٢٠٠٢م.
٢٤- جمال الدين ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، (د.ط)، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت).
٢٥- الجمل، سليمان بن عمر: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية،ط١، دارالكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، ١٤٢٧هـ.
٢٦- الجوهري، إسماعيل بن حماد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق، أحمد عبد الغفور عطار، ط٤ ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م .
٢٧- الحائري الطهراني، علي: مقتنيات الدرر، ط١، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٧٨ هـ.
٢٨- حسن، عباس: النحو الوافي، ط١٥، دار المعارف، (د.ت).
٢٩- الحفني، عبد المنعم: موسوعة القرآن العظيم، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤٢٤هـ.
٣٠- الحملاوي، احمد محمد: شذا العرف في فن الصرف، مراجعة وشرح: حجر عاصي، ط١ ، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.
٣١- حوّى، سعيد: الأساس في التفسير، ط٦، دار السلام ، القاهرة، ١٤٢٤ هـ.
٣٢- خسروبناه، عبدالحسين: الكلام الإسلامي المعاصر، ط١، تر: محمد حسين الواسطي، دار الكفيل، ١٤٣٨هـ.
٣٣- خطب الإمام علي: نهج البلاغة، صادق الموسوي، ط١، مطبعة مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، نشر مؤسسة الإمام صاحب الزمان(عج)، طهران، ١٤١٨هـ .
٣٤- الخطيب، عبدالكريم: التفسير القرآني للقران، ط١،الناشر ، دار الفكر العربي، بيروت، ١٤٢٤هـ.

٣٥- الخلخالي، محمد مهدي: الحاكمية في الإسلام، ط١، تر: جعفر هادي، مجمع الفكر الإسلامي، قم، ١٤٣٥هـ.
٣٦- خلدون، عبد الرحمن بن محمد: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،ط٢، تح: خليل شحادة، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ.
٣٧- الخميني، مصطفى: تفسير القرآن الكريم، ط٤، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني (ره)، طهران، ١٤١٨ هـ.
٣٨- دامغاني، حسين بن محمد: الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، ط١، لجنة احياء التراث الاسلامي، تح: محمد حسن ابوالعزم الزفيتي، القاهرة، ١٤١٦هـ .
٣٩- الرازي ، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي: مختار الصحاح، تحقيق يوسف الشيخ محمد، ط٥، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .
٤٠- الرازي، فخرالدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن: المحصول، ط٣، تح: طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧ م
٤١- الرازي، أحمد بن فارس بن زكرياء : معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، نشر، دار الفكر،١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٤٢- الراغب، عبدالسلام أحمد: وظيفة الصورة الفنية في القران الكريم، ط١، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ٢٠٠١م.
٤٣- رضا، محمد رشيد: تفسير المنار، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤ هـ .
٤٤- الرفاعي، احمد محمد :المدخل للعلوم القانونية(نظرية القانون)، ٢٠٠٨م.
٤٥- الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق (ت ١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، نشر دار الهداية، (د.ت).
٤٦- زحيلي، وهبة: التفسير الوسيط (للزحيلى)، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٢ هـ.
٤٧- الزرقاني، محمد عبدالعظيم: مناهل العرفان في علوم القران، ط٣، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٨هـ.

٤٨- الزمخشري جار الله، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد: المفصل في صنعة الاعراب، ط١ ، تح: علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٣٩م.
٤٩- أبو زهرة، محمد، زهرة التفاسير، ط١ ، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
٥٠- زيدان، عبدالكريم، السنن الإلهية في الأمم والأفراد والجماعات في الشريعة الإسلامية: ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.
٥١- الزين، سميح عاطف: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د.ت).
٥٢- السامرائي، فاضل صالح: معاني الأبنية في اللغة العربية، ط٢، دار عمار، الاردن، ٢٠٠٧م.
٥٣- السبحاني، جعفر: التوحيد والشرك في القرآن الكريم، ط٢، مؤسسة الإمام الصادق، قم،١٤٢٦هـ.
٥٤- السبحاني، جعفر: محاضرات في الإلهيات، ط١٠، تلخيص ، علي الرباني الكلبايكاني ، نشر، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ١٤٢٧هـ.
٥٥- السبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ع) تر: جعفر الهادي، اعتماد ، قم، ١٤١٩ - ١٩٩٨ م
٥٦- السلطان علي شاه، محمد بن حيدر: بيان السعادة في مقام العبادة، ط٢، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٤٠٨هـ.
٥٧- سليم، هشام طه محمود: المدخل في دراسة العلوم القانونية نظرية القانون ونظرية الحق (د.ط)،٢٠١٤م.
٥٨- السمرقندي، نصر بن محمد: تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، ط١، دار الفكر - بيروت، ١٤١٦ هـ.
٥٩- السنهوري، عبد الرزاق احمد، ابو شتيت، أحمد حشمت: اصول القانون أو المدخل لدراسة القانون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٠م.
٦٠- السهيلي، ابو قاسم عبدالرحمن بن عبدالله: نتاج الفكر في النحو، تح: عادل احمد

عبد الموجود، علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

٦١- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي: الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م.

٦٢- سيد قطب، إبراهيم حسين: في ظلال القرآن، ط١٧، نشر دار الشروق، بيروت، ١٤١٢ هـ.

٦٣- ابن سيده، علي بن إسماعيل: المحكم والمحيط الاعظم، تحقيق عبدالحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

٦٤- ابن سينا، الحسين بن عبدالله: القانون في الطب، تح: محمد أمين الضناوي، (د.ت).

٦٥- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، ط١، تحقيق، محمد إبراهيم عبادة، نشر، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤ م

٦٦- شبر، عبدالله: الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين،ط١، مكتبة الألفين، الكويت، ١٤٠٧هـ.

٦٧- شرف الدين، جعفر: الموسوعة القرآنية خصائص السور، ط١، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٦٨- الشريف الرضي، محمد بن الحسين: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ط٢، المصحح: الحسن محمد عبدالغني، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٦هـ.

٦٩- الشريف الرضي، محمد بن الحسين: حقائق التأويل في متشابه التنزيل، ط١، شرح:آل كاشف الغطاء، محمد رضا، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٦هـ.

٧٠- شريف، عدنان: علم الفلك القرآني، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٢١هـ.

٧١- شعبان، مروان وحيد، الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، ط١، دار المعرفة ، بيروت، ١٤٢٦هـ.

٧٢- الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي، ط١، الناشر، إدارة الكتب و المكتبات، بيروت، ١٤١١هـ.

٧٣- ابن شهرآشوب، محمد بن علي: متشابه القرآن ومختلفه ،ط١، بيدار، قم المقدسة، ١٣٦٩هـ.

٧٤- الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم: تفسير الشهرستاني المسمى مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار، ط١، مركز البحوث والدراسات للتراث المخطوط، طهران، ١٤٢٨هـ.

٧٥- الشوكاني، محمد: فتح القدير، ط١، دار ابن كثير، دمشق، ١٤١٤هـ.

٧٦- الشيباني، محمد بن الحسن: نهج البيان عن كشف معاني القرآن، ط١، تح: دركاهي، حسين، نشر الهادي، قم، ١٤١٣هـ.

٧٧- الشيخ الطوسي: المبسوط، (د.ط) تصحيح: محمد تقي الكشفي، نشر: مكتبة الرضوية لاحياء اثار الجعفرية، مطبعة الحيدرية، طهران، ١٣٨٧هـ.

٧٨- الشيخ المفيد: المقنعة، ط٢، تح ونشر: مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ١٤١٠هـ.

٧٩- الشيخ أمين، بكري: التعبير الفني في القرآن الكريم، ط٣، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٩م.

٨٠- الشيخلي، بهجت عبدالواحد: اعراب القران الكريم(للشيخلي)، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٧هـ.

٨١- الشيرازي، صدر الدين محمد: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٩٨١م.

٨٢- الشيرازي، ناصر مكارم، معرفة، محمد هادي: تفكروا في عظمة خلق الله، ط١ ، جمعهُ: محسن عقيل، دار الحجة البيضاء، لبنان، ١٤٢٢هـ .

٨٣- الصادقي، محمد: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم(صادقي طهراني)،ط١، مكتب المؤلف، قم(د.ت)

٨٤- الصادقي، محمد: الفرقان في تفسير القرآن، ط٢، فرهنك اسلامي، قم، ١٤٠٦هـ.

٨٥- الصاوي، أحمد بن محمد: حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ط٤، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون ، بيروت، ١٤٢٧ هـ.

٨٦- صدر المتألهين الشيرازى، محمد بن إبراهيم : تفسير القرآن الكريم (صدرا)،ط٢، المصحح: الخواجوي، محمد، قم المقدسة، ١٤٠٢هـ.
٨٧- الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنية، ط١، دار القران الكريم، لبنان، ٢٠١٣م.
٨٨- الصغير، محمد حسين علي: الصورة الفنية في المثل القرآني، (د٠ط)، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨١م.
٨٩- صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، ١٩٨٢م.
٩٠- الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ط٢، نشر مؤسسة الأعلمي بيروت،١٣٩٠هـ.
٩١- الطبراني، سليمان بن أحمد: التفسير الكبير(تفسير القران العظيم)، ط١، دار الكتاب الثقافي، اربد، ١٤٢٨هـ.
٩٢- الطبرسي، الفضل بن حسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، ط٣، المصحح: اليزدي الطباطبائي، فضل الله، الرسولي، هاشم، الناشر: ناصر خسرو ، طهران، ١٤١٣ هـ.
٩٣- الطبرسي، الفضل بن الحسن: تفسير جوامع الجامع، المصحح، الگرجي أبو القاسم، ط١، قم، ١٤١٢ هـ .
٩٤- الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري)، ط١، نشر، دار المعرفة ، بيروت، ١٤١٢ هـ.
٩٥- الطريحي، فخر الدين بن محمد: مجمع البحرين، ط٣، تح: الحسيني الإشكوري، أحمد، الناشر: مرتضوي، طهران، ١٤١٦ هـ.
٩٦- الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، المصحح: أحمد حبيب قصير العاملي، ط١، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
٩٧- بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي: التحرير والتنوير، نشر الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤ هـ.
٩٨- العاملي، محمد حسن: تفسير البيان الصافي في كلام الله الوافي، ط١ ،مؤسسة البلاغ، بيروت، (د.ت).

٩٩- عبد الحميد، أحمد مختار وبمساعدة فريق عمل: معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، عالم الكتب، ٢٠٠٨م.

١٠٠- عبدالباقي، محمد فؤاد : المعجم المفهرس لألفاظ القارن الكريم، (د.ت) مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٤هـ.

١٠١- عبدالعال، محمد قطب: من جمالية التصوير الفني في القرآن الكريم، مجلة دعوة الحق، العدد٩٩، السنة التاسعة، ١٩٩٠م.

١٠٢- عبدالغني، أيمن أمين: الصرف الكافي، ط٥ ، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، ٢٠١٠م

١٠٣- أبو عبيدة، معمر بن المثنى: مجاز القرآن، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨١ هـ.

١٠٤- العبيدي، خالد فائق: ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية، ط١، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ١٤٢٦هـ.

١٠٥- ابن عربي، محمد بن علي: رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن، ط١، مطبعة نضر ، دمشق،١٤١٠هـ.

١٠٦- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى: الصناعتين، (د.ط)، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.

١٠٧- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى: معجم الفروق اللغوية، ط١، تح: الشيخ بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي، قم،١٤١٢هـ.

١٠٨- ابن عصفور الاشبيلي، ابي الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي(ت٦٦٩هـ): شرح جُمل الزجاجي، ط١، دار العلمية، بيروت- لبنان، ١٩٩٨م.

١٠٩- ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري(ت ٧٦٩هـ): شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ط٢٠، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد،

دار التراث ، القاهرة، ١٩٨٠م.
١١٠- علم الهدى، علي بن الحسين: تنزيه الأنبياء عليهم السلام، ط١، الناشر:الشريف الرضي، قم، (د.ت).
١١١- بو عمرو، شهاب الدين: القاموس الوافي، مراجعة وتصحيح يوسف البقاعي، ط١، دار الفكر، لبنان، ٢٠٠٣م.
١١٢- عودة، عبدالقادر: التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، دار الكتاب العربي، بيروت،(د.ت).
١١٣- الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط٤، تحقيق، أحمد عبد الغفور عطار، ناشر، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٤٠٧ هـ.
١١٤- الفتلاوي، صاحب عبيد، تاريخ القانون، ط١، دار الثقافة، الأردن، ١٩٩٨م.
١١٥- الفخر الرازي، محمد بن عمر: التفسير الكبير مفاتيح الغيب، ط٣، تحقيق دار إحياء التراث العرب، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.
١١٦- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم: العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال(د ت).
١١٧- فضل الله، محمد حسين بن عبد الروف: من وحي القرآن، ط١ ، دار الملاك، بيروت، ١٤١٩هـ.
١١٨- الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط٨، لبنان، ٢٠٠٥م.
١١٩- الفيض الكاشاني، محمد بن شاه مرتضى: تفسير الصافي،ط٢، مكتبة الصدر، طهران،١٤١٥هـ.
١٢٠- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، نشر المكتبة العلمية، بيروت، (د ت).
١٢١- القبيسي العاملي، محمد حسن: تفسير البيان الصافي لكلام الله الوافي، ط١، مؤسسة البلاغ، بيروت، (د.ت).

١٢٢- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: تفسير غريب القرآن (لابن قتيبة)، ط١، دار و مكتبة الهلال ، بيروت، ١٤١١ هـ.

١٢٣- قراملكي، محمد حسن قدردان : أجوبة الشبهات الكلامية (التوحيد)، ط١، ترجمة ، اسعد مندي الكعبي، مطبعة الكفيل، العراق، ١٤٣٧هـ.

١٢٤- القطب الراوندي، سعيد بن هبة الله، فقه القرآن (للراوندي)، ط٢، تح: الحسيني الإشكوري، أحمد والمرعشي، محمود، الناشر: كتابخانه عمومى حضرت آية الله العظمى مرعشى نجفى (ره)، قم ، ١٤٠٥هـ.

١٢٥- القمي، علي بن إبراهيم: تفسير القمي، تحقيق طيب الموسوي الجزائري، ط٣،نشردار الكتاب، قم المقدسة، ١٤٠٤هـ.

١٢٦- القيرواني، أبو على الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط٥، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ١٩٨١ م.

١٢٧- القيسي، مكي بن حموش: الهداية إلى بلوغ النهاية، ط١، جامعة الشارقة، الشارقة، ١٤٢٩ هـ.

١٢٨- الكاشاني، فتح الله بن شكر الله: زبدة التفاسير،ط١ ،تح وطبع: مؤسسة المعارف الإسلامية، قم المقدسة، ١٤٢٣هـ.

١٢٩- الكرباسي، محمد جعفر: اعراب القران(الكرباسي)، ط١، نشر، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٢هـ .

١٣٠- الكرمي، محمد: التفسير لكتاب الله المنير، ط١، المطبعة العلمية ، قم، ١٤٠٢هـ.

١٣١- كريسي، موريسو: العلم يدعو للإيمان، تر محمود صالح الفلكي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٤م.

١٣٢- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تح:عدنان درويش ومحمد المصري، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت(د.ت).

١٣٣- الكفيشي، عامر: حركة التاريخ في القران الكريم، ط١، دار الهادي، بيروت،

٢٠٠٣م.
١٣٤- الكليني، محمد ابن ابي جعفر محمد بن يعقوب: الأصول في الكافي، ط٣، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٨٨هـ.
١٣٥- لويد، دينيس: فكرة القانون، تعريب: سليم الصويص، مراجعة: سليم بسيسو، عالم المعرفة، العدد ٤٨، نوفمبر، ١٩٨١م.
١٣٦- الماتريدي، ابوالمنصور: تأويلات أهل السنة (تفسير الماتريدي)، ط١ ، دار الكتب العلمية، تح: مجدي بأسلوم، بيروت، ١٤٢٧هـ.
١٣٧- ابن مالك، محمد بن عبدالله: ألفية ابن مالك، (د.ط)، دار التعاون،(د.ت).
١٣٨- المبرد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمإلى الأزدي: المقتضب، (د.ط)، تح: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).
١٣٩- المجلسي، العلامة محمد باقر: ط١، تح: هاشم ميلاني، مؤسسة النشر الإسلامي، ايران، ١٤١٦هـ.
١٤٠- المجلسي، محمد باقر محمد تقي: بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار، ط١، تح: عبدالزهرة العلوي، محمد باقر المحمودي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
١٤١- مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، نشر دار الدعوة(د ت).
١٤٢- المُدرّسي، محمد تقي: احكام الصيام وفقه الاعتكاف، ط١، دار بقيع، طهران، ١٤١٦هـ .
١٤٣- المُدرّسي، محمد تقي: من هدي القرآن، ط١، دار محبي حسن، طهران، ١٤١٩هـ.
١٤٤- المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ط١، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٣ هـ.
١٤٥- المطهري،مرتضى: العدل الإلهي، (د.ط)، تر: محمد عبدالمنعم الخاقاني، (د.ت).
١٤٦- المظفر، محمد رضا: عقائد الإمامية، (د.ط) نشر مكتبة الأمين، مطبعة

النعمان، النجف، ١٣٨٨هـ.
١٤٧- معرفة، محمد هادي: التفسير الاثري الجامع، ط١،مؤسسة التمهيد للثقافة والنشر، قم ١٤٢٨هـ.
١٤٨- معرفة، محمد هادي: التمهيد في علوم القرآن، ط٣، مركز إدارة الحوزة العلمية في قم - قم المقدسة، ١٤١٠هـ.
١٤٩- معرفة، محمد هادي: شبهات و ردود حول القرآن الكريم، ط١، مؤسسة التمهيد للثقافة والنشر، قم، ١٤٢٣ هـ.
١٥٠- مغنية، محمد جواد: التفسير المبين، ط٣، دار الكتاب الاسلامي، قم، ١٤٢٥هـ.
١٥١- مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف، ط١، دار الكتاب الإسلامي، قم ، ١٤٢٤هـ.
١٥٢- مقاتل بن سليمان: تفسير مقاتل بن سليمان، ط١ ، دار احياء التراث العربي، تح: عبدالله محمود شحاته، بيروت، ١٤٢٣هـ .
١٥٣- مكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط١، نشر مدرسة الإمام علي بن أبي طالب، قم، ١٤٢١هـ.
١٥٤- مكارم شيرازي، ناصر، الأخلاق في القرآن، ط٣، الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) - قم، ١٤٢٨ هـ.
١٥٥- منصور، محمد حسين: المدخل لعلم القانون، ط١، منشورات الحلبي الحقوقية، لبنان،٢٠١٠م.
١٥٦- المنصوري، علي جابر: الدلالة الزمنية في الجملة العربية، ط١، الدار العلمية الدولية ودار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٢م .
١٥٧- ابن منظور، محمد بن مكرم بن على: لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت،١٤١٤ هـ.
١٥٨- موريسون، كريسي: الله يتجلى في عصر العلم، ط١، دار القارئ، لبنان، ١٤٣٧هـ.
١٥٩- الموسوي، أبو الحسن: الفتوحات العلوية تأسيس الحكمة الإلهية على متن بداية

الحكمة، ط١، دار الحوراء، لبنان، ١٤٣٥هـ.

١٦٠- الموسوي، اسد الله: الإمامة، ط١، تح: مهدي رجائي، مطبعة سيد الشهداء، ايران، ١٤١١هـ.

١٦١- الموسوي، ضرغام كريم كاظم: البلاغة في سؤال وجواب، ط٤، مؤسسة دار الصادق الثقافية، العراق، ٢٠٢٣م.

١٦٢- الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكه: معارج التفكر ودقائق التدبر، ط١، نشر، دار القلم، دمشق، ١٤٠٢هـ.

١٦٣- النجار، زغلول راغب محمد: تفسير الآيات الكونية، ط١، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ١٤٢٨هـ.

١٦٤- النجار، عبد المجيد: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ط٢، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا- الولايات المتحدة الأمريكية، ١٤١٣هـ.

١٦٥- النجار، زغلول راغب محمد: من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ط٣، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ١٤٢٤هـ.

١٦٦- النحاس، أحمد بن محمد: إعراب القرآن للنحاس،ط١، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ١٤٢١ هـ.

١٦٧- نهاوندي، محمد: نفحات الرحمن في تفسير القرآن، ط١، مؤسسة البعثة، قم، ١٤٢٧هـ.

١٦٨- نهر، هادي: الصرف الوافي(دراسة وصفية تطبيقية)، ط١ ، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ٢٠١٠م.

١٦٩- الهراوي، عبد السميع سالم: القانون الطبيعي وقواعد العدالة، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة،(د.ت).

١٧٠- هيشور، محمد: سنن القران في قيام الحضارات وسقوطها، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م.

١٧١- واعظ زاده الخراساني، محمد :المعجم في فقه لغة القرآن وسرّ بلاغته، ط٢، الناشر:آستان قدس رضوى، بنياد پژوهشهاى اسلامى، ايران- مشهد، ١٤٣٠هـ.

١٧٢- ياقوت، محمود سليمان: النحو التعليمي والتطبيق في القران الكريم، ط٣، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ١٩٩٦م.

١٧٣- اليزدي، محمد تقي مصباح: معارف القرآن، ط٢، تعريب: محمد عبدالمنعم الخاقاني، دار الإسلامي، لبنان، ١٤٠٨هـ.

١٧٤- اليزدي، محمد: فقه القرآن (لليزدي)،ط١، إسماعيليان ، قم المقدسة ، ١٤١٥هـ.

١٧٥- ابن يعيش: شرح المفصل، (د.ط)، ادارة الطباعة المنيرية، مصر(د.ت).

Conclusion

God sent down the Noble Qur’an as a constitution for life, and a divine system that inspires man to the right path, when his paths become mixed up in his face and he is afraid of temptations that blind his insight from seeing the universe and its creatures. The Noble Qur’an is not only a salvation, but it contains a path to happiness and advancement to the highest levels of civilisation, through contemplation and understanding. Because the Holy Qur’an mentions the repetition of the blessings of subjugation in many places and different contexts, the Holy Qur’an makes us aware of our great mission in this universe, by linking the subjugations with relationships towards a complete performance in which it is organized from its small atoms to its large galaxies, including man. These relationships and exchanges are regular between the forces and man. Among them is a closer relationship, which is the relationship of subjugation, this relationship that a person must understand and reveal the laws that drive it, so that he can reach a deeper understanding of the movement of the universe and life through revealing the Sunnahs and knowing the causes deposited in subserviences, and this is a long chain of relationships that if they are closed, it is impossible to imagine any value. For the existence that came only to reveal that existing entity and its capabilities and characteristics that made it preferable to other creatures, so God, may God bless him and grant him peace, equipped man with a set of machines that enable him to perceive the Creator, by feeling the blessing so that he can reach reassurance, so it was necessary for a series of relationships to be integrated and to be The speech to man is good, not ugly. These data confirm that the universe is based on a law. It is not the product of chance, but rather is based on a precise system from which no element of the universe can fail.

Ministry of Higher Education

and Scientific Research

University of Kerbala

Department of Quranic Studies

and Jurisprudence

The difference in the jurisprudential definitions and it's impact on the legal rulings of the Imamiyah, presentation and analysis

The subjugated law in the Holy Qur'an,

(An analytical study)

A letter submitted to the Council of the College of Islamic Sciences / University of kerbala, which is part of the requirements for obtaining a master's degree in Sharia and Islamic Sciences

Dissertation submitted by

Mayada Wa`el Abbas

Supervised By:

Prof. Dr.

Dargham Karim Al-Moussawi

September - ٢٠٢٣ - AD **Rabi`a Awal - ١٤٤٥ - AH**